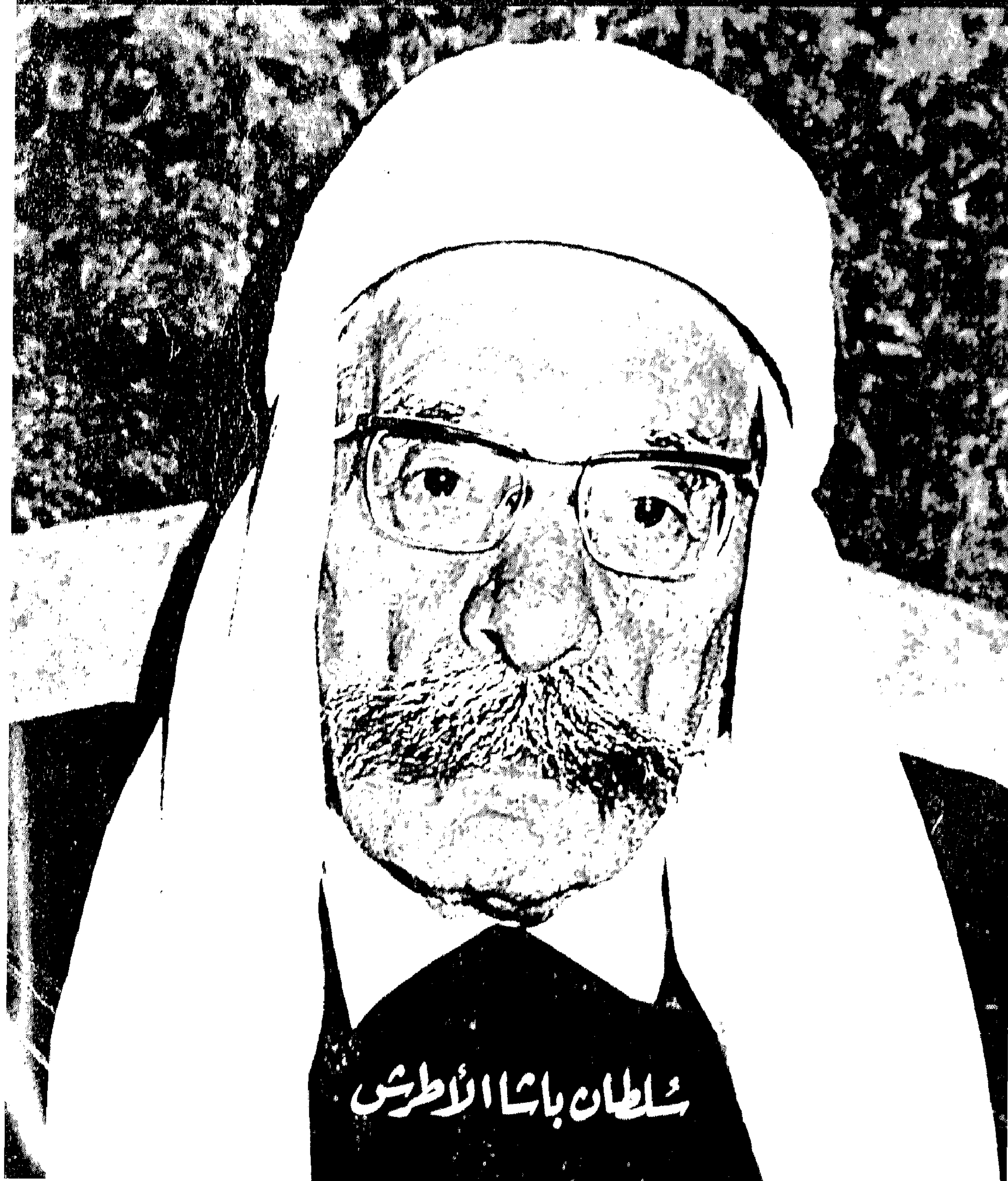
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الرابعة • العدد الثالث والأربعون • أيار (مايو) • ١٩٨٢م • الموافق رجب ١٤٠٢هـ •



سلطان باشا الأطرش

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



بناية ابو هليل – شارع السادات – بيروت – لبنان – ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

تاريخ العرب والعالم

العدد ٤٣ ■ أيار ١٩٨٢

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والابحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	تونس	١ دينار
العراق	٨٠٠ فلس	الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٨ ريال	الامارات	٨ درهم
الأردن	٥٠٠ فلس	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
سوريا	٦ ل.س.	اميركا	٣ دولارات

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٧٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 4 No. 43. MAY 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



سلطان باشا الاطرش



سلطان باشا الأطرش،
آخر الجبابرة، وثاني اثنين،
كان، زمنياً، آخر الجبابرة من أبناء الجيل المخضرم،
وإن كان، ذاتياً وواقعياً، يأتي في طليعتهم،
الجيل الذي قاوم الأتراك، وحارب الإنتداب، وانتزع الاستقلال، جيل الاستقلال العربي.
وكان ثاني اثنين صعدت روحاهما الغاليتان من الأرض الى السماء، وهبط جثماناهما الغاليان من السماء الى الأرض.
ففي يوم أول تشرين الأول ١٩٧٠، أقلّت طائرة عامودية جثمان فقيد العرب، الرئيس جمال عبد الناصر، من قصر القبّة، عبر سماء القاهرة، وحطّت به في ميدان الجزيرة، وسط ملايين المشيعين.
وفي يوم ٢٨ آذار ١٩٨٢، حملت طائرة عامودية جثمان فقيد العرب، سلطان باشا الأطرش، من قريته «القريَّة»، عبر سماء جبل العرب، وحطّت به في ميدان السويداء، وسط مئات الألوف من المشيعين.
وكان من قَدَري، بل من واجبي، أن أشارك في المأتمين.
في المهرجانين اللذين يفوق واقعهما كل وصف.
سلطان باشا الأطرش،
اسم دخل في تاريخ العرب الحديث، في بلاد الشام، من أوسع أبوابه.
دخله من باب الجهاد في سبيل الوطن،
من باب النضال في سبيل الحريّة،
من باب القتال في سبيل الكرامة والعزة القومية.



والثورة السورية الكبرى

د. حليم أبو عز الدين

وعـاش حيـاة طويلة اتسمت بـالايمـان، والتقشف، والعطاء،

الايمان بالله،

والتقشُف في النفس،

والعطاء للأمة وللوطن.

هذا هو الرجل الرجل الذي فقدناه، والذي نحيي ذكراه الخالدة في هذا الحديث.

وُلد سلطان الأطرش في قرية «القريَّة»، من أعمال جبل العرب، في سوريا. وكان ذلك حوالي العام ١٨٩٠، والده، ذوقان مصطفى الأطرش، كان شيخاً للقرية، ومن زعماء الجبل، والفرسان المعدودين فيه.

ونشأ سلطان على تقاليد الأسـرة العربيـة الكريمة، خاصة في مناطق العشائر، تقاليد الأَنَفَة، والفروسية، والإقدام .

وكان الجبل، جبل العرب، ميداناً رحباً لهذه التقاليد المناقبيّة.

فقد رفع الجبل دوماً راية العزة والشموخ،

وتصدّى بهبَّة مُضَريّة لكل ضيم.

أبى الجبل الهوان، وتعشق الكرامة،

وكان تاريخه سجلاً للشهامة والاباء.

كان سنداً وعوناً للقريب، وناراً وثورة على الغريب.

ثار الجبل على الأتراك،

وقاتل في العام ١٨٣٨ جيش ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا، والي مصر، عندما اعتدى على الجبل، وقرّر تجنيد أبنائه في جيشه النظامي. ولا تزال أنباءُ وقائعه وابراهيم باشا تسير مع الركبان.

وكان جيش ابراهيم باشا قـد دوّخ جيش السلطنة العثمانية وافتتح عكا التي ارتدّ عنها جيش بـونـابـرت، وحلّت طلائعـه في أواسـط الأناضول.

وقاوم الأتراك، وانبرى لرد حملة ممدوح باشا عليه. وعاد الجبل فثار، عام ١٩١٠، على الأتراك. فجرّد عليه الباب العالي حملة عسكرية ضخمة قادها سامي باشا الفاروقي. وهرعَ فرسان الجبل لمناجزة هذه الحملة، وكان في طليعتهم ذوقان الأطرش.

وكان الى جانب ذوقان الأطرش ولده سلطان، الفارس الشاب ابن العشرين عاماً.

وتمكن القائد العثماني، بما كان يتمتع به من تفوّق عددي ومادّي، وبعد أن خاض مع فرسان الجبل معارك طاحنة، تمكن من دخول الجبل.

ووقع ذوقان الأطرش أسيراً لدى الأتراك، فحكموا عليه بالاعدام، ونفذوا الحكم.

وغاب ذوقان، وقام سلطان.

وبدأ سلطان يُعِدّ للثأر، وللثورة.

الثأر من قاتلي والده،

والثورة على أعداء العرب.

وبينمـا هو يُعِـد ويُخَطِّط، انفجـرت الحرب العالمية الأولى.

وقامت الثورة العربية الكبرى،

وتحرّك الجبل لمساندة الثورة.

وتقدمت قوات الثورة العربية، بقيادة الشريف فيصل بن الحسين، من مكـة والمدينـة وبلغت العقبة.

وانضم اليها فرسان الجبل بقيادة سلطان باشا الأطرش، وحسين باشا الأطرش.

وتوافد شباب المدن السورية للانضمام اليها.

وتجمعت في الأزرق، في خريف عام ١٩١٨، قوة من أبناء سوريا، ومن سائر العرب، سارت شمالاً باتجاه دمشق. وهاجم فرسان الجبل الأتراك في الجبل وفي حوران، وأجلوهم عنهما. وأخذوا منهم العديد من الأسرى.

وثأر سلطان الأطرش لوالده، كما ثأر لأمته.

ودخلت القوات العربية دمشق، وكان في طليعتها فرسان الجبل وعلى رأسهم سلطان.

وكان ذلك في ٣٠ أيلول ١٩١٨.

وقام الحكم العربي في دمشق وسائر البلاد السورية.

واستبشر العرب بقيام الحكم العربي بعد أربعة قرون من الحكم التركي.

ولكن النشوة لم تدم طويلاً.

فالفرنسيون كانوا مصممين على احتلال البلاد وفقاً لمعاهدة «سايكس ــ بيكو».

وفعلاً أطبقوا عسكرياً على سوريا بعد معركة ميسلون، في ٢٤ تموز ١٩٢٠.

وسارع الفرنسيون ففصلوا، عام ١٩٢١، الجبل، ادارياً، عن سوريا. وأنشأوا فيه حكماً «مستقلاً» دعوه «دولة جبل الدروز». ونصبوا سليم الأطرش أميراً على الجبل. ولكن الحكم الفعلي كان بيد المستشار الفرنسي. ثم حكم الفرنسيون الجبل حكماً مباشراً أساء الى أبنائه.

وجاء وفد من أعيان الجبل لمقابلة المندوب السامي الفرنسي وبثه شكوى الجبل من سوء تصرف الضباط الفرنسيين، فرفض استقبالهم، وهددهم بالاعتقال والنفي.

وغضب الجبل، واستعدّ للثورة.

وجرت اتصالات بين الجبل ودمشق، واتفق الجميع على إعلان الثورة، وأقسموا على الجهاد.

واجتمع فتيان الجبل في السويداء في اليوم الأول من أيام الأضحى الواقع في ٢١ تموز ١٩٢٥، وقاموا بمظاهرات (أعلنوا خلالها العصيان. وهنا بدأت «الثورة السورية الكبرى».

طاف سلطان بالقرى الدرزية يدعو للجهاد. زار أم الرمان، امتان، مَلَح، عرمان، صلخد، مستنفراً الأهلين للقتال. وكان الأهلون بطبيعتهم مستنفرين ومعبأين.



سعيد العاص ونزيه المؤيد العظم
من كتاب «الثورة السورية الوطنية»
للدكتور عبد الرحمن شهبندر ١٩٣٣م

تقاطروا، ركباناً ومشاة، وراء سلطان ــ القائد العام للثورة السورية ــ يهزجون، ويحدُون، و «ينتخون».

ولم تفت هذه المظاهرات الحربية السلطة العسكرية الفرنسية، التي بادرت الى جمع قوة من حوالي ثلاثمائة جندي وجرّدتها بقيادة الكابيتن «نورمان» ووجهتها نحو «القريّة»، بلد سلطان. ولكن علي الأطرش، شقيق سلطان، تصدّى لها وأنذرها بالابتعاد. فانتقلت الى الكفر حيث نزلت بالقرب من مائها.

فخرج اليها أسعد مرشد، شيخ الكفر، وأنذر قائد الحملة بوجوب الانسحاب.

فلم يأبه القائد الفرنسي للانذار بل بادر الى التهديد والوعيد.

ووصل سلطان الى الكفر، وكان ذلك في ٢٢ تموز ١٩٢٥. واتخذ مواقع القتال حول القوّة الفرنسية. وقسم رجاله الى قسمين وهجم في طليعتهم على الجند. واستقرّ سلطان واخوانه في

وسط القوة الفرنسية يعملون في رقاب عديدها السيف.

واستمرت الملحمة، بالسلاح الأبيض، عشرين دقيقة فقط. فأفنوها، ولم ينجُ منها الاّ بضعة أفراد كانوا خارج المعركة. فسارعوا الى السويداء ينقلون خبر الكارثة الى القائد الفرنسي، فيها «تومي مارتان».

وعلم الجنرال ساراي، المندوب السامي الفرنسي والقائد العام، في بيروت، بنبأ الهزيمة. فعكف على اعداد حملة تأديبية تثأر للهزيمة، وتعيد الهيبة للسلاح الفرنسي.

وكان المجاهدون، في هذه الأثناء، قد نزلوا الى السويداء، وطوّقوا قلعتها الشهيرة.

أعد الجنرال ساراي حملة كبيرة قوامها خمسة آلاف جندي فرنسي، وجهّزها بجميع معدات القتال الحديثة من مدفعية، وطائرات، ودبابات، ومصفحات، وعقد لواءها لأحد قادته، الجنرال ميشو.

تجمعت هذه الحملة في بلدة «أزرع»، ومنها انطلقت يوم أول آب ١٩٢٥ باتجاه الجبل. وكانت قوات صغيرة من المجاهدين تتصدى لها، في طريقها، لمناوشتها، ولبلاء قوتها وامكاناتها.

وسارت الحملة، حملة ميشو، في الجبل الى أن وصلت الى ماء قريب من بلدتي السجن والمجدل، يدعى «المزرعة»، حين حطّت رحالها.

ولم تطل راحة الحملة. فقد هاجمها في المساء فريق من المجاهدين من أبناء المقرن الغربي، ومعهم عدد من أبناء المقرن الشرقي، بينهم الفارسان جاد الله سلام ومحمد شرف، وانقضوا عليها، واستولوا على الكثير من عتادها، وعادوا الى مراكزهم حيث وزعوا العتاد على المجاهدين.

وفي صباح اليوم التالي هب حوالي المائة وعشرون فارساً من أبناء السويداء، يساندهم حوالي الأربعمائة مجاهد من أبناء القرى القريبة، المجدل ونجران وسليم، وعدد آخر من سائر أبناء الجبل، بلغ عديدهم، جميعها، حوالي الثمانمائة.

ولما رأى الجندُ بني معروف حوله، بادر الى تفجير جمع أنواع أسلحته بوجههم. فلم يأبه المجاهدون للنار، وانطلقوا، واخترقوا صفوف الفرنسيين، وجابهوهم بالسيف وبنادق «المعدّل» و «المارتين».

ان آيات البطولة والشجاعة والإقدام التي سجلّها الدروز في معركة «المزرعة» فاقت كل تصوّر.

حتى أن الفرنسيين أنفسهم، وهم شعب مقاتل، أشادوا بها. وهم الذين وصفوا هجوم المجاهدين العزّل، الا من السلاح الأبيض أو المارتين، على الدبابات وعلى المصفحات:

«يلقون مترليوزنا بصدورهم
ويحاربون «التنك» بالأبدان»

كانوا يقفزون من على جيادهم على ظهر الدبابة، وينزلون في برجها الى قائدها ويجندلونه.

وقد أبلى الجميع أحسن البلاء في هذه المعركة، وكان في مقدمتهم الشهيدان سليمان العقباني، من قرية السجن، وحمد البربور، من قرية أم الرمان.

هذه المعركة — معركة المزرعة — أتتْ على أكثر حملة ميشو. ولم يسلم منها إلاّ فلول بلغ عددها الألف ومائتي جندي عادوا جرياً الى محطة أزرع، يلقون بأنفسهم على القطار الذاهب الى دمشق.

كان من نتائج هذه المعركة أن استتب الأمر للمجاهدين في الجبل.

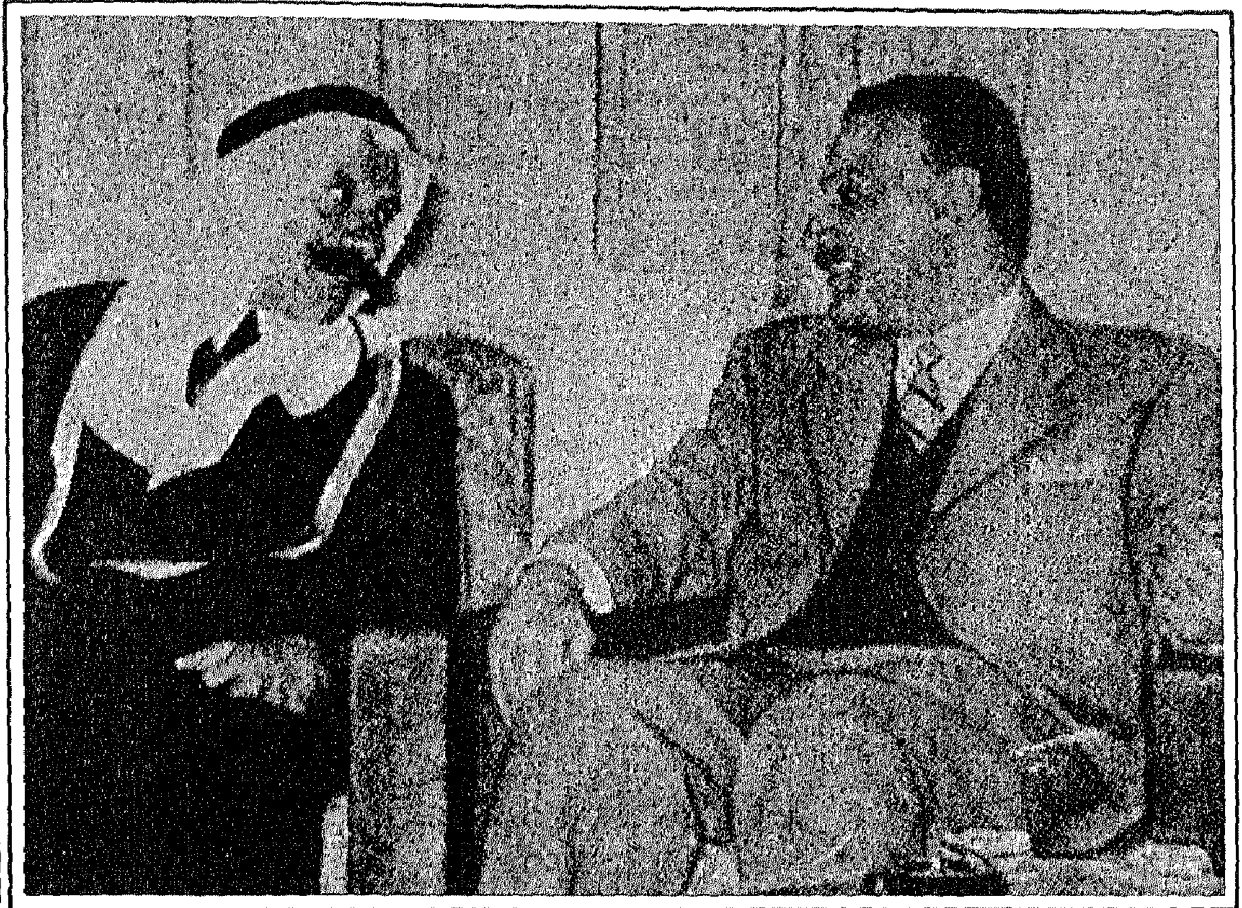
وتوجه وفد من أعيان دمشق الى الجبل للاتفاق على وضع خطة مشتركة لمهاجمة دمشق، من الداخل ومن الخارج.

وفي أواخر آب ١٩٢٥ عقد اجتماع لدى سلطان الأطرش في قرية «كفر اللحى» في الجبل، حضره عدد من زعماء دمشق، منهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ونزيه المؤيد العظم ونسيب البكري ويحيى حياتي وحسن تحسين، تقرر فيه اعداد العدة لدخول دمشق.

وكذلك استقبل سلطان في كفر اللحى وفداً من أبناء الجولان، ومن وادي التيم، جاؤوا يعرضون المشاركة في الثورة، ويطلبون من القائد العام مدّهم بالرجال والعتاد.

وثارت دمشق، وانتقل المجاهدون، من دمشق ومن الجبل، الى الغوطة. واشتد سعير القتال في دمشق وفي الغوطة. وقصف الفرنسيون دمشق بالقنابل.

وثارت حماه، وانضم الى ثورتها القائد فوزي القاوقجي، وكان ضابطاً في القوات السورية



الرئيس جمال عبد الناصر وسلطان باشا الاطرش.

الملحقة بالجيش الفرنسي. وهاجم الثوار القوات الفرنسية داخل المدينة واستولوا على أكثر مواقعها.

على أن الثوار مالبثوا أن انسحبوا منها مخافة تطويقها من قبل القوات الفرنسية.

وفي ١٧ أيلول ١٩٢٥ وقعت معركة «المسيفرة» حيث كان قد تجمع عدد من الجند الفرنسيين. وكانت الخطة التي وضعها المجاهد محمد عزالدين الحلبي تقضي بأن يفاجيء الثوار الجيش في المسيفرة مفاجأة تقضي عليه. ولكن الذي حدث أن رصاصة أطلقت في الليل أيقظت الحرس الفرنسي قبل وصول المجاهدين ببضع دقائق فاستعدوا للمعركة. وجاءت نجدة للفرنسيين حاولت تطويق الثوار، فانسحبوا منها.

أفاد الفرنسيون من نتائج معركة المسيفرة ليدخلوا السويداء ويفكوا الحصار عن القلعة.

وكان القائد الفرنسي الجديد، الجنرال غاملان ــ الذي أصبح لدى بدء الحرب العالمية الثانية قائداً عاماً للجيش الفرنسي ــ قد وصل في ١٣ أيلول ١٩٢٥ الى بيروت، على رأس امدادات ضخمة من الرجال والعتاد تستهدف القضاء على الثورة.

وانتقل غاملان مع حملته الى أزرع حيث جمعها وانطلق منها في ٢٣ أيلول باتجاه السويداء.

وقد تركه الثوار يتقدم نحو المدينة لضخامة قوته، ولأن التصدي لها في مداخل الجبال أيسر.

ودخلت الحملة في ٢٤ أيلول الى السويداء، وأنقذت الحامية التي كانت محاصرة في قلعتها.

وأرسلت الحملة قوة لاستقاء الماء من قرية قريبة تدعى «أم صابر»، فوقعت في كمين نصبه الثوار لها، واستولوا على أسلحتها، وبدأوا يطلقون الرصاص على القوة. ولما جنّ الليل تقدم الثوار نحو السويداء، وأكثروا من اطلاق الرصاص عليها، فظن غاملان أن الثوار ينفذون خطة مدبرة لتطويقه وحصاره، فجلا عن السويداء، وعاد الى المسيفرة.

وامتدت الثورة الى الجولان، وتوجهت قوة من الثوار بقيادة زيد الأطرش وفؤاد سليم الى مجدل شمس واستولت عليها. واستشهد في المعركة القائد الكبير فؤاد سليم.

وأبلى المجاهدان كنج أبوصالح وأحمد مريود أحسن البلاء في معارك الاقليم والجولان.

وتوجهت قوة من المجاهدين الى وادي التيم، استجابة لدعوات وجهت اليهم من الكثيرين من



الأمير عادل ارسلان

أبناء الجنوب اللبناني. وكان على رأس الحملة زيد الأطرش، ومن أركانها حمزة الدرويش.

احتل المجاهدون حاصبيا في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٥ دون مقاومة لأن قائد الحامية الفرنسية علم بوصول الثوار الى حاصبيا، وشعر بضعفه وعدم تمكنه من المقاومة. فعرض أمره على الشيخ حسين قيس، كبير مشايخ خلوات البيّاضة، الذي استجاب لطلب اجلائه، فأوصله آمناً الى النبطية.

ودخل الثوار حاصبيا بقيادة حمزة الدرويش.

وكانت قد سبقت المجاهدين الى وادي التيم مناشير الثورة التي أذاعها قائد الثورة في الجنوب، زيد الأطرش، مُتوَّجة بجملة «الدين لله والوطن للجميع»، تدعو المواطنين للانضمام للثورة، قائله لهم: «يا أحفاد العرب الأمجاد. هذا يوم ينفع المجاهدين جهادُهم».

ومن حاصبيا أرسل المجاهدون قوّة الى راشيا للاستيلاء على قلعتها الشهيرة، وللانتشار منها شمالاً نحو رياق والبقاع لقطع خطوط الاتصال بين القوات الفرنسية في الداخل وفي الساحل.



سلطان باشا الأطرش قائد الثورة العربية

استولى الثوار على بلدة راشيا، وألقوا الحصار على قلعتها التي تجمعت فيما قوى الحامية الفرنسية. وتمكنوا من خلال عمل بطولي من تسلق أسوار القلعة، ودخلوها في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٥. (أي في نفس اليوم، ٢٢ تشرين الثاني، الذي غادرها فيه بعد ١٨ سنة (عام ١٩٤٣) رجال الحكم في لبنان الذين اعتقلهم الفرنسيون خلال أزمة تعديل الدستور).

ولكن الثوار لم يبقوا طويلاً في قلعة راشيا، اذْ مالبثت القوات الفرنسية، تساندها الطائرات التي قصفت الثوار في القلعة — مالبثت أن استردتها بعد أن غادرها هؤلاء.

في هذه الأثناء كانت فرنسا — الدولة العسكرية الكبرى، وخاصة في تلك الآونة — قد حشدت في سوريا ولبنان قوات ضخمة، جاءت بها من بلادها، ومن المستعمرات الافرنسية المتعددة. وجهّزت هذه القوات بالعتاد الحديث، والأسلحة الثقيلة، والطائرات.

وضيّقت هذه القوات الفرنسية الخناق على الثوار، وعلى الجبل.

وتمكنت بعد معارك طاحنة من اخماد لهيب الثورة. ودعت الثوار الى الاستسلام، ووعدت المستجيبين منهم بالعفو.

واستسلم بعض أركان الثورة، وعادوا الى بيوتهم، وقراهم، ومدنهم.

ابو عمار يحمل بين يديه صورة سلطان باشا الأطرش



ورفض سلطان الأطرش الاستسلام.
ورفض الأمير عادل أرسلان الاستسلام.

ورفض الاستسلام أيضاً عدد من أخوانهما المجاهدين. فانكفأوا من الجبل الى شرقي الأردن.

ومن شرقي الأردن انتقلوا الى وادي السرحان.

وعاشوا في الصحراء.

وبقي سلطان الأطرش واخوانه في الصحراء حتى العام ١٩٣٧.

حينما تم العفو عنهم، ودُعوا الى العودة الى الوطن.

وكان ذلك اثر توقيع المعاهدة السورية ــ الفرنسية.

وعاد سلطان الى عرينه في الجبل.

عاد لاستكمال مسيرته الوطنية في خدمة سوريا والعروبة.

عاد ليعيش العمر الطويل، الصالح، الطافح بجلائل الأعمال.

عاد عميد المجاهدين العرب لجهاده الوطني، بعد أن قام بجهاده الحربي.

ولاقى وجه ربّه ذي الجلال والاكرام في ٢٦ آذار ١٩٨٢. عن عمر ناهز الاثنين وتسعين عاماً.

في ختام الحديث عن سلطان باشا الأطرش، وعن الثورة السورية الكبرى، وعن الجبل، وعن دمشق، نورد بعض الشعر الصافي الذي قيل تحية لهم.

قال الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري، في سلطان:

خففت لنجدةِ العاني سريعا ... وَثُوباً لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جمعٌ ... بهم، وبدونهم، تفني الجموعا

فيالك أطرشاً لما دُعينا ... لثأرٍ، كنت أسمعنا جميعا

وقال الأمير عادل أرسلان، أحد أبطال الثورة، مخاطباً **دمشق**:

أضاحية الفيحاء هل جفت الدما ... وهل آن للموتور أن يتبسمّا
وهل أبطلتْ فيك المدافعُ رعدَها ... وهل آذنت للطير أن يترنما
سلامٌ على الفيحاء من قلب موجَعٍ ... أبت نفسه في الحب أن يتظلّما
فتى أخذت أيدي النوى من شبابهُ ... فما تركتْ إلّا فؤاداً متيماً

فلا زلتِ في وجه الجزيرة شامةً ... وأصبحت من باريس أعلى وأعظما.

وقال أحمد شوقي مخاطباً دمشق، والثوار، **والجبل**:

سلامٌ من صبا بردى أرقُّ ... ودمعٌ لايُكَفكَفُ يادمشقُ
ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلال الرزء عن وصفٍ يدق
وبي مما رمتك به الليالي ... جراحات لها في القلب عمقٌ
ألستِ دمشق للأحرار ظئراً ... ومرضعة الأبوّة لاتُعق

وأضاف:

دمُ الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلمُ أنه نورٌ وحقٌّ
وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يد مضرّجةٍ يُدَقّ

وما كان الدروز قبيل شرٍ ... وإن أُخِذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادةٌ وقراةُ ضيفٍ ... كينبوع الصفا خشنوا ورقّوا
لهم جبل أشمّ له شعافٌ ... موارد في السحاب الجون بلقُ.

خط عربي تزييني
يمثل طائراً يحمل
رسالة إلى العلامة
عبد القادر الفلالي.

أثر الفنّ العربي

الإسلامي على الفن الغربي

د. عفيف البهنسي

انتشرت تيارات الفن الحديث الأوروبي في البلاد العربية، بل في أنحاء كثيرة من العالم ودخلت هذه التيارات والمدارس في تقاليد الفن الحديث في بلادنا، حتى غابت شخصية الفن الأصيل، وأصبح النقد يدور، حول الاتجاهات الأكثر تطرفاً. وأصبح المقياس الجديد لمشروعية الفن الحديث، هو حدود المدارس الفنية التي تبناها الفنانون وتبنتها مدارس الفنون في البلاد العربية.

وفي الوقت الذي كانت السيطرة الثقافية الغربية تتزايد على الثقافة في البلاد العربية، كان الفن في الغرب يعاني أزمة حادة ظهرت مع ظهور الرومانتية التي كانت في بداية الاتجاهات الرافضة للأصول الكلاسية، التي كانت قانون الفن منذ عصر النهضة وحتى الكلاسية المحدثة. وبعد أن انتصرت على (الدافيدية) كان عليها ان تنتصر على الواقعية (الأنغرية) وهكذا ظهرت الانطباعية والوحشية والسريالية والتجريدية. لكي تقضي نهائياً على جميع معالم الجمالية التقليدية، ولكي تنهي عهد المقياس والقاعدة والواقع والأدب في الفن.

مع هذه الثورات المتلاحقة كانت الثقة بالفن الغربي تضعف باستمرار، وكان البحث عن الطريف والجديد قد استنفذ أغراضه بعد أن وصل الفن الى حافة (العدم التعبيري). وكانت محاولات الخروج من هذه الأزمة قد وجدت منجاة لها من خلال النزعات التغريبية (Exotisme) والاستشراقية التي اتجهت نحو العالم الآخر فيما وراء البحار أو فيما وراء الأبيض المتوسط، بحثاً عن فنون جديدة وعالم جديد؛ الإنسان والطبيعة والتقاليد فيه تختلف كل الاختلاف عن عالم الفن في أوروبا.

ولم يكن الفن العربي الإسلامي إلا حصيلة حضارية مجسدة لعالم الشرق العربي، وكان على الفنانين الذين زاروا هذا العالم، أن يأخذوا عن هذا الفن أساليب جديدة استحوذت بسرعة على قلوب المتذوقين، وكان لها رواج بعيد المدى، مما دفع الفنانين المستشرقين وبسرعة الى أعلى مراتب الشهرة.

ودعمت هذا الاتجاه الدراسات التي قدمها مؤرخو الفن الإسلامي من أمثال دافن Presse d'Avesne).

غايه (Gayet)

مارسيه (Marçais)

اتنجهاوزن (Ettinghausen)

أو الدراسات التي قدمها فلاسفة الفن ومنظروه والذين درسوا جمالية الفن الإسلامي وعرضوا خصائص هذا الفن وأبعاده وحددوا شخصيته. من أمثال

بابادوبولو (Papadopoulos)

وغرابار (O. Grabar)

وهكذا توضح الفن العربي الإسلامي في أعمال الفنانين الغربيين كما توضح في الدراسات الفنية العالمية، وقبل وقت من توضحه في أذهان العرب أنفسهم وفي ابداعاتهم وقبل وقت من ظهور انتشار الدعوة الى الأصالة التي راجت منذ الخمسينات.

كان الشرق العربي، منذ بداية حضارته الموحدة بالإسلام، وحتى إبّان الحضارات المتفرقة القديمة، يعتمد على تراث فني عريق

متصل بوسائله وحاجياته، قريب مما نسميه اليوم بالفنون التطبيقية، بيد ان له طابعاً مميزاً يجعله غالباً، في حكم الفن الصرف.

ولقد ألف الناس ما حولهم من مظاهر الفن، فلم تكن الصناعة الرفيعة شيئاً آخر يدفع الى تقدير منفصل عن القيمة الاستعمالية للشيء ذاته، ولكن اتصال الشرق بالغرب، عن طريق التجارة أو الحرب أو الاحتكاك الثقافي والدبلوماسي، كشف عن مظاهر رائعة للفن العربي، اقتبسها الفنان الغربي والمواطن العادي، في أعماله الفنية أو في أشيائه الخاصة، ونلاحظ ذلك بوضوح بعد الفتح العربي للأندلس، أو بعد قيام الامبراطورية البيزنطية، وابان الحروب الصليبية.

على ان الفن الشرقي ازدهر في حياة الأوروبيين، في البلاد التي كان بينها وبين العرب تجارة مستمرة، أو مبادلات للتمثيل الدبلوماسي كما تم أيام الحكم العثماني.

وقد استهوى الأوروبيين الفن الشرقي الغريب لديهم، والذي يقترب مما أسميناه بالفن التطبيقي، أما التصوير والنقش، فلم يكن بطرافة الفنون التزيينية الأخرى رغم تقدمه وتطوره، خلافاً للاعتقاد السائد بأن الرسم كان ممنوعاً على المسلمين.

والحق أننا نرى في العصور الإسلامية المختلفة، رسوماً وصوراً مازالت باقية رغم الأحداث الرجعية التي مرت بها الدول الإسلامية، وفيها اتجاه خاص، ولعله أحياناً شبيه بأسلوب فن مابين النهرين، كصورة الرسول محمد (ص) وهو يتلقى الوحي من جبريل. (والصورة محفوظة في المكتبة الوطنية في القاهرة وهي ترجع الى عام ٦١٢ هجرية). أو الى الرسوم التي وجدت على جدران «قصير عمره» الذي بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك، شرقي عمان، ومنها رسم الخليفة، ومشاهد الصيد والاستحمام، ورسوم أعداء الإسلام، وراقصات عاريات أو مرتديات، ويكاد أسلوب الرسم والتصوير يكون امتداداً للفن البيزنطي، وقد قام بالتصوير فنانون من سكان البلاد.

على ان ما وصل الى أوروبا، هو مظاهر الحياة الجميلة في الشرق العربي، وقد تأثرت النهضة الايطالية أولاً، بتقاليد الفن الإسلامية التي نقلها العثمانيون عبر القسطنطينية. فلقد أصبحت الأزياء العثمانية، موضع اعجاب أهل البندقية وفلورنسا لغرابتها وبهائها، فالروب الطويل الشرقي، والعمامة العالية، أصبحا مألوفين لديهم، للعلاقات المستمرة التي كانت بين الدولة العثمانية وبين ايطاليا. ولذلك فاننا لن نستغرب أبداً اذا ما رأينا «مازاتشيو» أباً للفن الايطالي، وقد تناول في صوره موضوعات وشخوصاً، ارتبطت تماماً بالتقاليد الإسلامية.

ولم يقتصر تأثير الشرق العربي، على ما انتقل الى أوروبا من مظاهر الفن، بل ان بعض الفنانين حاول الترحال الى الشرق، للتعرف على غرائب الحياة، وعلى مظاهر الحضارة، التي كان ماركو بولو (من البندقية) قد حكى عنها بعد أسفاره التي قام بها عبر الشرق، في مؤلفه «كتاب روائع العالم».

وفي لوحة محفوظة في أكاديمية الفنون الجميلة في البندقية، صورها «جيوفاني مانزويتي» عن القديس الانجيلي مرقص، نرى أن الأزياء العربية التي صورها، استعيرت من الطرز العثمانية التي كان التجار الأتراك والعرب يتحلون بها عند زيارتهم البندقية.

على أن «فرونيز» فنان البندقية الأشهر، كان بارعاً في استحضار تقاليد الحياة في القدس أيام المسيح، ففي لوحاته الكبيرة «الغداء عند ليفي» و «الغداء عند شمعون» وغيرها، نراه وقد كسا شخوصه بقماش البروكار العربي المحلى بالجواهر الشرقية، وحاول ان يتصور الطابع الصحيح على أقرب وجه.

وعندما كان الفنان يحاول تصوير المواضيع الغريبة التي تمثل الحياة المستترة في الشرق، والمشاهد المثيرة التي ترد عن الشرق، كان يلجأ غالباً الى تصوير ذلك في جو قريب من الجو المعاصر، ففي لوحة «الرجل ذو العمامة» لروبنز، نلاحظ مدى التزام الفنان لتفاصيل اللباس والهيئة التي يتميز بها إنسان الشرق، وخاصة العربي، كما نلاحظ تقيده بميزات هذا الإنسان، كالبسالة والفروسية التي أجاد روبنز التعبير عنها في لوحات صيد الأسود.

ومن الواضح ان الفنان الأوروبي، لم يكن ليميز في تصويره الإنسان الشرقي في مختلف جنسه وجنسياته، فقد اختلط لديه العربي في الشام، وفي مصر، وفي المغرب، بل لقد اختلط لديه العربي المسلم بغيره من المسلمين في تركيا وايران. ولعل الإسلام لديه، كان أشبه بالقومية التي تضيع فيها حدود الأمة العربية بالأمم الأخرى المسلمة، وهذا ما نراه في لوحة «داي الجزائر» لفلاسكس و«هضبة سيناء» لاليغريكو، أو في صورة «موسى» لتوتيشلي، أو صورة «الفتاة بالعمامة» لفيرمير، أو صورة «حديث مع الشرق» لرامبرانت.

بيد ان الصور التي خص بها الفنانون الأوروبيون، المواضيع التركية والشخصيات العثمانية الشهيرة في ذلك الوقت تمتاز من ناحيتين، أولاً أنها كانت في اعتقاد الغرب تمثل الشرق المتمدن، اذ ان الامبراطورية العثمانية امتدت حتى شملت أكثر الدول العربية والإسلامية، بل أنها وصلت حتى حدود فيينا في أوروبا. ولم يكن في نية الفنان الأوروبي، أن يدقق في الأجناس التي انضوت تحت سيطرة العثمانيين، فقد كان شعار الإسلام كافياً لصهر جميع هذه الدول في بوتقة دولة واحدة شرعية، وخاصة بالنسبة للدول الغربية الأخرى.

والناحية الثانية هي واقعية الأعمال الفنية التي أنجزها الأوروبيون عن الشرق العربي، فلقد نقلت مباشرة، وليس عن طريق الوصف أو الذاكرة أو الخيال. واللوحات الشخصية التي رسمها فنانون أوروبيون لشخصيات عثمانية (يدخل في ذلك العرب) كثيرة. ذلك لأن الانتصارات الحربية والفتوحات الكبيرة، أدت الى وجود طبقة أرستقراطية مترفة، أثرت ورفلت بالنعمة، وكان لابد أن يزين أصحابها قصورهم بلوحات تمثلهم، وتشهد على انتصارهم وسلطانهم، كما في لوحة «سعيد باشا قنصل الباب العالي» التي رسمها المصور الفرنسي أفيد.

على أن الرداء الشرقي، والأزياء وطرز التزيين والتجميل الشرقية، وقد أصبحت مفرطة في أناقتها وفخامتها وبهائها، استهوت الأوروبيين، حتى كانوا يتحلون بها ويقلدونها ويطلبون تصويرهم بها، كما في لوحة تافيرنيه، للفنان لارجيليه، أو في لوحة «المركيزة أولومارتان» أو في لوحة «قنصل فرنسا لدى السلطان» أو صورة «كونت فيرجين» باللباس التركي.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر، فقد تهافت الفنانون على زيارة شمال أفريقيا مدفوعين وراء طبيعة جديدة وحضارة جديدة، ثم غيرت زيارتها جميع أوهامهم. فألفوا هذه المشاهد وتلك الحياة، وأضحت أساساً لموضوعاتهم ورسومهم.

وهكذا أصبح السفر الى شمالي أفريقيا العربية ــ وكما يقول الأزار ــ من الأمور التقليدية، تماماً كما كان الأمر بالنسبة لزيارة ايطاليا أو اسبانيا، وأخذ الاستشراق يتجدد بدون انقطاع.

ولقد ظهر من هؤلاء الفنانين المستشرقين عدد كبير نذكر منهم بونغتون (Boenington) وجيريكو (Giricault) والسيد أوغست (M. August) وديكامب (Décamps) وشانمارتان (Champmartin) ومارلاه (Marlat) ودوزاه (Dauzats)، الا أن دور هؤلاء لم يصل في أهميته الى مستوى دور دولاكروا (Delacroix)، رائد المستشرقين الأول. ومع ذلك فقد اختص كل من الفنانين المستشرقين، بناحية أخذها عن البلاد العربية، فبينما كان ديكامب يهتم بالتضاد الضوئي، كان دولاكروا يبحث عن الألوان النادرة وعن جمال الأوضاع، وكان شاسيريو (Chasseriau) يسبغ الوجوه العربية بمسحة من الكآبة، وكان فرومانتان يشرع في تحليل منبعث عن العادات والروح العربية، أما ديهودنك (Dehodenq) فقد أغرم بمشاهدة العنف، على عكس لوبورغ (Leborg) رونوار (Renoir) اللذين بحثا عن الفتنة، كما فعلت الانطباعية عندما سعت الى الكشف عن جمال بعض مشاهد الطبيعة الشرقية.

وفي عام ١٨٣٠ كان استيلاء فرنسا على الجزائر، وقد رافق الاحتلال هجرة واسعة قام بها الفنانون، وسباق للكشف عن أسرار العرب هناك، وكان دولاكروا من أوائل الفنانين الذين زاروا مدن المغرب العربي، وجمعوا منه انطباعات لا تنفذ، بقيت زادهم، وخاصة دولاكروا، حتى آخر لحظة من حياتهم. ابتدأت

زيارة دولاكروا الى المغرب العربي في كانون الثاني من عام ١٨٣٢.

ومن بين أعماله السريعة التي أنجزها خلال زيارته الشهيرة هذه، صور ملونة بألوان مائية سعى فيها الى المحافظة على تلك الألوان المحلية، التي تخترقها الشمس حتى يكاد النور الساطع منها يبهر بصر المشاهد.

ومنها أيضاً مناظر طبيعية بألوان مخففة صهباء تزداد بهاء الى جانب ألوان البحر اللازوردية. كذلك صور النساء العربيات بملابسهن الزاهية البديعة وبألوان صرفة جذابة، كما صور شخصيات نبيلة بأوضاع يتجلى فيها الاعتزاز العربي والثقة بالنفس، كما في صورة مولاي عبد الرحمن. وامتاز دولاكروا بتصوير الخيول العربية المطهمة وتصوير صيد الوحوش. كما اشتهر بلوحاته الرائعة التي تتضمن الحياة الجزائرية الداخلية والتي تبرز تقاليد العرب وعاداتهم كلوحة «نسوة الجزائر» التي رسمها مرتين فيما بعد. وهكذا فان اسم دولاكروا الذي يملأ صفحات كتب التاريخ الفني اليوم، يبقى مقروناً بالعالم العربي، الذي أعطاه هويته في كل لوحة من لوحاته التي تتصدر متاحف العالم.

مضى ماتيس الى المغرب، وبقي هناك بضعة أشهر بين عامي ١٩١١ ــ ١٩١٢، حيث عثر حسب تعبيره على «راحته المبتغاة». وبعد رجعة قصيرة عاد مرة أخرى بصحبة صديقه ماركيه وكاموان الى طنجة، «التي كان لها أبلغ الأثر على أسلوبه وتفكيره وعلى تطور فنه» كما يقول أسكوليه.

وعند عودته عرض في صالة برنهايم في باريس مجموعة من لوحاته التي أنجزها في المغرب.

لقد كان تأثير الفن العربي على ماتيس واضحاً جداً، ولقد دوّن موريس دوني الفنان الرمزي الشهير بعض انطباعاته خلال زيارته للمغرب العربي فقال: «في المقاهي المغربية وفي ــ مديدة ــ رأيت مصورين ذكرني أسلوبهم بمدرسة ماتيس».

ولقد قال سامبا: «أن الموضوعات الرائعة التي استحضرها ماتيس من المغرب أكدت انصياعه للون الحي وللشكل المسطح وللرقش العربي، وبكلمة واحدة، لعناصر الفن العربي الذي دعم فنيته حسب اعترافه».

ان اطلاع ماتيس على الفن العربي من خلال المنمنمات الموجودة في المكتبة الوطنية في باريس، ومن خلال الخزف المحفوظ في المتحف الوطني للفنون التزيينية، ومن خلال الآثار التي عرضت في المعارض الكثيرة في أوروبا، كونت طريقته وأسلوبه في التصوير.

ولقد أصبح مؤكداً ان ماتيس كان يعيش بعمق حالات انجذاب نحو مظاهر وآثار الفن الإسلامي بل اننا لنتصور ماتيس وقد شعر دائماً انه منسوب الى الفن العربي، وأن خياله الذي كان يمتد دائماً نحو العالم العربي، قد وجد أخيراً حقيقته.

ولكي نستطيع تفسير فن ماتيس، يتحتم علينا النظر اليه بعين ألفت الفن العربي وعرفته. ويجب ادراكه بفكر عاش روح الأمة العربية ومنطقها. اذا فعلنا ذلك فاننا نجد ماتيس وقد بعث من جديد فناً أصيلاً وعريقاً، ثم ألبسه ثوباً جديداً هو ثوب العصر الحديث.

لقد استمد ماتيس نسغه من هذا الفن، فن التعبير عن المطلق والسرمدي، الفن الذي لا يرتبط قط بأي من الظروف أو الشروط العرضية.

وكما أبنا سابقاً، فمن المؤسف أن ماتيس لم يظهر بوجهه الحقيقي، ان ما أوجد، من طراز مبتكر، لم يكن تلك المدرسة التي سميت اعتباطاً بالوحشية، بل كان نظاماً فنياً قائماً بذاته، قوياً وثابتاً لارتباطه بتقاليد عريقة.

لقد أنقذ ماتيس نفسه من قتام المدينة وظلالها، هارعاً نحو الهواء الطلق، نحو الشمس الساطعة اللافحة حول المتوسط، هناك اكتشف اللون النير، هناك عاش سعادة الهدوء وصوفية الوجود.

يمتاز فن ماتيس كما يقول كاسو بالحذف والابدال والمجاز والتعادل. هذه هي العناصر الأساسية لأسلوبه، لقد عبر عن الطبيعة والأشياء عن طريق (الاستعارة)، واختصر العالم والمتاع بمجموعة دقيقة من الاشارات التشكيلية. وكثيراً ما كان يلفت انتباهه أستاذه غوستاف مورو قائلاً: «أنك ماض في تبسيط



ماكه في السوق، متحف فستفاليا القومي، منستر

التصوير» ولقد صدق ما قاله مورو.

والواقع ان ماتيس كان السابق لفهم الفن العربي وكشفه وتطويره، ولقد كان القادر على تعميمه والتعريف به في العالم أجمع متخطياً جميع العنعنات والعصبيات. يندر أن يكون من بين لوحات ماتيس وموضوعاته ما ليس له صلة بالعرب، ان بالموضوع أو بالأسلوب والطريقة. فلنقارن مثلاً بين لوحته «عارية زرقاء» ذكرى مدينة بيسكرا وبين قطعة من صحن الخزف من العصر الفاطمي الموجودة في المتحف العربي في القاهرة آننا نجد فيهما نفس الشكل، نفس التخطيط، نفس التصحيف والتحوير. ولنأخذ أيضاً لوحته «فرنسا ١٩٣٩» لكي لا نبتدىء بالكلام عن احدى «وصيفاته» ولندرس هذه اللوحة بامعان. أنها مجرد امرأة ذات نظرة غامضة جالسة على مقعد، ولكن الصورة تبدو لنا لأول وهلة وكأنها صيغة من صيغ الفن العربي. فالرداء أشبه بورقتين متناظرتين تنتهيان بيدين أشبه ببرعمين، والقميص الداخلي كأنه شجرة نخيل، وجميع توابع الخلفية والمقعد تزيينات عربية محضة «أرابسك». هنا تبدو محاولة ماتيس في الابتعاد عن الاجهاد والهم والمسؤولية الذهنية كما يقول هو. ان الفن لدى ماتيس كشأنه عند العرب، هو الفرح والايقاع والنغم. ولم ينقطع ماتيس رغم آلامه عن التعبير عن الفرح الذي أحسه وحفظه في البلاد العربية حيث قضى: «أجمل لحظاته المغربية» كما يقول.

وهكذا فان الشكل، سواء أكان مجرد تزيين أو رمزاً أو استعارة، يبقى صيغة الجمال الفني المحض.

لم يصور ماتيس لكي ينقل متاعاً أو منظراً، أو لكي يعبر عن فكرة أو ليترجم عن شعور، بل كان يعبر عن الجمال، كما قال رونيه هويغ.

لنأخذ أيضاً لوحة «وجه تزييني على خلفية تزيينية»، في هذه اللوحة نقابل عالم الشرق بتمامه، رائحة بشرته السمراء المحترقة بشمس الصحراء، وقبل ذلك نرى الطريقة العربية «روعة الألوان، رشاقة الرقش، بساطة التجريد». ويوضح ماتيس ذلك بقوله: «ان البساطة في فني تعود للرقش العربي، فلكي أستطيع تصوير امرأة مثلاً فانني أكثف دلالة هذا الجسم ساعياً وراء الخطوط الأساسية».

أن ماتيس الذي اكتشف في البلاد العربية النور والبساطة والهدوء وسعة الحياة وجد هناك الغذاء الصحيح لفنه الذي استمد منه حتى آخر يوم من حياته.

ولقد حملت لوحات ماتيس العديد، وخاصة منها لوحات الوصيفات، سر ماتيس كما يقول دييهل: «انها الاستعارة التي تفسر المنحنيات الخارقة لدى الوصيفة، أنها الخط الذي لا يمكن تقليده». ويتساءل دييهل: «ولكن هل الاستعارة الا الرقش العربي؟». لقد أوضح ماتيس نفسه دور الرقش العربي (الأرابسك) في فنه، وابان كلفه به عندما كان يجيب الناقد فيرده قائلاً: انني أحب الرقش العربي لأنه الوسيلة المركزة للتعبير بمختلف الوجوه».

لم يعد الشكل غاية لدى ماتيس، لقد أصبح وبكل بساطة مجرد مساحات وليس حجماً، أنها مساحات للون والضياء محاطين بتلك الخطوط السوداء الواضحة، والتي اعتاد الناس أن يطلقوا عليها تسمية الرقش العربي (أرابسك)، ولقد أصبح من مهام هذه الخطوط تلخيص جميع عناصر الموضوع والتعبير عنها.

في الطبيعة العربية كما في الفن العربي، ليس من مكان للحجم والبعد الثالث أيضاً. فالنور الساطع الذي يمحي الظل ويتركه أزرق دون قتام، يتطلب الخط الفاصل لكي يبرز بقايا الشكل بعد ان تلاشى بعده الثالث. وهكذا الأمر عند ماتيس فلقد أصبح الشكل مسطحاً يدين الى الخطوط المحيطة والى الألوان في ابراز معالمه الباهتة. وفي لوحته «آسيا» وهي امرأة فاتنة أيضاً ذات عينين حالمتين، نلاحظ كيف ينمحي الحجم ويضحى مساحات مسطحة مخصصة للألوان الصفراء والبيضاء والبنفسجية والخضراء والزرقاء. يحددها من هنا وهناك فواصل سوداء نقية.

أصبح ماتيس في أكثر لوحاته أن لم نقل في جميعها، لا يقيم وزناً الا لبعدين فقط، العرض والارتفاع. وكان هذا مدعاة لنعته بالمزين، تماماً كما وصف الفنان العربي، ولكن ماتيس كان يدافع بيأس قائلاً: «هذا هو عطاء جيلي المعاصر» مكرراً بذلك ما قاله قبله المقريزي

بأجيال. لقد أراد ماتيس ان يكون صادقاً مع حقيقة التصوير كما كان شأن العرب، ان تصوير العمق يعتمد على خداع البصر، وهو لا يستقيم الا بالفراغ.

أما فيما يتعلق باللون فلقد حافظ دائماً على ما اكتسبه من زياراته الى المغرب والجزائر. فلقد كان تأثير الشمس الساحق على الأشياء والألوان يدفع العرب لأختيار ألوان حية ساطعة وكثيفة، وهي الألوان التي شكلت لوحات الوحشيين وعلى رأسهم ماتيس.

«ان ألواني (كما يقول ماتيس)، لا تعتمد على أية نظرية علمية، انها تعتمد على ملاحظاتي التي قمت بها في بلد النور، وتعتمد على مشاعري».

ولكن ليس من المهم لدى ماتيس أن يعتمد على لون الظل تاركاً التآليف والمجاورة بين الألوان مما اكتسبه من الفن العربي، فالأسود الى جانب البرتقالي، والأزرق مع الاخضر والأسمر مع الأصفر وهي تآليف عربية نراها واضحة في أكثر لوحاته منها «فتيات وراءهن حاجز مغربي» ومنها «داخل ستار مصري» و«زوليا» كما نراها نحن في الأشغال التطبيقية، كالأردية والبسط وأشغال القش والخزف وغيره.

العنصران الرئيسيان اللذان يميزان فن ماتيس واللذان يربطانه بشدة بالفن العربي هما التكرار والتوازن.

انه من المعلوم أن الرقش العربي الارابسك يعتمد بالدرجة الأولى على صيغ معينة بعضها مأخوذ عن النبات وبعضها تجريدي لا يحمل أية دلالة، وكانت هذه الصيغ مبنية على أصول جمالية أولية هي التناسب والتقابل. ولكن الذهن العربي الذي يميل الى الامتداد نحو المطلق كما يقولون، يعمد في كثير من الأحيان، ان في فكره أو في دينه أو في فنه، الى تثبيت الايقاع، والى الحفاظ على جواب القرار، والى التكرار المبني على عقيدة دينية.

وتأتي فكرة التوازن عن مبدأ الحفاظ على جواب القرار هذا، ولقد ضمن الفن العربي لنفسه في ذلك كثيراً من الثبات، ذلك أن الجمال يعتمد في صميمه على قوانين الرياضة والهندسة وان التناظر والتوازن هما «الكمال الهندسي» كما يقول (غاية)، وهما في نظر ماتيس «الأهرام الراسخ يفرض ذاته على القرون» وهكذا فإن ماتيس رغم كل ما يقال عن محاولاته في الغروتسك أو التشويه، لم ينفك يعالج الصورة بكل تأن لكي يصل الى نقطة التوازن هذه. وفي لوحاته العديدة نلاحظ ذلك جلياً، بل في بعضها نرى الموضوع كله وكأنه صيغة بسيطة من صيغ الرقش العربي. ومثال على ذلك لنذكر لوحة «وجه تزييني» ولوحة «فرنسا» ولوحة «قميص روماني» وتذكرنا هذه الموضوعات بالصيغ غير الشخصية للفن العربي.

وليس من يجهل أثر العرب في اسبانيا في مجال الفن، فان الشواهد المتروكة من قبلهم والآبدة حتى اليوم، كجامع قرطبة من القرن الثامن، مئذنة جامع اشبيلية (الجيرالدا) من القرن الثاني عشر، وقصر الحمراء في غرناطة من القرن الرابع عشر. وغيرها، هذه الأوابد هي سجل حافل للنهضة الفنية التي وصلت اليها اسبانيا في عهد العرب.

في هذا الجو العربي الذي ما زال مخيماً حتى اليوم على اسبانيا، وفي «مالقا» التي بقيت عربية طيلة الحكم العربي، والتي تمتاز بآثار وصناعات عربية مازالت قائمة حتى الآن، والتي يطلعنا عليها بصورة واضحة مفصلة في كتاب روبلس (مالقا الإسلامية) الصادر عام ١٨٨٠.

في مالقا وبالقرب من القصبة (Alcazaba) وهي القلعة العربية الباقية حتى اليوم ولد «بابلو رويث بيكاسو» (Pablo Ruiz Picasso) عام ١٨٨٠ ونشأ حاملاً معه بذرة الأجداد، شأنه شأن سلفادور دالي وجوان غري اللذين يفتخران بنسبهما الى الحضارة العربية. ولعل ما قاله المؤلفون الذين اختصوا بالكتابة عن حياة بيكاسو مثل زرفوس وكاسو، عن قرابته للعرب، يؤكده ما ورد في بحث دولوره الذي خصه للحديث عن بيكاسو وعلاقته بالشرق المسلم، دون أن ننسى أبولينير (Apollinaire) وهو الكاتب والشاعر والصديق الحميم لبيكاسو، عندما قال كلمته المشهورة «لا نستطيع نكران سلالة بيكاسو العربية».

اذا أردنا اعادة النظر في تسمية بيكاسو، وجدنا أن هذه الكلمة تكاد تكون من أصل غير اسباني، ذلك انه لايوجد قط في اللغة الاسبانية مضاعفة. ولذلك فاننا نزعم أن هذه التسمية، وهي اسم أمة سليلة الأندلسيين، محرفة من اسم عربي، ومن المحتمل أن هذا الاسم هو «بي قاسم».

ومن المؤسف أن المؤرخين حاولوا دائماً ايجاد جذور فن بيكاسو في الفن الأيبيري أو في الفن المصري القديم، أو الفن الأفريقي. ولكن جميع الدلائل تؤكد ان بيكاسو كان متأثراً أيضاً والى أبعد حد بجميع تعاليم الفن الإسلامي العربي.

ولقد أيدت ذلك غيرترود ستاين (Gertrud Stein) الكاتبة الأميركية وصديقة بيكاسو، بقولها: «يجب ان لا ننسى أبداً ان الفن الافريقي ليس ساذجاً، بل هو فن أصيل، يرتكز على تقاليد شديدة الارتباط بالحضارة العربية. لقد أوجد العرب ثقافة وحضارة الافريقيين، وهكذا فان الفن العربي الذي كان غريباً بالنسبة لماتيس، أضحى بالنسبة لبيكاسو الأندلسي، شيئاً أليفاً واضحاً ونامياً».

وبمقارنة بسيطة بين بعض أعمال بيكاسو، وبعض الرسوم العربية، تتضح لنا القرابة المدهشة بين تحريفات بيكاسو وبين تجريدات الفن الإسلامي.

فلوحة الجاموس الموجودة في كتاب «عجائب المخلوقات» للقزويني تحمل نفس المبادىء التي نهجها بيكاسو في صورة «الصداقة» وفي صورة «آنسات آفينيون».

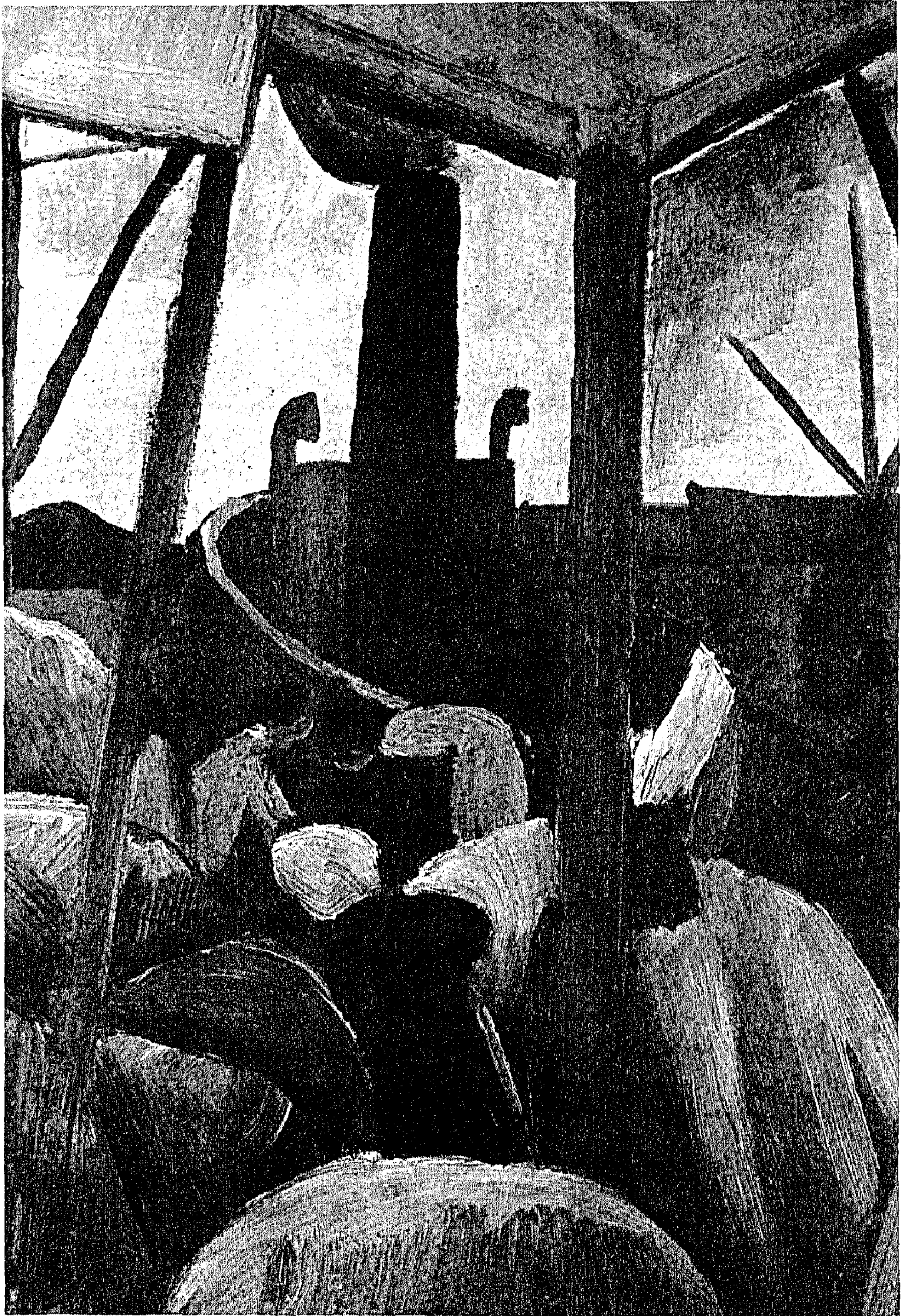
ومما يؤكد رغبة بيكاسو في تحريف الأشكال وأبعادها عن أصولها، محاولاته في تغيير معالم لوحة دولاكروا المسماة «نسوة الجزائر». ولعله كان في ذلك يسعى الى اعادة الموضوعات العربية الى أسلوب الفن العربي، كما يعتقد زيرفوس. فخلال عام ١٩٥٤ وعام ١٩٥٥ كانت لوحة «نسوة الجزائر» موضوعه الذي كرره خمس عشرة مرة، وكان يقول في كل مرة «لاليست هي بعد».

وهكذا فان التقاء بيكاسو مع الفن العربي يكمن في محاولة التصحيف التي يقوم بها كل منهما. والتصحيف في الأصل هو نتيجة تلك النظرة الحدسية للأشياء، تلك النظرة التي تجرد الأشياء من جميع غلافاتها المألوفة للعثور على روح الشيء وجوهره، وبذلك يسهل الاتصال بهذه الروح بعيداً عن التزامات الواقع الحسي. ولقد أراد الفنان العربي الشرقي. أن تكون علاقته بهذه الروح مباشرة. أراد أن يدخل في أعماق هذه الروح ويندمج بها اندماج المتصوفين. ولذلك فان الفن العربي لم يترك من معالم الإنسان في فنه الا القليل، واحتفظ فقط بالصورة المجردة لذلك الوجد أو الاندماج بالمطلق وبالله. أما بيكاسو فانه اذا أزال أكثر الصفات الحسية للكائن الحي، الا أنه لم يتخل عن معالم الوجه البشري نهائياً، فلقد بلغت التعرية لديه أقصاها، ولكنه استبقى ذكرياته القديمة جداً عن الإنسان في جميع أعماله.

لعل بيكاسو، مع ارتباطه بالشكل الإنساني، قد حافظ في أسلوبه المتأخر على تجنب تصوير العمق، بل انه سعى الى تبسيط الحجم الإنساني عن طريق تصوير جميع جوانبه بوقت معاً، مما تفرع عن الطريقة التكعيبية التي ابتكرها. ولقد أيد هذا الالتقاء دولوره بقوله: «لقد قدم الفن التكعيبي وخاصة فن بيكاسو البرهان على وحدة أواصره مع الفن الشرقي الإسلامي». وتبدو هذه الأواصر بصورة خاصة في الخط العربي، كما في منبر القيروان المصنوع في نهاية القرن التاسع وقد حفر عليه آيات من الخط العربي المسمى بالكوفي الذي يعتمد على ترتيبات هندسية مسطحة. وكما في الرسوم التي نراها على البسط والسجاد الشرقي الإسلامي، حتى أن لوحة «البهلوان» لبيكاسو أو لوحة «امرأة ورجل» تكاد تكون جزءاً من هذه الرسوم.

على أنه لابد من اعادة النظر في لوحة «آنسات آفينيون» للتأكد أن الفن العربي «أو ما يميل الغربيون الى تسميته بالافريقي، شأنهم عندما يطلق على سكان المغرب العربي برمتهم اسم الأفريقيين الشماليين (Les Nordes Africains) كان له تأثير واضح على بيكاسو، ابتداء من هذه اللوحة الشهيرة.

وفي الثالث من نيسان عام ١٩١٤ سافر كلي



ماكه، ميناء في تونس، متحف فستفاليا القومي، منستر

من ميونيخ الى برن لكي يرافق صديقه مواليه الى مرسيليا حيث كان بانتظارهما ماكه. وفي السادس من نيسان أقلعت بهم الباخرة الى تونس. وخلال سفرهم كانت سماء المغرب وهواؤه تعلن عن بوادر الأرض العربية، أرض الحلم الذي عاشه كلي زمناً طويلاً.

«لقد وصلنا الى الشاطىء قريباً من العرب الأوائل، وهناك قابلتنا الشمس الساطعة ذات القوة العاتمة، وكان الجو الصافي الألوان، يثير في النفس أجمل الوعود». هذا ما كتبه في مذكراته. ولم يستطع كلي صبراً، فمضى يبحث في المدينة عن المعالم الأصلية، فمضى الى الحي العربي وهناك وجد الحقيقة والخيال في وقت معاً كما يقول. وقال له ماكه: «قبل كل شيء علينا أن نعلم، أننا سنقوم أمام هذه المظاهر الرائعة بعمل جيد» وفي اليوم التالي كتب في مذكراته: «تونس الأربعاء في ٨ نيسان: الرأس مليئة بالانطباعات السديمية عن هذه المدينة، الفن والطبيعة وأنا. وانغمست في العمل مباشرة. انني أصور بالألوان المائية في الحي العربي، لشد مايدهشني هذا الانسجام بين عمارة المدينة وعمارة اللوحة».

ولقد أدرك كلي سر الشرق العربي، لقد لمس تلك الوحدة الفنية في الموسيقى والعمارة والتصوير. وكشف عن ذلك الطابع المتعالي الصوفي في الفن العربي عندما كان يصغي الى موسيقى مكفوف، وكان اللحن العربي يخترق أذنه الموسيقية المرهفة لكي يستقر في ذهنه «ايقاعاً مستمراً الى الأبدية»، وقد عاش هذا الجو الصوفي وأدركه جيداً عندما كان يحاول رسم لوحة «البدر التمام»، في سان جرمان حيث مصيف الدكتور جيجي. وكان كلي يشعر أنه لم يستطع بعد الدخول الى أعماق السر الشرقي، فيأسف لذلك ويسجل في مذكراته «عليّ أن أكون متأنياً اذا أردت أن أفعل ما أريد. ان هذا الليل سيبقى في أعماقي الى الأبد.

وفي القيروان قام كل من كلي (Klee) وماكه (Macke) ومواليه (Moilliet) برسم جوانب من هذه المدينة العربية، مدينة عقبة بن نافع ذات المساجد المائة والتقاليد العربية، وكانت نشوة كلي قد بلغت أوجها عندما تسنى له حضور أحد الأعراس العربية، فكتب في مذكراته بتاريخ ١٦ نيسان «أن هذا العرس هو صورة خالصة من ألف ليلة وليلة، أي شذى، وأي نسيم تمتزج فيه النشوة والوعي والوضوح في وقت معاً».

وعندما كان صديقاه يحاولان تصوير المناظر الغريبة، المساجد والحارات والبائعين، كان كلي يتواجد الى أقصى حد مع البعد الروحي لتلك المظاهر الصافية الصرفة، وشعر فجأة أن روحه قد امتلأت الى ذروتها بهذه الأجواء، فكتب في مذكراته «سأتوقف عن التصوير الآن، لقد نفذت هذه الأشياء الى أعماق روحي بكل وداعة، انني أشعر بالامتلاء، وهذا ما يزيدني ثقة وطمأنينة، وليس علي أن أجد نفسي الآن. ان الألوان تتهافت علي، ولم يعد لي من حاجة للبحث عنها وستبقى في أعماقي الى الأبد، هذا هو معنى هذه اللحظات المباركة. أنا واللون لا نشكل الا واحداً. انني مصور».

ولقد أبان ولهلم هاوزنشتاين في كتابه «القيروان أو تاريخ المصور كلي وفن هذا العصر» التغيير الذي أحدثته «القوى العاتمة» للشمس. «لقد استحوذ عليّ اللون» هكذا كتب بول كلي في مذكراته. فلقد انضاف الى الخطوط الهيروغليفية تلوين مباشر وعارم. مما ثبت الأوامر المسبقة التي كانت قائمة دائماً بين كلي وبين الجمالية الشرقية. فلقد أصبح مبدأ عدم التشبيه في الفن الإسلامي، وتخطيط الأشكال التجريدية التي تختفي وراءها الأشكال الحية، قائماً بالحاح ووضوح في ذهن كلي المشبع بالارابسك.

ان الفن العربي الذي قام على مفاهيم عقائدية روحية خاصة تجعل من الله وحده سرمدية لاشبيه لها، وتجعل الدين الإسلامي يقوم على الغيبية (Numinosa) كما يقول غروهمان.

ان هذا الفن قد وجد لدى بول كلي مكانة من الرسوخ، ولهذا يضيف غروهمان «اننا نجد كلي وقد تشبع بالرغبة في اخفاء التشبيه، ذلك لأنه قد اقتنع بمفهوم وحدة الوجود، هذه الوحدة التي تبرر لديه العمل على تحوير الأشكال وتفريغها من خصوصيتها، لكي تعبر فقط عن



بيكاسو



وجه ج. ساربانتيس ـ بيكاسو

الجوهر الوحيد المشترك فيها كلها. وهكذا فان الطبيعة والإنسان والأبدية، أصبحت نسيجاً رمزياً متضامناً، الواحد يعكس الآخر».

ويضيف كلي مردداً كلمة ليبرمان «ان فن الرسم هو فن (التعرية) أو (الاسقاط). ولهذا فان كلي يشابه الفن العربي، المليء والمجرد من جميع القشور والمفتوح على جوهره، وبهذا المفهوم نقترب من تعريف بريون لتجريدية بول كلي: «لقد تم اجتياز المرحلة من المشخص الى التجريد عن طريق التعري الكامل، وعن طريق مس الجوهر ليس بفعل الفنان، بل على ما يبدو بواسطة الشيء نفسه».

لقد وجد كلي مجالاً واسعاً في الفن العربي لاشباع ذهنه وعبقريته: يمتد من الواقعية الساذجة وحتى التجريدية العفوية. وليس من الصعب كشف الأواصر بين كلي والفن العربي، فأكثر لوحاته تحمل تسميات عربية، كما تتضمن عرضاً جديداً لنمط جديد من أنماط الفن العربي، سواء في «الخيط» أم في «الرمي» أو في الواقعية المبسطة أو في الخط العربي والخط الهيروغليفي، وفي الرسم الهندسي.

ولا يخرج الخط العربي في جميع أنواعه عن مفهوم الفن، ذلك أن هدفه يبقى دائماً الجمال. وعلى الرغم من أن بعض الظروف اقتضت ان يتبع الخط قاعدة ثابتة قربته من الفن غير الذاتي، فان هذا لم يمنعه من الظهور تحت أشكال مختلفة عديدة. ولقد جلب الخط العربي انتباه الفنانين الغربيين، سواء بسبب بنيته الفنية الطريفة، كما في الخط الكوفي، أو بسبب التزيينات التجريدية التي كانت ترافقه. وها هو

أكثر أهمية تأليف الكلمة في ذاتها التي كانت تبدو للغرباء عن اللغة العربية، شكلاً تجريدياً صرفاً. ولقد حاول بول كلي الاستفادة من الخط الجميل العربي في كثير من لوحاته، وكان هذا الخط يشابه أحياناً صفحة من مخطوط كما في لوحته «عالم هاربور» أو صفحة من قرآن كما في «وثيقة ١٩٣٣» أو هيروغليف كما في «هاربور ـــ و ـــ ك ـــ ١٩٣٩» أو هو مجرد حرف أو كلمة عربية أخذت مظهر صيغة مجردة كما في (Tambalier) ١٩٤٠ ولوحات أخرى، وبدا الخط أحياناً واضحاً ولكن باللغة الألمانية وبأحرف لاتينية كما في «دعه يقبلني ١٩٢١».

لقد بحث بول كلي عن الفن العربي أيضاً من خلال المظاهر الشعبية، واستطاع أن يكتشف الرابطة القوية القائمة بين جميع مظاهر الفن العربي.

ان حواشي الرداء المطرزة دفعته الى اكتشاف المقرنصات في العمارة. ولقد اكتشف أيضاً طرز العمارة وصفات الخيط الفني والرسم الهندسي كما في «صالة المغني ١٩٣٠» «ريفي ١٩٢٧»، «مظهر لمدينة قديمة ١٩٢٨»، «مدينة بافيه ١٩٢٧».

ان تأثير الشمس الساحر يجعل الألوان باهتة شفافة، ولكن أحياناً وبدافع رد الفعل، فان الفنان كان يسعى وراء الألوان الصارخة التي لا تقبل الفروق الجزئية.

كان هدف الفنان العربي في الرقش، الاندماج الكلي في موضوعه، ولم يكن هدفه نقل الموضوع القائم في العالم الخارجي. فلم يكن من شأنه أن يؤكد انفصال الأشياء في ذاتها وهو المؤمن بوحدة الوجود. بل كان دوره يكمن في السعي، عن طريق الفن، الى الغاء الطبيعة المستقلة عنه، هذه الطبيعة التي فرضها الغلاف العرضي، لكي يندمج في روح العالم ويصبح جزءاً مغفلاً في مصدر الامكانات التي بوسعها أن تكون أي شيء على وجه اليقين والتحديد. وهكذا فان الرقش العربي الذي يقوم على عناصر غير تشبيهية، يرتكز على أساس صوفي حركي، على عكس بعض اتجاهات التجريد الحديث التي تقوم على أسس مكانية ساكنة وجامدة.

أما في التجريدية الحديثة فمن الواضح أن النزعة الى عدم التشبيه لم يكن مصدرها الارتباط بالمتعالي الوجداني، ولكن بالمتعالي المطلق. هذا الارتباط الذي تم نتيجة انفعال داخلي عميق عانى فيه الفنان كثيراً من الأخيلة، وأبصر كثيراً من الرؤى الغامضة التي تكشفت له على شكل مساحات وبقع لونية وخطوط مطلقة من أي قيد واقعي.

على أن الانفعال الذاتي عند الفنان العربي اذا انعكس في رموز تكاد تكون (موضوعية)، فانه في الفن التجريدي انعكس في أشكال لم تخرج الا قليلاً عن القواعد الجمالية الأساسية كالانسجام والتوافق والتوازن الخ... ولكن في الوقت الذي ظهر فيه الانفعال الفني عند العربي نظاماً صوفياً، كان عند الفنان الغربي نظاماً رياضياً، ألم يسع سوريو الى اخضاع الفنون جميعاً الى نظام واحد؟

يلتقي الرقش العربي والفن التجريدي مرة ثانية في مجال الانطلاق للتعبير عن المطلق. لقد كان المطلق عند العربي هو المثل الأعلى، هو الحق، هو الجوهر، هو الله. ولذلك سعى عن طريق الفن الى ادراك الحق شأنه شأن الصوفي الذي كان يسعى عن طريق الاجتهاد الى الاندماج بالله.

وكذلك شأن الفنان الحديث، فقد لجأ الى التجريد لكي يستطيع الالتقاء مباشرة مع الأفكار المطلقة التي لا يمكن تمثيلها بأي شبه. ومع أن بعض الاتجاهات التجريدية انما تسعى وراء الشكل فقط، الا أن كثيراً من الفنانين التجريديين يدّعون أن وراء هذه الأشكال عالماً آخراً مغايراً ومتمايزاً عن العالم الواقعي المألوف. ويقول ميشيل سوفور: «ان الفنان التجريدي يسعى وراء الكلي في الخاص، وايجاد الجمال لا يختلف عن اكتشاف الكلي، هذا الكلي هو الله والتعرّف على الاله في أي عمل فني هو الشعور بانفعال ابداعي». وهكذا يسعى الرقش العربي والفن التجريدي على السواء إلى التعبير عن المجهول، أو عن غير المحدود وغير المرئي والغيبي.

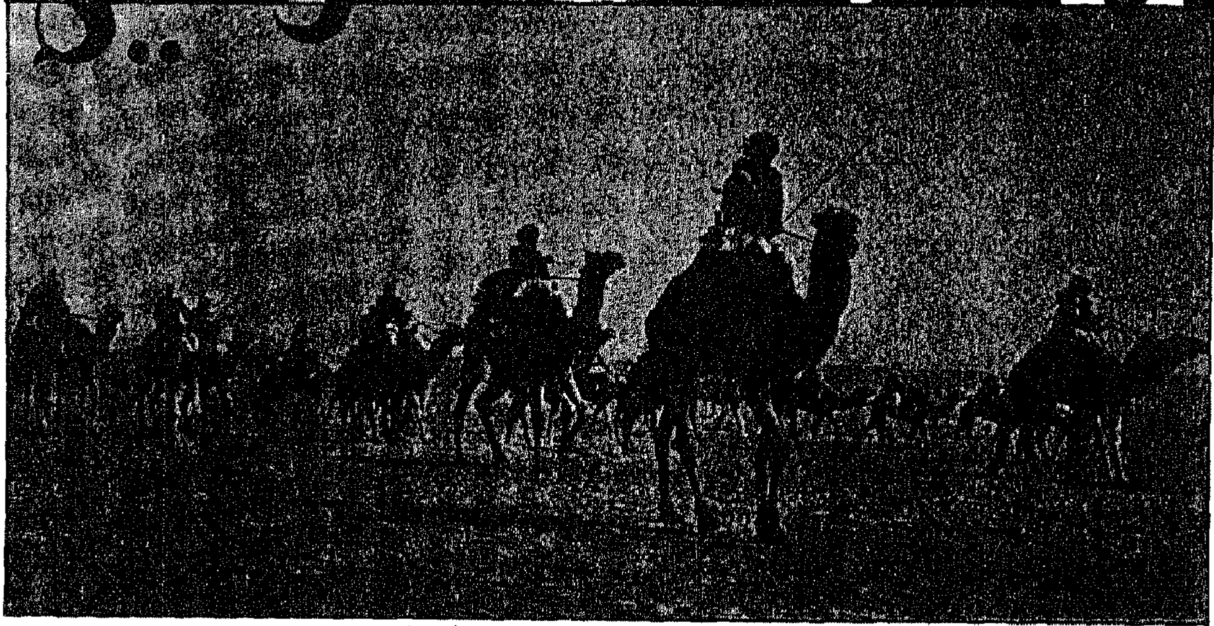
■

المرجع: فكر وفن، العدد ٣٥ (١٩٨١)

د. ابراهيم بيضون

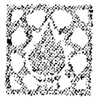
(الحلقة الثانية)

الايلاف القرشي



بحث في التكوين الاقتصادي المكي قبل الاسلام

ماذا عن دور التجارة البحرية في الاقتصاد المكّي؟



وهو سؤال قد لا ينطوي على كثير من الغموض، ولكنه ليس خالياً منه. فالمعروف أن تجارة مكة والحجاز بصورة عامة، انما هي في جوهرها تجارة برّية اعتمدت على الجمال كوسيلة أساسية للنقل، عبر الخطوط المختلفة التي ربطت بين هذه المدينة وبين مصادر السلع وأسواقها. ومن ناحية أخرى لم تكن مكة أو غيرها من المدن الحجازية على معرفة بالملاحة أو المام فطري بها. فقد حالت دون ذلك الطبيعة الجغرافية للحجاز، فضلاً عن خطورة الملاحة في البحر الأحمر، التي احتاجت الى مهارة تصعب حتى على المحترفين، المقيمين على سواحله. بالاضافة الى ذلك فان اعتبارات أخرى سياسية، أسهمت في ابتعاد المكيين عن هذا البحر، الذي كان منطقة نفوذ للقوى المهيمنة على سواحله الغربية، والاستعاضة عنه بالتوجه نحو الشام والارتباط بها عبر وسائل النقل التقليدية في البيئة الحجازية.

ويبدو أن تجارة البحر الأحمر التي ارتبط انتعاشها عادة بقيام حكم مباشر في مصر (البطالمة)، أو في ظلّ تبعية لنظام أمبراطوري

■ د. ابراهيم بيضون
استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية ــ استاذ مشرف في قسم الدراسات العليا في الجامعة اليسوعية ــ استاذ التاريخ الاندلسي في الجامعة العربية وعضو الهيئة الادارة في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

مركزيّ (الرومان)، قد أخذت في التدهور منذ أواخر القرن الثالث الميلادي، مع التمزّق السياسي للامبراطورية وتركيز البيزنطيين اهتمامهم على السواحل الشرقية القريبة منهم[1]. ولعل ذلك يؤكد الاتجاه الذي ذهبنا اليه، بأن تجارة البحر الأحمر، انما هي في واقعها مصرية ومتصلة الى حد وثيق بقدرة القوى المتغلبة في هذا الاقليم، على تحقيق التفوّق الملاحي في هذا البحر والسيطرة من خلاله على منافذ البحر العربي[2]. ولذلك فقد كان له النصيب الأوفر من الازدهار في العصر الروماني، بينما تراجعت أهميته الاقتصادية مع سقوطه[3]، حين تحوّل من حلقة حيوية للاتصال بين المحيط الهندي والبحر المتوسط، الى ما يشبه «البحيرة المغلقة»، والتي اقتصرت الحركة فيها أو كادت على التجار الأحباش، الذين لم يستطيعوا، من خلال قوتهم البحرية الثانوية، القيام بدور ملاحي يرقى الى ما حققه البطالمة أو الرومان. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الأحباش في «العصر المكي»، يشكّلون القوة البارزة في تجارة البحر الأحمر، حيث أمنوا سبل الاتصال بين سواحله الشرقية والغربية. وقد شهدت تلك الحقبة، ظهور بعض الموانىء في شمالي شبه الجزيرة، كالشعيبة وجدة (مكة) فضلاً عن الجار (يثرب) الأكثر شهرة «في الحجاز القديم»[4].

على أن الغموض يحيط بدور المرفأ الأول (الشعيبة) وأهميته في التجارة المكية. ولعل أول اشارة في هذا السبيل، قد وردت في حادثة السفينة، المروية عن (ابن منبه)، وقد جاء فيها: «أن سفينة للروم جنحت عند الشعيبة، وهو مرفأ على ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة[5]». ثم تختلف رواية ابن اسحاق، فتصبح جدّة هي المكان الذي تحطمت فيه السفينة، حيث استخدم خشبها في تسقيف الكعبة[6]. ولكن الأزرقي يكرر الرواية الأولى بشيء من التعديل، بأن «سفينة للروم أقبلت، حتى اذا كانت الشعيبة، وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة، فانكسرت، فسمعت بها قريش، فركبوا خشبها وروميا كان فيها يقال له يا قوم»[7]. ويكاد يختلط الأمر، اذا كان ثمة ميناء محدّد لمكة قد تخصّص في نقل تجارتها البحرية، واذا ما كانت قادرة في ذلك الوقت على استيعاب المنتجات الافريقية، التي يفترض أن تفد عليها عبر أحد هذه المرافىء، لا سيما (الشعيبة) القريبة منها، أم أنها كانت لا تزال تعتمد على موانىء الجنوب، حيث تقوم بنقل البضائع المفرغة فيها، برّاً الى مكة أو مباشرة الى الأسواق الشامية[8]. وقد يكون هذا المرفأ، ان صحّ استخدامه كمنفذ بحري للمدينة التجارية الكبرى، مجرد مرسى صغير، حالت موانع دون استخدامه للسفن الكبيرة، وفي طليعتها ضحالة الماء والشعاب المرجانية التي تزداد في هذه المنطقة. ولعل ذلك كان وراء جنوح «السفينة الرومية» المذكورة، التي يرجّح بأنها كبيرة الحجم، نتيجة استخدام بقاياها في تجديد الكعبة وتسقيفها على نحو ما سبق.

وعدا ذلك فلم يتردد اسم (الشعيبة)، كميناء لمكة، باستثناء ما روي عن ركوب المهاجرين المسلمين الأوائل منه الى الحبشة[9]. على أن هذه الرواية، ان صحّت، وبأن هؤلاء قد هاجروا من هذا المكان، فان ذلك لا يقتضي بالضرورة وجود مرفأ تتوافد إليه السفن بانتظام. ومن المرجح في مثل هذه الحال أن يهاجر هؤلاء من موقع آخر على الساحل الحجازي، خاصة وأن ميناء يرتبط بالمصالح المكّية كالشعيبة، لا بدّ أن يخضع في حينه للنفوذ القرشي، ويحول بالتالي دون تسهيل هجرة المسلمين المضطهدين في مكة.

وتقع (الشعيبة) على مسافة نحو أربعين ميلاً الى الجنوب من جدّة[10]. وقد وصفت بأنها كانت لا تزال عامرة حتى القرن السادس الهجري، حين اختفى اسمها من خارطة الساحل الحجازي، شأن (الجار) — ميناء يثرب الواقعة على ثلاث مراحل منها[11] — الذي سبق الشعيبة الى الخراب[12].

ونخلص الى القول، بأن مكة لم تكن ذات تجارة بحرية على قدر من الاهمية، بل كانت تعتمد على سفن حبشية أو مصرية، يبدو أنها احتكرت الملاحة والنقل في البحر الاحمر، بما يتلاءم والحركة التجارية المحدودة فيه، بالمقارنة مع المواصلات البرية المزدهرة في ذلك الوقت. وقد تكون (الشعيبة) أحد المرافىء التي رفدت



الجزيرة العربية وطرق القوافل ...

مكة بالسلع الافريقية، ولكن في نطاق محدود، حيث يفترض أنها اعتمدت بضعة مصادر على ساحل الحجاز، لا سيما (الجار) الذي يبدو أنه مثّل دوراً أكثر أهمية بالنسبة لها، خاصة وأن جزيرة صغيرة[١٣] تقع على مقربة منه، كانت ملتقى التجار القادمين من سواحل أفريقية والمحيط الهندي. ولا يستبعد قيام السفن بافراغ أحمالها في هذا المرفأ لحساب التجار المكيين، قبل نقلها الى أسواق الشام. ولذلك يصفه (المقدسي) بأنه «خزانة مصر»[١٤] الى جانب (جدة)، التي تطورت في العهد الراشدي لتصبح الميناء الرئيسي في الحجاز[١٥].

وهكذا أتيح لمكة بفضل هذه المعطيات، تجاوز دائرة التأثير الاقليمي، الى ممارسة الدور المركزي بين المحاور التجارية الكبرى في العالم القديم. ولعل أحد العوامل الايجابية في تكوينها التاريخي السابق على الإسلام، أنها لم تشهد أزمات داخلية خطيرة، كصراع قبلي أو تناقض جذري في المصالح الفردية، باستثناء تكتلاتها المعروفة بـ«الأحلاف». وقد كانت هذه أحد مظاهر الصراع السياسي في المدينة، ولكن دون أن يؤدي بها ذلك الى المجابهة العسكرية، حتى في فترات اشتداد الانقسام وبروز التفاوت الاجتماعي فيها. وخلافاً لذلك، فقد ظلت وحدة القبيلة هي السائدة، دون ثمة مشاركة، كاملة أو جزئية، مع فئات قبلية أخرى، خارج هذا النطاق، حيث قامت المجموعات السكانية فيها، الواحدة على حساب وجود الأخرى، بدءاً بالعمالقة بقريش.

ولقرن سابق على انطلاقة الإسلام، بقيادة شخصية مكّية، كانت هذه المدينة تأخذ موقعها البارز في المنطقة حيث المستقبل بدا واضحاً أنه يتمحور في الحجاز[١٦]. ولم يعد ثمة مجال للتنافس حول زعامة شبه الجزيرة، التي انعقدت لقريش منذ القرن السادس الميلادي. ففي خلال هذه الفترة، وهي أحد الانتقالات الحضارية الكبيرة في التاريخ المكّي، تبلورت كثيراً الملامح الاجتماعية والاقتصادية لهذه المدينة، على نحو لم تشهد مثيلاً له مدن الحجاز ومحطاته الأخرى، التي عاشت في الظل والتبعية لها. فانكفأت يثرب منطوية على الانقسام وعلى نزعة ذاتية، بأن تكون في موقع منافستها المحظية.

أما الطائف فقد اقتنعت بدور الحليف العضوي لمكة، بعد قيام نوع من التكامل الاقتصادي بين المدينتين، المختلفين في الظروف الطبيعية والانتاجية. وكان هذا التحالف التقليدي بين القرشيين زعماء مكة وبين الثقفيين زعماء الطائف، متماسكاً الى الحدّ الذي جعله يشكّل ظاهرة نادرة[١٧] في تاريخ العلاقات القبلية، التي تميزت عادة بالتطاحن والصراع على النفوذ.

وهكذا فان نمو الطائف كان خاضعاً للنمط الانتاجي فيها وهو الزراعة مع قليل من الأعمال الحرفية لا سيما صناعة الجلود[١٨]، الأمر الذي جعلها لا تتجاوز نطاق «المدينة الصغيرة»، كما وصفها ابن حوقل[١٩]. بالاضافة الى ذلك كان لبعض كبار الأغنياء من قريش، دور الشريك في الحياة الاقتصادية للطائف، سواء في الاستثمار الزراعي أو التسوّق من منتجاتها المحلية. وكان فصل الصيف يمثّل التوقيت الملائم لنشاط الفئات المكّية الميسورة، التي اتخذت من المدينة «الجبلية» القريبة[٢٠]، منتجعاً تهرب اليه من وطأة الحرّ الشديد في مكة[٢١].

أما يثرب، فلم تتميز بنمط انتاجي معين، ولكن اقتصادها تراوح بين الزراعة، (الحبوب والنخيل)[٢٢] وبين التجارة في المقام الثاني، فضلاً عن بعض الصناعات اليدوية، كالأسلحة التي تخصص بها اليهود، والدباغة وآلات الزراعة وأدوات الصيد[٢٣]. فقد هيأت عوامل الطبيعة ليثرب مصادر متنوعة لتأمين نوع من الاكتفاء الذاتي، الذي اعتمد عملياً على الزراعة، حيث ساعدت على نموها، التربة البركانية الخصبة، والمروية من مياه الآبار والسيول المتجمعة في الوديان المحيطة بها، مثل (وادي أضم)[٢٤]. ويرى (ولفنسون) أن اليهود أسهموا في تطوير الزراعة وتنويعها، بادخالهم «أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات»[٢٥]. بيد أن ذلك لا يحملنا على التأكيد بأن هؤلاء كانوا «أساتذة»[٢٦] عرب الحجاز في هذا المجال على حد تعبيره، وبأن خبرتهم مستوردة من الخارج، حيث البيئة في المقام الأول فرضت هذا النمط الانتاجي الزراعي في يثرب، كما فرضت النمط



لوحة حجرية عليها نقوش كوفية وجدت على الطريق الرئيسي للحج بين بغداد ومكة.

التجاري في مكة، دون أن ننسى الخلفية الزراعية التي صاحبت عرب يثرب في هجرتهم من اليمن، ومن ثم اشتغالهم بهذه الحرفة، في الوقت الذي دأب فيه اليهود على تعاطي الحرف المالية والصناعية. ومن ناحية أخرى، كان موقع يثرب على طريق القوافل، قد وضعها بالضرورة في نطاق تلك الدائرة الحيوية من تجارة الشام المهمة. وفي ضوء ذلك يفترض أنها كانت تسهم بنصيب فيها، سواء في المواد المنتجة محلياً، أم المستوردة عبر ميناء (الجار). وفي الوقت الذي احترف فيه العرب الزراعة[٢٧]، كانت التجارة في الغالب مهنة اليهود في يثرب، بحيث كانوا المنافسين الأكثر خطورة لتجار قريش[٢٨]. ولعل ذلك يتضح في نمو المراكز اليهودية، المنتشرة حول هذه المدينة، خاصة (وادي القرى)، الواقعة على تخومها الشمالية الغربية، والمحطة الكبيرة في المواصلات التي تربط شمالي الحجاز بكل من الشام والعراق[٢٩].

لقد اعتمدت يثرب في حياتها الاقتصادية على مصادر متنوعة من الانتاج، أي انها لم ترتبط عضوياً بمصدر واحد، على نحو يهدّد الاكتفاء الذاتي فيها. وهذا ما وجدنا خلافه في مكة، التي لجأت تحت ضغط ظروفها الجغرافية القاسية، الى ربط مصيرها بالاقتصاد التجاري، كنمط

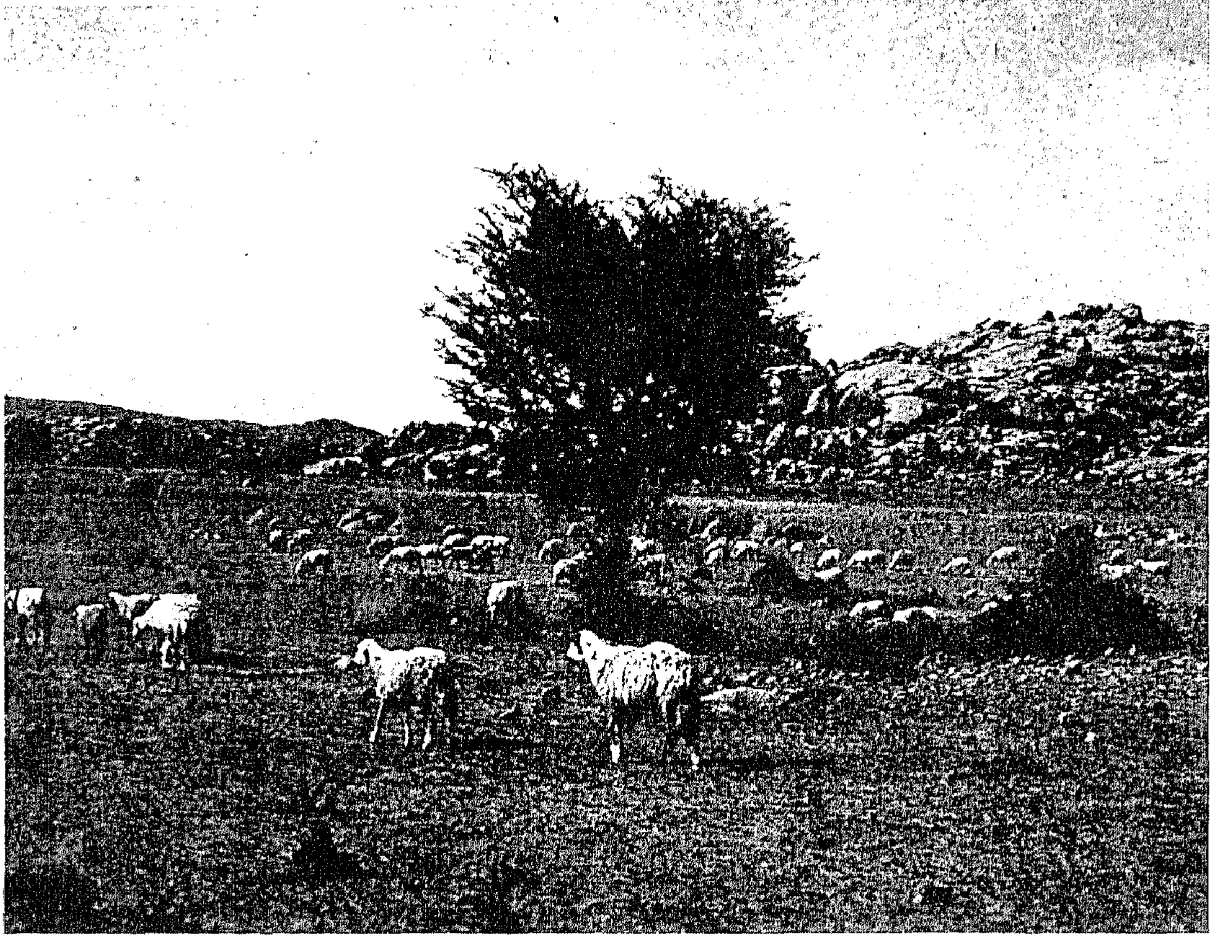
انتـاجي تخصّصي. وقـد يفسر ذلك، التـطور السريع الذي رافق هذه الأخيرة ابّـان القرن السادس، من سوق محلي يعتمد على القبائـل المجاورة، الى سوق مركزي تتمحور فيه تجارة الشرق ويعكس تأثيره على الحياة الاقتصادية للمنطقة بصورة عامة. ولكي تنجح مكة في حفظ التوازن الذي، اختلّ في اليمن، بعد أن تورّط ملوكها في صراعات الدول الكبرى، فقد تفادى القائمون على شؤونها سياسة المحاور بكثير من الذكاء والمرونة، بحيث تكامل ذلك مع الشروط الموضوعيـة الأخرى، التي جعلت مكـة تحتّل موقعها الوسطي، على المستويات المختلفـة بما فيها المستوى السياسي.

ولعل أحدى الظاهرات المبتكرة لهذا التوازن، كانت في نظام «الأيلاف» الشهير، الذي مثّـل اتجـاهاً «نقـابيـاً» في العـلاقـات السيـاسيـة والاقتصادية بين عرب الشمال، قبل أن يتطور بصورة أكثر شمولية ليضم عـرب الجنوب أو بعضهم، بالاضافة الى عدد من القبائل النازلة على طرق التجارة المكّية داخل شبه الجزيـرة وخارجها. وكان هذا النظام الذي ينسب انجازه لحفيد قصيّ (هاشم بن عبد مناف)، مفتاح ذلك التحوّل الكبير الذي حققت معـه تجارة مكـة انطلاقتها «العالمية»، وما رافقها من ظهور رحلتي الشتاء والصيف الشهيرتين. ويبدو أن ذلك قد حدث في مطالع القرن السادس الميلادي، عندما كانت «تجارة قريش لا تعدو مكة» حسب قول (اليعقوبي)[٣٠]. فكان هاشم في رحلته الى الشام «كلمـا مرّ بحيّ للعـرب أخـذ من أشـرافهم الايلاف أن يأمنوا عنده وفي أرضهم»[٣١].

وهكذا وجد «الايلاف» لحماية التجارة المكيّة وتأمين مواصلاتها، عبر تحالف أو «تآلف» مع القبائل، ليصبح الأداة المنظّمة والراعية لعهودها والتزاماتها مع مكة. وكون هـذه الأخيرة قـد احتلت الى جانب موقعها الاقتصادي، مـوقعاً دينياً متميزاً كمركز لعبادات القبائل وأصنامها، وذلك قبل قرن أو أكثـر من «الايلاف»، فقـد أكتسب هـذا النظام مـاكان لمكـة من سلطة معنوية. ومن خـلال هذا المفهـوم، كان يمثّـل الصورة اللامركزية في مكـة، التي تطلعت الى احتـواء هذه القبـائل، في ظلّ حـد أدنى من «الوحـدة السياسيـة». وقـد بلغ من أهميتـه بالنسبة لمكة، أن أي مساس فيه أو خروج على مواثيقه، كانت ترى فيه ضربة لنفوذها وتجرؤاً على قدسيـة «الايلاف» الذي تتـزعمه. ولعـل الحروب الشهيرة المعروفة بـاسم «الفجار»[٣٢]، تلك التي شنّتهـا بعض الفـروع القيسيـة في الحجاز ضد مكة، كانت من مظاهر هذا التمرّد المقترن بـ «الكفر»[٣٣]، على «شرعية» السيادة القـرشيـة التي يمثّلهـا «الايـلاف»، ليس من منظورها فحسب، ولكن من منظور قبلي عام، لما شكلته هذه الحرب من تهديد للمعادلة التقليدية. فقد أصبحت هذه القبائل، التي «يؤلف» بينها نظام مشترك، جزءاً فاعـلاً في شبكة التجـارة المكّية، تستفيد من مرورها وتؤمن الحماية لها في المقابل. وكان الارتباط بها عضوياً، الى درجة يستحيل معها الفصل بين قريش، بشخصيتها «المقـدسـة» وبـين «حيـاتهـا الاقتصـاديـة الجديدة»[٣٤]، التي اكتسبتها في ظلّ هذا النظام. ذلك أن تأمين الطريق التجاري واحتواء القبائل النازلة بجواره أو على تخومه، كانـا من أبرز حـوافز تلك المبـادرة المعروفـة بـ «الايـلاف»، كنموذج مبتكر للممارسة القرشية المفطورة على التجارة.

وكانت ثمة معطيات شهدها النصف الثاني من القرن السادس، قد أعادت النظر في موازين القوى السياسيـة، وما رافق ذلك من رجحـان الموقف الفارسي ومنحه ظروفاً أفضل للتحرك في شبـه الجزيـرة. وكان أخـطر ما حققـه النفوذ الساساني في هذا المجال، السيطرة على طريق نجران ــ الخليج وفروعه الداخلية المفضية الى العـراق، تلك التي ستؤدي في وقت لاحق الى مجابهة عسكرية مع القبائل العربية النافذة في هذه المنطقة، خاصة (بكر بن وائل)، وذلك في أعقاب التنافس على خط القوافل، الذي يمرّ في دائرة نفوذ هذه الأخيرة[٣٥].

وهذه الحادثة، التي تزامنت مع حادثة أخرى مماثلة في الحجاز (حرب الفجار)، كانت تخفي وراءهـا الخلفية الاقتصـادية نفسهـا، ومـدى ارتباط النفوذ السياسي بطرق التجـارة، سواء طريق اليمن ــ العـراق بـالنسبـة للأولى، أو اليمن ــ الشـام بالنسبـة للثانيـة. واذا كانت



في اراضي عسير

التجارة القرشية قد خرجت سالمة في صراعها التنافسي ضد القبائل القيسية، مع ادانة جماعية لهذه الأخيرة من عرب الحجاز، الذين وجدوا في ذلك خرقاً غير مسوّغ للأعراف المتّبعة، فان تجارة الحيرة، وهي مركز التبادل الرئيسي في المنطقة، قد عادت عليها هذه التطورات بالضرر الكبير وفقدت على أثرها الأهمية المحورية في تجارة العراق. ويبدو أن الدولة الساسانية قد حرصت منذ التدخّل الحبشي في اليمن، على اعادة النظر مرة أخرى في سياستها الاقتصادية، فلجأت الى ادارة مصالحها الخاصة بنفسها واقامة شريط من النفوذ المباشر بين اليمن والعراق. ولم يكن ذلك سوى تمهيد لخطوة أكثر شمولاً، تهدف الى الاتصال بأسواق الشام ومصر، بما فيها أسواق الحجاز. ومن هنا كان الارتباك الذي وقعت فيه مكة والتعثر في لعبة التوازن، التي مارستها باتقان حتى ذلك الحين. وسيكون ذلك، المؤشر لبدايات الانحطاط المكي والتورّط القسري في الصراع الدائر بين الدولتين الساسانية والبيزنطية في مطلع القرن السابع الميلادي.

ولقد نجحت مكة حيناً في استثمار تناقضات العلاقة العدائية بين محوري هذا الصراع، حيث عزّز ذلك دورها الوسيطي بين مصالح الطرفين، ومن ثمّ المشاركة في السيطرة على معابر التجارة العالمية، التي بدت آنذاك وكأنها توزعت الى مناطق نفوذ ثلاث: الأولى، فارسية تمتد من الخليج الى اليمن[٣٦]، والثانية مكّية بين هذه الأخيرة وتخوم الشام، والثالثة بيزنطية تسيطر على القسم الشمالي منها[٣٧]. ولا ريب أن خروج الأحباش من اليمن، قد سجّل تقدّماً للسياسة الفارسية في المنطقة على حساب البيزنطية، حيث أدّى ذلك الى سقوط نظرية التحالفات المحلية، المتكرّسة مع فشل المحاولة التي نفّذتها الحبشة، بايعاز من الامبراطور (جستنيان). وكان هذا الأخير قد ضاق بحركتي

التهويد والنصرنة النسطورية، اللتين غذّتهما الدولة الساسانية، إضعافاً للموقف البيزنطي في المنطقة[٣٨].

وما لبثت سياسة الفرس أن حققت تقدماً حاسماً، في الاستيلاء على الشام، السوق الأكثر أهمية في تجارة مكة، الأمر الذي فرض تقويماً جديداً لعلاقاتها الخارجية، خاصة مع الدولة المنتصرة التي باتت تمسك بطرفي الشريان الرئيسي للتجارة المكّية: اليمن والشام. ومن البديهي أن أمن هذا الطريق لم يرتبط بقوة مكة العسكرية، بقدر ما ارتبط بنظام «الايلاف»، الأداة المعنوية لسياسة التوازن بين الدولتين المتصارعتين، وهي على خطورتها كانت احدى الركائز الأساسية لتجارة مكة الخارجية حتى ذلك الحين.

على أن هذه الحياد المكي، رغم خلفيته الاقتصادية، كان لديه المرونة والقدرة على التحرك في الوقت نفسه. وبذلك يسقط الحياد كموقف سياسي وينتفي ــ خلافاً لما هو سائد[٣٩] ــ من علاقات مكة الخارجية، ليتحول الى موقف وسيطي غير «تناقضي» بين مصالح الطرفين. ومن هذا المنظور، كانت المدينة أكثر ارتباطاً بالسياسة البيزنطية، حيث تدور في فلكها تجارة الشام، التي شكّلت عصب الاقتصاد المكّي. ومن المنظور نفسه، لم تجد حراجة في التودد للفرس وتعزيز العلاقة معهم، بعد انتقال السيادة اليهم في المنطقة، دون التورّط مباشرة بسياسات هذا الصراع أو خلفياته.

لقد كانت تجارة الشام محور القرار في سياسة مكة الخارجية، الذي لم يكن الا انعكاساً لطبيعة نظامها شبه الجماعي ونتيجة حتمية له، بحيث أن ما يصيب هذه السياسة من تعديل، يؤدّي بالضرورة الى خلل المعادلة بكاملها. ولذلك فان أية محاولة احتوائية لمكة، مباشرة كانت أم غير مباشرة، كان لا بدّ أن تؤول الى الفشل، بما فيها آخر المحاولات البيزنطية، التي رمت الى الغاء نظامها «التعاوني» واستبداله بآخر فردي مرتبط بها، على غرار دولة الغساسنة في الشام. وقيل أن البيزنطيين اختاروا لتنفيذ هذه المهمة، تاجراً قرشياً من بني أسد بن عبد العزى[٤٠]، الفرع المتأثر على ما يبدو بالعقيدة المسيحية وهو عثمان بن الحويرث، الذي أعدّ لهذا الدور في الشام وعاد الى مكة «متنصراً»[٤١] وحاملاً تعليمات الامبراطور البيزنطي[٤٢].

واذا صحّت هذه الحادثة كما جاءت في الكتاب «المختوم في أسفله بالذهب»[٤٣]، فان أبرز مؤشراته كوثيقة تاريخية، تلك التي تصبّ في اطار الصراع الدولي واقتسام النفوذ في المنطقة. كما كانت بدون ريب محاولة ذكية من البيزنطيين، الذين عرف عنهم عدم التورط المباشر في شبه الجزيرة، عندما لجأوا الى اصطناع شخصية مكّية من أسرة متعاطفة معهم، لتنفيذ انقلاب داخلي لمصلحتهم في المدينة، ومن ثمّ القضاء على نظام «الايلاف»، الذي أثبت قدرته على الاستمرار، بعد موت مؤسسه (هاشم)، وقيام أبنائه بتجديد المعاهدات الخارجية، التي أصبحت من تقاليد الحكم في المجتمع المكّي[٤٤]. وهي من ناحية أخرى، تلقي الضوء على الأهمية الاقتصادية التي وصلت اليها هذه المدينة في حركة التجارة العالمية، وحاجة الدولة البيزنطية خاصة الى ربطها المباشر بدائرة النفوذ التابعْة لهم، في وقت شهد تحديداً لاستقلالية حلفائهم الغساسنة في الشام. وكانت أهمية هذه الأخيرة في التجارة المكّية، الورقة التي راهن عليها البيزنطيون، بحيث يفسر ذلك التلويح بتهديد رحلتها الى الشام[٤٥]. وهي أخيراً، ليست الا محاولة للتعويض عن الخسارة التي لحقت بالمصالح البيزنطية في اليمن، بعد اخراج الاحباش منها وسيادة النفوذ الفارسي.

وهكذا جاء اخفاق المحاولة المنسوبة لبني أسد للسيطرة على مكة باسم البيزنطيين، مؤشراً الى أن «نظرية» الدولة «الحاجزة»، التي حققت حيناً أهداف هؤلاء في الشام ــ كما الفرس بالنسبة للمناذرة في العراق ــ ربما استنفذت نفسها تحت تأثير تباين الظروف التي رافقت قيامها وما آلت اليه بعد ذلك. وقد نجد تفسيراً له في القضاء على الأسرة اللخمية وتقليص نفوذ الغساسنة في مطالع القرن السابع الميلادي، كنتيجة لتلك العلاقة المضطربة وغير المتكافئة بين «الدولة الحاجزة» وبين الدولة الكبرى، التي حدّدت لها مساحة الدور المنوط بها وحالت دون



اوان قديمة جداً: الصحفة، المقوبة، السحلة، المحالة، السفرة. من مخلفات الأجداد.

الخروج منه أو احداث تعديل ما عليه. كما يفسر، تشجيع البيزنطيين والفرس معاً في تلك الفترة للهجرات القبلية (طيّ في العراق وكلب في الشام)، التي تمّت على حساب النفوذ المحلي للدولتين «الحاجزتين». فقد كان ظهور الغساسنة في الأصل لتطويع القبائل العربية والحدّ من انتشارها على أطراف دولة البيزنطيين، ومن ثم تراجعت أهميتها بعد انهيار ذلك «الحاجز» والاتصال مباشرة بالزعماء القبليين، شأن المحاولة التي جرت مع الزعيم الأسدي (عثمان بن الحويرث)، لاحتواء التجارة المكية المزدهرة في الشام. ولكن الطموح الرامي الى تحقيق امتداد جنوبي للنفوذ البيزنطي حتى مكة، أعاق احتمالات نجاحه النظام نفسه، بعد رفض الأخيرة «النموذج الغساني» الفردي، مؤثرة عليه نظامها التقليدي، حيث السلطة شبه جماعية يتقاسمها كبار ذوي الشأن في المدينة.

أن التقويم العام للتكوين الاقتصادي في الحجاز، ينتهي بنا الى ابراز مجموعة من الحقائق، وفي طليعتها الحقيقة الجغرافية، التي جعلت هذا الاقليم في وسط مصادر التجارة وأسواقها، ثم اختياره كمنطقة آمنة، بديلة لخط الفرات المضطرب، فضلاً عن ركود الملاحة في البحر الأحمر، وما قابل ذلك من انتعاش للطريق البري المتاخم له. وكان اختلاف النمط الانتاجي في مراكز الاستقرار الحجازية وراء التفوق الذي وصلت اليه مكة وتبوء الصدارة، دون منافسة جدية، سواء من الطائف، ذات الطابع الزراعي، أو يثرب بطابعها الانتاجي التعددي[٤٦]. ولقد أوجد هذا التنوع شيئاً من التكامل الاقتصادي

في الحجاز، حقق لمكة بعض التوازن قبل أن تؤول اليها الزعامة فيه، وبالتالي قيادة حركة التجارة في المنطقة، وذلك انطلاقاً من الشروط الموضوعية التالية:

(أ) وقوعها ــ أي مكة ــ على مفترق طرق القوافل البّرية بين الخليج والعراق والحبشة واليمن وبلاد الشام.

(ب) نشأتها كسوق داخلي ومركز ديني لعبادات القبائل المحيطة بها.

(ج) تطورها الى محطة مرور، على غرار المحطات التي يتوفر فيها الماء، حيث الطرق تتعرج عادة باتجاه العيون والآبار.

(د) التركيب السكاني المتجانس والتضامن المصلحي بين الأطراف القرشية، بحيث كانت المدينة الوحيدة في الحجاز التي تمتعت بهذا الحدّ النسبي من الانسجام، والذي انعكس بصورة ايجابية على مصالحها التجارية المزدهرة ومركزها القوي بين القبائل.

(هـ) العقل القرشي المتدرّب على التجارة، الى درجة باتت مهنة الجميع، من يمارس غيرها يفقد كثيراً من مكانته الاجتماعية(٤٧).

(و) تحوّل مكّة الى ما يسمى حديثاً بـ «مركز خدمات»، حيث تتفوق به دولة دون أخرى، بقدر ما تؤمنه من تسهيلات وأجواء متميزة، تجتذب اليها التجار وتشجعهم على ارتيادها. فهناك مؤسسات تنظّم المعاملات المالية، كضرائب المرور وشؤون الربا والصيرفة والعمولة والمضاربة والتأمين على السلع، فضلاً عن الخدمات الاجتماعية، بحيث أصبحت مكة تزدحم بصنوف الناس من تجار وشعراء وصعاليك وغيرهم من طالبي المال والشهرة والمتعة إلى آخر ذلك(٤٨).

(ز) وأخيراً كان نظام «الايلاف»، القوة المحركة التي دفعت في نهوض مكة، كنقطة «متوسطة»، تستوعب البداوة الى جانب التحضر، والتي طورت تجارتها في سوق محلي صغير الى حلقة مركزية واسعة تلتقي عندها مصالح الدول الكبرى وحليفاتها.

وهكذا قفزت مكة الى الصدارة في شبه الجزيرة العربية، التي لفتت أهميتها الجغرافية والاقتصادية الأنظار منذ حملة الاسكندر، حين كانت في حساباته التوسعية في الشرق(٤٩). ولم تستطع بعد ذلك الدول التي قامت على أنقاض الامبراطورية المقدونية، تجاهل هذه المنطقة ودورها الحيوي، فكانت أحد أهدافها الدائمة. وكان انهيار اليمن، الواقعة على مشارف ساحل البخور وبلاد التوابل، في أعقاب التجاذب السياسي الذي اشتد في النصف الأول من القرن السادس، قد أخرج هذا الاقليم من دوره التاريخي وأفقده القدرة على الموازنة بين مصالح الدولتين الساسانية والبيزنطية. فكانت مكة، حاضرة الحجاز آنذاك، البديل المناسب لليمن والمحور المركزي الجديد لتجارة الشرق، حيث انتعشت مباشرة بعد سقوط الحكم الحميري، مستبدلة نقاط ضعفها كبقعة جرداء، بأخرى ايجابية، اسمتدت منها التحدي وارادة العيش والدفاع عن النفس. واذا بالتجارة، وهي حرفة المجتمع المكّي ومادة الارتزاق الوحيدة فيه، تصبح وكأنها «الثروة» الهائلة التي فجرتها الصحراء، تنتقل بالمدينة من حدود البداوة الى حدود التحضر، ومفضية بها الى منعطف تاريخي في الحضارة الإنسانية. فتكون مكة دون غيرها، المكان الذي انطلقت منه رياح التغيير الى المنطقة والعالم، والأرض التي شهدت الصراع الحاسم بين التيارات المختلفة، وليدة ذلك النهوض المكّي غير العادي ومعه التمازج الفكري والعقائدي والاجتماعي، على مدى نحو قرن من الزمن قبل ولادة الإسلام في هذه المدينة.

الهوامش

(١) DIEHL, Byzance, p. 89.
(٢) جواد علي، المفصل ج ٧ ص ٢٧٧.
(٣) لطفي عبد الوهاب، العرب ص ٣٣٢.
(٤) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٥٤. البلاذري، انساب ج ١ ص ١٦٠. السهيلي، الروض ج ١ ص ٢٥٥. جواد علي، المفصل ج ٧ ص ٢٨١.
(٥) السهيلي، الروض ج ١ ص ٢٢٥.
(٦) ابن اسحاق، السير والمغازي ص ١٠٤.
(٧) الأزرقي، أخبار مكة ج ١ ص ١٥٧.
(٨) جواد علي، المفصّل ج ٧ ص ٢٩٠.
(٩) المرجع نفسه ج ٧ ص ٢٥٩، ٢٧٢.
(١٠) الأزرقي، أخبار مكة ج ١ ص ١٦١. حمد الجاسر، في شمالي غرب شبه الجزيرة ص ١٧٤.

(١١) ابن حوقل، صورة الأرض ص ٣٩.

(١٢) ظلّ (الجار) ميناء يثرب (المدينة) حتى منتصف القرن الخامس الهجري، عندما قامت على أنقاضه قرية تعرف اليوم باسم (البريكة)، وهي تبتعد عن (بدر) نحو ثلاثين كيلومتراً. حمد الجاسر، في شمالي غرب شبه الجزيرة ص ١٧٨.

(١٣) عرفت باسم (قراف)، وكانت محطة للتجار الأحباش. معجم البلدان ج ٢ ص ٩٣. جواد علي، المفصل ج ٧ ص ٢٧٢.

(١٤) أحسن التقاسيم ص ٩٧ DONNER, Mecca's food supplies, p. 255.

(١٥) ابن حوقل، صورة الأرض ٣٩.

(١٦) F. GABRIELI, Les Arabes, p. 33.

(١٧) LAMMENS, La cité Arabe de taîf, p. 119.

(١٨) الهمداني، الصفة ص ١٢٠.

(١٩) صورة الأرض ص ٣٩.

(٢٠) وصفها اليعقوبي، بأنها «من أعمال مكة». البلدان ص ٣١٣.

(٢١) تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف. من وصف محمد بن عبد الله النميري لزينب أخت الحجاج بن يوسف الثقفي. ياقوت، معجم البلدان ج ٤ ص ١٢ دار صادر ــ بيروت ١٩٥٧.

(٢٢) ابن حوقل، صورة الأرض ص ٣٩. الكتّاني، التراتيب ج ٢ ص ٥٠، ٥٣.

(٢٣) ابن الأثير، أسد الغابة ج ١ ص ٤٣ المغربي، كتاب الجغرافيا ص ١١٧ الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية ص ٥٩ ــ ٦٣.

(٢٤) اليعقوبي، بلدان ص ٣١٢. ابن حوقل، الأرض ص ٣٧.

(٢٥) اسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧. لجنة التأليف والترجمة والنشر. مطبعة الاعتماد ــ القاهرة ١٩٢٧.

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) ولفنسون، تاريخ اليهود ص ١٩.

(٢٨) البلاذري، أنساب الاشراف ج ١ ص ٧٣. تحقيق محمد جميد الله دار المعارف ــ القاهرة.

(٢٩) المقدسي، أحسن التقاسيم ص ٩٧.

(٣٠) اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ٢٤٢.

(٣١) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٣. جواد علي، المفصل ج ٧ ص ٣٠٢.

(٣٢) السهيلي الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٩.

(٣٣) السهيلي، الروض الأنف، ج ١ ص ٢٠٩.

(٣٤) رضوان السيد، من الشعوب والقبائل الى الأمة. مجلة الوحدة. عدد ٤ ص ٢٦.

(٣٥) F.M. DONNER, the Bakr bwa'il tribes and politics in Northeastern Arabia on the Eve of Islam, in studia Islamica fax. L'p, Paris, p. 33.

(٣٦) وات، محمد في مكة ص ٣٥.

(٣٧) راجع حادثة عثمان بن الحويرث الأسدي مع الامبراطور البيزنطي. الفاسي المكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ١٠٨ ــ ١٠٩. مكتبة النهضة الحديثة ــ مكة ١٩٥٦.

(٣٨) وات، محمد في مكة ص ٣٥.

(٣٩) الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية ص ٣٦.

(٤٠) اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ٢٥٧.

(٤١) ابن اسحاق ص ١١٥ ــ ٦١١، المحبّر ص ١٧١. اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ٢٥٧.

(٤٢) جاء في الرواية المنسوبة للزبير بن بكار: «خرج عثمان بن الحويرث، وكان يطمع أن يملك قريشاً. وكان من أظرف قريش وأعقلها، حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم اليه ومتجرهم من بلاده، فذكر له مكة ورغّبه فيها، وقال: تكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاء. فملكه عليهم وكتب له اليهم، فلما قدم عليهم قال: يا قوم ان قيصر من قد علمتم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه. وقد ملكني عليكم وانما أنا ابن عمكم وأحدكم، وانما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكّة من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك ثم أبعث به اليه، وأنا أخاف أن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم». أبو الطيب الفاسي المكّي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ١٠٨ ــ ١٠٩.
LAMMENS, l'arabie occidentale, p. 35-39.

(٤٣) الفاسي، شفاء الغرام ص ١٠٨ ــ ١٠٩.

(٤٤) اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ٢٤٤. وات، محمد في مكة ص ٣٧.

(٤٥) الفاسي، شفاء الغرام ص ١٠٩.

(٤٦) التراتيب الادارية ج ٢ ص ٤٤.

(٤٧) ظلت التجارة مهنة القرشيين المفضلة حتى بعد الإسلام. وقد قيل أن أبا بكر قد خرج تاجراً الى (بصرى) في الشام. كما نقل عن عمر قوله «اذا اشترى أحدكم جملاً فليشتره عظيماً سميناً، فان أخطأه خيره لم يخطئه سوقه». التراتيب الادارية ج ٢ ص ٢٣، ٢٤. LAMMENS, La républi-que Marchande de la Mécque, p. 41-42.

(٤٨) LAMMENS, LA république, p. 212-214, 223 O'LEARY Arabia Before Muhammad, p. 182.
جواد علي، المفصل ج ٤ ص ٦.

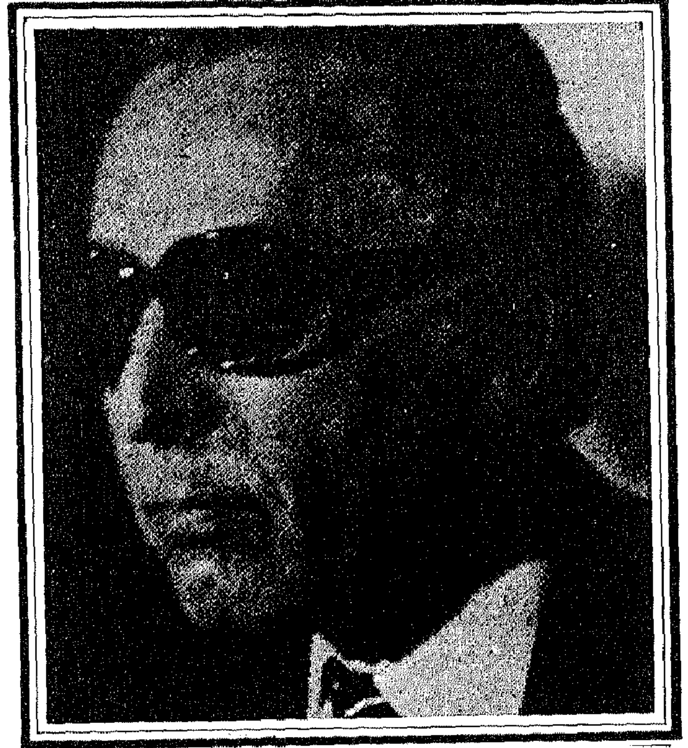
(٤٩) DONNER, Mécca's, p. 252 R. COHEN, La Grèce et l'hellénisation du monde antique, p. 412.

■

مقابلة صريحة مع الأمين العام لجامعة الدول العربية:

الشاذلي القليبي

رسالتنا هي إذكاء الشعور بالانتماء القومي عمليًّا وإعلاميًّا



أجراها د. حمّادي الصّيد

■ سيدي الأمين العام ان مجلة شؤون عربية التي تصدرها الجامعة أرادت أن تطرح على سيادتكم بمناسبة مرور ٣٧ سنة على تاسيس جامعة الدول العربية عدداً من الأسئلة حول الجامعة بصورة عامة وحول الأمانة العامة بصورة أخص وهي من بين التساؤلات العديدة المتنوعة التي تتردد على الألسن والتي تدل على مدى اهتمام العرب بجامعتهم وعلى الآمال المعلقة عليها، والتي يبقى الأمين العام أميناً عليها، ومسؤولاً عن انجازها، مهما طرأت من تغييرات على الواقع العربي ولعلني دعيت للقيام بهذه المهمة لطول ممارستي للشاذلي القليبي المرشد ورجل الثقافة، بمعناها الواسع، ورجل الاعلام بمعناه العصري، ورجل السياسة الذي أصبحت الانظار تتجه إليه قومياً ودولياً، وقد قمت بهذه المهمة بابتهاج، ولمست فيها شرفاً.

وسؤالي الأول سؤالان، هل الشاذلي القليبي راض عن الأمين العام لجامعة الدول العربية؟

وهل الأمين العام لجامعة الدول العربية راض عن جامعة الدول العربية؟

● من الصعب أن يكون أي مسؤول راضياً عما يقوم به من أعمال أو ما يحاول أن يقوم به من أعمال وكل ما يمكن أن أقوله في هذا الصدد هو أنه ينبغي، بالنسبة إلى الخطة التي تتمثل في مجموع مهام الأمين العام، أن تتجمع كل

د. حمّادي الصيد ممثل الأمين العام السابق في لبنان ورئيس تحرير مجلة «حوليّات» حالياً.

طاقات الشخص لتنصهر في طاقة واحدة موحدة، متجهة إلى جملة من الأهداف، تتجاوز كل الأبعاد الشخصية والفردية، لذلك اعتقد أن الفرد لابد أن يتضاءل ويذوب عندما يضطلع بمثل هذه الخطة، لأنها تتطلب من الجلد ما ينوء به الفرد وما يعجز عن تحقيقه، وفي هذا المجال يقوم صراع بين قوة الفرد وبين واجبات الوظيفة تتجاوز بكثير طاقات الفرد.

■ **هل الأمين العام للجامعة راض عن الجامعة؟ وإذا أردتم فاني ألقي السؤال بصورة مختلفة: ان الأمين العام لجامعة الدول العربية شعر بضرورة تعديل الميثاق. وفي ذلك دليل على أنه غير راض عن هيكل الجامعة إنه يعتقد أن هيكل الجامعة لايسمح لها بأن تكون الأداة الفعالة المرجوة، فما هي في نظره، النقاط في ميثاق الجامعة التي تحتاج إلى تعديل وتغيير؟**

● الموضوع لايتعلق في الحقيقة بصلة الأمين العام بالجامعة، بقدر مايتعلق بصلة الجامعة بمجموع الدول التي تتكون منها الجامعة، وبمجموع الأعمال والمهام التي ينبغي أن تضطلع بها لتؤدي رسالتها على الوجه المطلوب ان ميثاق الجامعة يعود إلى سنة ٤٥، إلى فترة سبقت انشاء منظمة الأمم المتحدة، وكان عدد دولها سبعاً، بينما هي الآن احدى وعشرون باستثناء مصر التي علقت عضويتها. وهكذا فان ميثاق الجامعة يعود إلى سبع وثلاثين سنة، وقد ضبط في ظروف معينة، في ظروف عربية خاصة، وظروف دولية خاصة كذلك، ثم تطورت هذه الدول، لا من حيث العدد فقط، بل كذلك من حيث الحجم، ومن حيث المشاكل، مما جعل الميثاق مراكبة من تنظماته وضوابطه غير متلائم مع هذه الأوضاع العربية الجديدة.

لذلك شعرت الجامعة منذ مدة أكثر من عقدين بالحاجة إلى تغيير هذا الميثاق، الى تحويره وتنقيحه، لجعله أكثر تلاؤماً مع الأوضاع المتجددة في الداخل وفي الخارج، ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها أن تدرك نهاية الشوط، وأن تقضي إلى تغيير الميثاق، وبعد انتقال الجامعة إلى تونس لأنفسنا جملة من الواجبات كان في مقدمتها تحوير الميثاق بغية اعطاء الجامعة الدفع الجديد الذي تنتظره منها الشعوب العربية، ويرقبه الرأي العام العربي، وبالفعل استطعنا أن نضع مشروعاً متكاملاً بمساعدة عدد غير قليل من الخبراء العرب انتقتهم الأمانة العامة من مختلف الاختصاصات السياسية والقانونية والاقتصادية، وعرضنا هذا المشروع على الدول. وتولت درسه لجنة حكومية أدخلت عليه الكثير من التنقيحات، والآن وصلنا إلى خاتمة المطاف، ويمكن أن نقدم المشروع الجديد الى القمة العربية القادمة، وبدون دخول في التفاصيل أود التعرض الى بعض النقط الأساسية:

ان الجامعة العربية أحدثت في ١٩٤٥ كأداة تنسيق بين دول قليلة. ولئن كان الميثاق يشير الى ضرورة التعاون في المجالات الثقافية والاقتصادية فان الأحداث فرضت على الجامعة أن توجه أغلب اهتماماتها الى الميدان السياسي. وقد استفدنا من هذه التجربة الأولى، واستفدنا من تجربة المحاولات العديدة التي هدفت الى اقامة وحدة سياسية بين بعض الدول العربية، في مستوى القمة، استفدنا من هذه التجارب، واستفدنا أيضاً من تجارب غيرنا، مثل تجربة الوحدة الأوروبية، ورأينا أن أفضل السبل لتقريب الشعوب إنما هي تنسيق جهود الدول في مختلف المجالات، وللتدرج بها شيئاً فشيئاً نحو ما ترتئيه من صيغ الوحدة أو الاتحاد، وذلك بأن نجعل هذه الدول تتعاون في الشؤون التي تهم الحياة اليومية، أعني في الشؤون التي تتعلق بالاقتصاد وبالشؤون الاجتماعية، وبالتربية والثقافة والاعلام والصحة، الى غير ذلك مما تقوم عليه حياة الشعوب، وهذا التعاون هو الذي يلقن الشعوب العمل الجماعي، أي ما نسميه في الجامعة بالعمل المشترك، على أنه يمكن الارتقاء بالعمل المشترك شيئاً فشيئاً من درجة الى اخرى حتى يصل الى ما ترتضيه الدول كافة من مراتب التنسيق وتوحيد الجهود، لذلك رأينا أن يكون الميثاق الجديد متجهاً الى اعتبار التنمية الشاملة أساس العمل المشترك، من هنا جاءت استراتيجية العمل الاقتصادي

التي صادقت عليها قمة عمان، والتي تعتبر من أهم منجزات الجامعة منذ قيامها.

هذه نقطة أولى. أما الأمر الثاني الذي أود الاشارة اليه، فهو ان التنظيمات التي تقوم عليها الجامعة العربية تنظيمات لم تعد مستجيبة لمقتضيات هذا العمل المشترك، وهنا لا بد من التوقف عند مفهوم كلمة الجامعة، كثيراً ما يتبادر الى الذهن أن الجامعة هي الأمانة العامة، بينما الصحيح أن الجامعة هي مجموعة الدول الممثلة في الأجهزة المكلفة بالعمل المشترك، ومن بين هذه الأجهزة، الأمانة العامة، ولكن الى جانبها جملة من المنظمات المتخصصة، يفوق عددها العشرين، وقد انشئت هذه المنظمات تباعاً، مما جعل قوانينها الداخلية تختلف. ولئن كان من العسير أن نوحد هذه القوانين، لاختلاف طبائع العمل من منظمة الى اخرى فانه لابد من حد أدنى من التنسيق لايجاد قاسم مشترك بينهما. فالذي لاحظناه هو أن المنظمات العربية تختلف حظوظها من استقطاب الخبرات العربية العالية، لأنها تختلف في المرتبات والمنح والأوضاع الادارية والمالية، فضلاً عن أن الخبرات العربية تتجه الى المنظمات الدولية، ونحن نريد أن نركز أعمالنا على الجهود الطيبة التي تقترن بالكفاءات العالية، ولايكفي العزم والحماس، بل ينبغي أن يقترن ذلك بالخبرة اللازمة، بذلك فقط نستطيع أن ننظم الجهود في مجال العمل العربي المشترك، تنظيماً يوفر الجدوى العالية، وربما يغنينا عن العدد الكبير من الموظفين.

اعتبار ثالث يهم أيضاً العمل العربي المشترك، هو أن هذه المنظمات التي أنشئت تباعاً في الزمان، تحتاج الى مزيد من التنسيق بين جهودها، ومشروع الميثاق الجديد يجعل التنسيق من واجبات الأمانة العامة باعتبارها المنظمة الأم، وهذا التنسيق يعني السعي لجعل كل الجهود العربية متوافقة في أهدافها، متكاملة في وسائل عملها، حتى لايحدث أي نشاز بينهما، وحتى تكون في مجموعها مواكبة للمرحلة التي نحن فيها، أي مرحلة الانماء وتطوير الطاقات في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والتربوية.

■ **لاشك ان ما قلتم سيادة الأمين العام مقنع ومنطقي، ولكن الشعور في الأوساط المهتمة بالجامعة العربية أو القريبة منها هو ان هذا المشروع في أساسه لم يظفر في العالم العربي لدى أصحاب القرار، بالتشجيع المنتظر، هل هذا صحيح؟ وان كان هذا صحيحاً، فهل ترك ذلك في نفس الأمين العام قنوطاً؟ هل الأمين العام سوف يستمر محاولاً اقناع أصحاب القرار بحتمية تجديد الميثاق أو تعديله؟**

● صحيح أن عقبات حالت دون التعجيل بالمصادقة على المشروع الذي تم اعداده في نطاق اللجنة الحكومية، وأملنا ان يتم ذلك في أقرب الآجال، وليس لديّ ما يدل على أن دولنا ــ أو بعضها ــ غير متحمسة للمشروع الذي أعد بفضل جهود جماعية اشتركت فيها سائر الدول، على أنه أثناء النقاش ظهر ان بعض الدول كانت ترغب في صيغ متقدمة اعتبرها البعض الآخر غير ضرورية في الوقت الحاضر، ولكن هذه وجهات نظر عرضت ونوقشت ثم حصل الاجماع على الصيغة التي تتمثل في المشروع الحالي.

■ **تتمة لهذا السؤال، هل تشعرون من خلال تجربتكم ان هناك إيماناً بالجامعة عند أصحاب القرار في الدول العربية، ورغبة في دعمها، وجعلها أداة فعالة في خدمة الوحدة العربية؟**

● أنا لا أشك لحظة في أن كل الدول العربية مقتنعة لافقط بضرورة الحفاظ على الجامعة العربية، بل بضرورة دعمها وتعزيزها. ان جميعها مقتنع بأنه لا مجال للتقارب، ولتنسيق الجهود، الا في هذه الساحة: جامعة الدول العربية، والتي أسميها، «بيت العرب الموحد»، وكما أنه لاينبغي عدم الاكتراث مما يظهر أحياناً من خلافات بين دولنا، فانه كذلك ينبغي ان لانبالغ في خطورتها. وكل مجموعة من دول العالم لا بد أن تشكو توترات وخلافات داخلية، في فترات مختلفة، ولو نظرنا الى مجموعة أوروبا الغربية، أو مجموعة الدول الاشتراكية، أو مجموعة الدول الاميركية لوجدنا ما يماثل ما لدينا من خلافات ومشاكل، الأمر المهم هو

اقتناع دولنا ان الجامعة لا بديل لها.

وأريد هنا أن أتصدى بصراحة لموضوع كثيراً مايتردد في مقالات الصحفيين العرب وغير العرب. انهم يشيرون الى ان دول الخليج قد أسست منظمة اقليمية تنصلاً من العمل العربي المشترك، ومن ساحة الجامعة، أنا لا أعتقد ذلك لسببين:

السبب الأول، هو أنه من الطبيعي ان تطمح مجموعة من دولنا الى تنظيم علاقاتها ضمن هيكل اقليمي اعتباراً لما يربط بينها من خصوصيات، وحبذا لو استطاعت دول المغرب العربي الكبير ان تنهج هذا المنهاج الذي كانت، في الحقيقة السباقة الى التفكير فيه. فقد اتجهت الى ذلك منذ الخمسينات وكان ذلك مطمح شعوب المغرب قبل الاستقلال، ولكن هذا المطلب فشلت لحد الآن الدول المغربية في تحقيقه.

وأعتقد مخلصاً ان تنظيم الجهود اقليمياً ليس معناه بالضرورة الافلات من الجامعة.

السبب الثاني الذي من أجله اعتقد ان مجلس الخليج ليس بديلاً عن الجامعة، هو ان دول الخليج شاعرة بأن قوتها لا تستمدها فقط من طاقاتها الذاتية، بل ان مصدر قوتها الأساسي هو انتماؤها الى مجموعة كبرى هي المجموعة العربية، والوطن العربي هو عمق هذه الدول، وسندها في كل الأحوال والظروف، وكل مايهم بقية الدول العربية يهم دول الخليج. عند اخواننا في الخليج شعور عميق بأنهم مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالمجموعة العربية بأكملها. والواقع ان ماتقوم به هذه الدول من جهود لمساعدة مختلف الدول العربية على تنمية اقتصاداتها وتعزيز طاقاتها، دليل على أصالة انتمائها وعمق شعورها بمسؤولية التضامن العربي.

■ **أعتقد أن دعاة القومية العربية لا يشكون في النوايا القومية لدول الخليج ولا لدول المغرب العربي، وانما يتخوفون من ان تؤول هذه الوحدات الجهوية الى تكريس للفروق بين مختلف جهات العالم العربي، حيث تختلف بلدان الخليج بما لها من تقاليد جهوية ومن ثروات عن المغرب العربي الذي بقي يتميز بالانكماش وبقربه من اوروبا، وتبعيته وارتباطه بثقافة الدولة «الحامية» أو المستعمرة سابقاً، وهي فرنسا، لذلك فان ايجاد اطار قانوني للوحدات الجهوية قد لا يكون الغرض منه الابتعاد عن المنهج القومي أو الهدف القومي، ولكنه يكرس هذه الفوارق ويقويها، ويبعد شيئاً فشيئاً الهدف المنشود، وهو هدف الجامعة، أي توحيد الأمة العربية.**

● أنا لا أعتقد أن توحيد الأمة العربية يكون بمجرد قرار سياسي فقط، وقد حاولنا ذلك في الماضي وفشلنا. وينبغي ان نتعظ بالتجارب السابقة، واعتقادي ــ كما قلت في ردي على سؤال سابق ــ ان الوحدة يجب التدرج اليها مرحلة فمرحلة، وبالاعتماد على الميادين الأساسية التي تقوم عليها حياة الشعوب، وهي الميادين الاقتصادية والثقافية والتربوية والاجتماعية، ونحن اذ نحاول ذلك في نطاق جامعة الدول العربية، نشعر دوماً بأن هذا التنسيق لا يسيطر سيطرة كاملة على الواقع. فلا يمكن ان ينجز تنسيق محكم بين مايتم في موريتانيا وبين مايتم في عمان، نظراً الى اختلاف الأوضاع الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، رغم الانتماء الى أمة واحدة، ورغم الشعور العميق هنا وهناك بأن كلا الشعبين ينتمي الى الأمة القومية، ولكن دخول موريتانيا في وحدة اقليمية، قد يمكنها من تنسيق جهودها مع جاراتها. وقيام وحدات اقليمية ينبغي ان يكون تحت مظلة الجامعة وفي إطار العمل العربي المشترك، من حيث الأهداف وطرق العمل، على ان ميدان الجامعة يبقى دوماً هو الأعلى، لأن العمل العربي المشترك قائم على رؤية متكاملة شاملة، وهي في الوقت الحاضر، الاستراتيجية التي صادقت عليها قمة عمان، والتي ستترجم الى مخططات قومية، وقد يكون للعمل الاقليمي سلبيات، ولربما ظهرت فيما بعد فينبغي مواجهتها.

■ **تحتفل اليوم الجامعة بمرور ٣٧ سنة على انشائها. فهل تعتبرون ان حصيلة عملها ايجابية؟ أعني بذلك هل الجامعة قامت بوظيفتها في مجال التقريب بين الدول العربية، وهل هي أقوى اليوم أم هي أضعف مما كانت عليه في أيامها الأولى؟**

● الجامعة حققت بدون شك مكاسب كثيرة واستطاعت ان تنظم العمل العربي المشترك في كل المجالات، واستطاعت أن تجعل الدول العربية قادرة على تنسيق جهودها ولو على الحد الأدنى.

واشارة الى أهم ماحصل في المدة الأخيرة، نستطيع ان نقول أنه أمكن التصدي لاتفاقيات كامب ديفيد بفضل التنسيق بين وجهات النظر، هذا التنسيق الذي تم نتيجة اجتماع الدول العربية في ساحة واحدة، وكذلك فان مانحن متجهون الآن اليه من جهود انمائية منسقة مترابطة، بفضل الاطار الكبير الذي أسميناه استراتيجية التنمية العربية الشاملة، لم يكن من الممكن تحقيقه، دون الجامعة، وكذلك القول فيما يتعلق بكل ماننجزه في مختلف الساحات الأجنبية، انما وصلنا اليه بفضل هذا الجهاز الذي مكن الدول العربية من الالتقاء والتفاهم والاتفاق على خطة العمل المشترك في الساحات الأجنبية. وهذا الذي ضمن لنا، مثلاً، تأييد كل الدول الافريقية للقضايا العربية، والفضل في ذلك انما مرده الى الخطة التي وضعتها الدول العربية معاً، واتجهت بها الى ما أسميناه التعاون العربي الافريقي.

أما جهودنا في اتجاه أوروبا فلئن كانت نتائجها غير مرضية، لحد الآن، في نطاق الحوار العربي الأوروبي، فان مجرد بذلها لم يكن ممكناً الا في نطاق تفكير عربي مشترك.

وهكذا ترون ان الجامعة حققت جملة من الأغراض العامة، ولو قلت أن الجامعة حققت كل ماكان يرتجى منها، وأدت الرسالة كاملة، لخالفت الواقع، لكن شأن الجامعة في ذلك شأن كل المنظمات الجهوية والدولية في العالم، فهل حققت الأمم المتحدة كل ماكانت تصبو اليه البشرية في عام ١٩٤٥؟ نحن بعيدون بعداً كبيراً عن بلوغ الأهداف التي رسمت لها. هل حققت منظمة الوحدة الافريقية ماكان يرجوه الأفارقة لمّا قامت هذه المنظمة في أوائل الستينات، يوم كانت الشعوب الافريقيةيحدوها الأمل في الوحدة، كل المنظمات الجهوية والدولية تعترضها مشاكل ولاتوجد منظمة واحدة بلغت كل أهدافها، او بلغت حتى معظم أهدافها. ولكن هذه المنظمات، بما فيها جامعة الدول العربية، أنجزت جزءاً لايستهان به من الرسالة التي انيطت بعهدتها وأعتقد أن هذه الرسالة فيما يتعلق بالجامعة، تتمثل أساساً في ابقاء الشعور بالانتماء القومي عميقاً في النفوس وأن ينغرس أكثر فأكثر في الأجيال الصاعدة، وتنظيم العمل المشترك بين دولنا على قاعدة الحوار والاقتناع الجماعي.

اذن ينبغي ان نحتاط من تلك الكليشيات الشائعة والقائلة أن الجامعة العربية لم تحقق شيئاً، أو ان لجامعة الدول العربية آمالاً ضائعة. ان العربي ينظر دوماً الى أعماله بشيء من القسوة، وأحياناً بشيء من الاستخفاف، وهذا يذكرني بما كنت أسمعه منذ سنوات عن مجمع اللغة العربية في القاهرة، بينما هو يقوم بعمل جبار، تعوزه فقط الوسائل.

ولعلنا مقصرون في ميدان تعريف الرأي العام العربي والرأي العام الدولي بالجامعة نفسها، وبجهودها، ولعل الاعلام عن جهودنا هو نفسه جزء لايتجزأ من الجهد الأصلي، ولا يقل عنه أهمية، يقول الجاحظ في حديث له عن الجد والهزل: الهزل مطية الى الجد، وبهذا الاعتبار يصبح الهزل نوعاً من الجد، باعتباره وسيلة الى الجد، وهذا مانقوله كذلك عن الاعلام بعمل الجامعة، لتعريف الرأي العام العربي بالعمل المشترك الذي تنجزه الجامعة، لذلك ينبغي ان لانقلل من أهمية الاعلام، وان لانباشر هذا العمل بشيء من الاستحياء، وهي في النهاية جهود الدول العربية، وليست جهود الأمانة العامة، اذ ان الأمانة العامة ليست إلا جهازاً في خدمة العمل العربي المشترك، وكذلك القول عن عمل المنظمات وهو عمل في صلب رسالة الجامعة ولا يتجزأ عنها. وهذه المنظمات لا «تعلم» بما هو كاف عن جهودها، مقتصرة غالباً على الخبراء، والمحيط المختص الذي تعيش فيه. وفي هذا خطر كبير، لأن الجزء الكبير من العمل السياسي يتمثل في جعل الرأي العام العربي يتجاوب معنا، ويدرك أغراضنا والوسائل التي نستعملها. وبدون ذلك يكون العمل، رغم قيمته، على هامش الرأي العام أي على هامش الوعي القومي.

■ على ذكر فلسطين، كيف تقيمون سيادة الأمين العام فعالية الدور الذي تقوم به الجامعة أو الذي يمكن لها أن تقوم به مشاركة منها في حل القضية الفلسطينية التي جعلتموها في مقدمة اهتماماتكم منذ البداية، أو المشكل اللبناني، وقد علق اللبنانيون أملاً كبيراً على الجامعة بعد انتخابكم أميناً عاماً لها.

● قضية لبنان نحن نتابعها منذ مدة، من يوم تفاقم الوضع في لبنان، اي منذ سبع سنوات، لاننا نشعر بان هذا المجتمع اللبناني يمثل تجربة فذة تتمثل في التآخي والتعايش والتعاون بين فئتين تختلفان في العقيدة الدينية ولكن تتحدان في القيم الاخلاقية والاجتماعية، وكنا دوما حريصين على ان لا يقضى على هذه التجربة، ولكن قضية لبنان معقدة ودخلت عليها عوامل كثيرة اجنبية، ونعتبر ان سببها الاصلي هو اسرائيل التي جعلت هذه الجموع من الفلسطينيين يفدون على لبنان بهذه الكثافة، وبهذا الثقل الذي بسببه اختلت المعادلة داخل لبنان بهذا الشكل. والجامعة مهتمة بهذا الموضوع، اذ شكلت لجنة لمعالجته، وهي لجنة المتابعة، اللجنة الرباعية التي اجتمعت بانتظام في بيروت برئاسة رئيس الدولة اللبنانية، وانجزت خطوات لا بأس بها. ولئن بدت هذه الخطوات بطيئة وئيدة، فقد استطاعت ان توضح بعض المشاكل، وان تتصدى للمشكل الاساسي وهو فك العلاقة مع اسرائيل داخل الساحة اللبنانية، ونحن الآن على وشك الدخول في المرحلة الثانية وهي مرحلة تنظيم الحوار القومي الوطني اللبناني، اي تسهيل اجتماع كل الفرقاء حول مائدة واحدة ليتحاوروا وحدهم مباشرة، حول السبل والصيغ التي تمكن من بناء الوفاق اللبناني على قواعد متينة، على انه يبقى واضحا في ذهننا وفي اذهان اخواننا في لبنان، ــ وهذا موجود حتى في الورقة اللبنانية التي قدمت الى الجامعة العربية بمناسبة اجتماع اللجنة السباعية المتعلقة بجنوب لبنان ــ ان قضية لبنان مرتبطة الى حد كبير بقضية الشعب الفلسطيني، وليس معنى ذلك انه ينبغي ان لا نعمل اي شيء لحل مشكلة لبنان حتى نفض مشكلة فلسطين، بل من الواجب علينا ان نعمل لحل الجانب الاوفر من قضية لبنان.

على ان هذا الارتباط بين القضيتين يجعلنا ندرك ان كل الجهود ينبغي ان تنصب على قضية الشعب الفلسطيني، لاننا نستطيع اذا ما تمكن الشعب الفلسطيني من حقه في تقرير مصيره في وطن وفي دولة مستقلة، ان نوفر كل اسباب الوفاق داخل لبنان، لذلك ظلت الجامعة منذ انتقالها الى تونس منكبة على الموضوعين معا، ونحن، في كل الاتصالات التي نقوم بها، وفي كل الجهود التي نوجهها الى الساحات الاجنبية، نركز على القضيتين وعلى ان قضية شعب فلسطين، اذا ما حلت، فسوف تمكن من توطيد السلام في المنطقة، ومن حل مشكلة لبنان حلا جذريا كاملا يعيد الى هذا البلد الحبيب الصحة والعافية، ويعيد اليه بالخصوص ما كان يتميز به من توازن.

كل ما نقوم به منذ انتقال الجامعة الى تونس منصب في الحقيقة على هذين القطاعين، واساساً على القطاع الاصلي في كل القضايا القائمة الان في الشرق الاوسط، وهو قضية الشعب الفلسطيني، ولذلك نرى انه من واجبنا ان نجعل المجموعة الدولية تتجاوب معنا حتى يتسنى لها ان تفرض التغييرات التي يمليها الضمير ويقتضيها القانون الدولي.

من هنا نتطرق الى موضوع المشروع الذي تقدمت به المملكة العربية السعودية الى قمة فاس. واقول هنا ان كل دولنا تشعر باهمية هذا العمل الذي تقدمت به السعودية، وان كان البعض منها يختلف في تقييم الظروف الحالية، وهل هي مواتية لانجاح هذا المشروع ام لا، وكل الآراء المتعلقة بالمشروع السعودي هي الآن تختمر، وهي بصدد الانضاج، بفضل تواصل الحوار بين مختلف الدول عن طريق اتصالات وقنوات مختلفة، واعتقد انه من المصلحة ان نصل في هذا الصدد الى اتفاق شامل، فيكون المشروع السعودي نواة لموقف عربي موحد يحظى بموافقة كل الدول الاعضاء، دون ان يفقد المصداقية الدولية التي تضمن له فاعلية وتأثيرا في الرأي العام الدولي.

وبالخصوص في الدول المؤثرة الفاعلة، اي الدول الاوروبية والولايات المتحدة الاميركية، والاتحاد السوفياتي، وفي آخر مرحلة، فان الدولتين العظميين، بيدهما وسائل التأثير الفعال في مختلف العوامل المتصلة بالقضية.

■ تشعرون اذن سيادة الامين العام ان سنة ٨٢ سوف تكون سنة حاسمة فيما يخص معالجة القضية الفلسطينية؟

● اعتقد ان هذا هو واجبنا اذا احسنا تقدير الاوضاع الدولية، وقدرنا بالخصوص ان الولايات المتحدة التي تستطيع ان تؤثر تأثيرا كبيرا، سوف تكون من هنا الى آخر السنة، قد تحررت من قيد الانتخابات التشريعية، وقادرة اذ ذاك على مراجعة مواقفها تجاه قضية الشرق الاوسط، ولا بد قبل ذلك ان نكون قد حزمنا شؤوننا ووضحنا مواقفنا، وطلعنا على العالم بجبهة موحدة قوية، مثلما كانت بعد قمة بغداد.

■ اذن فانتم تعتقدون من خلال مقابلاتكم ومحادثاتكم انه من الممكن قبل استئناف قمة فاس المقبلة الحصول على اجماع عربي حول مشروع فهد مع بعض التعديلات؟

● اني افضل، على كلمة التعديلات، عبارة صيغة جديدة تقبلها كل دولنا تحتفظ للمشروع الذي تقدم به سمو الامير فهد بجوهره وبمصداقيته الدولية، واعتقد ان هذا ممكن، ولدى الكثير من الاطراف صيغ من شأنها ان تؤلف ارضية مشتركة يقوم عليها الوفاق العربي، دون الاخلال بما حصل عليه المشروع من اشعاع في المستوى الدولي.

■ سيدي الامين العام، الى جانب القضية الفلسطينية، وهي القضية الاساسية وقضية لبنان المؤلمة، هناك في العالم العربي عدة قضايا عربية عربية، واخرى عربية اجنبية او عربية اعجمية، تتدخل فيها احيانا منظمات اخرى وتحاول الاشتراك في معالجتها وحلها، فهل للامانة العامة لجامعة الدول العربية حق المبادرة؟ وهل استعملت ذلك الحق فيما يخص قضية الصحراء مثلا، والعلاقات المغربية الجزائرية، والتونسية الليبية، والسورية العراقية، والامثلة عديدة؟

● في الساحة العربية، كما ورد في السؤال، مشاكل عربية عربية ومشاكل عربية اعجمية، المشاكل العربية العربية، من حقنا ومن واجبنا ان نهتم بها، وهذا ما فعلنا وما نفعل باستمرار وجهودنا دوما متيقظة لتطويق هذه الخلافات عندما يتعذر حلها جذريا. فالعلاقات بين تونس وليبيا مثلا عولجت اول ما عولجت في نطاق الجامعة، اما العلاقات بين العراق وبعض الدول الاخرى، فقد عالجناها بما اعاد العلاقة الدبلوماسية بين العراق وبين بعض هذه الدول في حالات اخرى كان يتعذر ان تسيطر الجامعة على الخلافات، ولكن توفقت الى حد الآن، والحمد لله، الى تطويق هذه الخلافات، ولم نتركها تتجاوز الحد الذي تصبح بعده خطرا على الامن. هذا ما حصل في خصوص الخلاف القائم بين سوريا والاردن، ولعلكم تعرفون ان هذا الخلاف اشتد في وقت من الاوقات الى حد ان اصبح البلدان على وشك التطاحن، وقد استطاعت احدى دولنا — وهي السعودية — ان توقف ذلك الخلاف وبين العراق وبين سوريا ايضا جمد في مستوى معين، ولئن تعذر علينا حتى الآن التغلب عليه فقد استوحينا من توصيات قمة عمان تأليف لجنة تضم المملكة العربية السعودية والجمهورية الجزائرية، واستطاعت هذه اللجنة ان تزور سوريا والعراق والاردن وان تستقصي اسباب الخلافات ومداها وتطورها. ووضعت اللجنة تصورا لكيفية حل هذه الخلافات، بان اتجهت الى وضع جملة من القواعد تضبط تعامل الدول فيما بينها، حتى لا يستفحل الخلاف ويهدد مكاسب العمل العربي المشترك في مختلف المجالات. مثلما حدث ذلك في الماضي. لذلك فان جملة من الضوابط ستعرض على الدول، فاذا قبلتها والتزمت بها فسوف تكون حائلا دون بعض سلبيات الخلاف، ومنها مثلا قطع العلاقات او تجميد المبادلات او غير ذلك.

في خصوص النوع الثاني من المشاكل اي بين دولة عربية واخرى غير عربية، وخاصة الخلاف بين العراق وايران الذي آل الى حرب طاحنة فانه لم يكن من الممكن للجامعة التدخل

فيه مباشرة لوجود طرف غير عربي في القضية، ولكن هذا لم يمنعنا من التدخل حين كان النزاع في مستوى الخلاف فقط، ولما تطور الخلاف الى حرب، حاولنا ايضا ان نساهم في ايقافها، فاتصلنا بعدد من الدول التي لها علاقة خاصة بالطرفين مثل تركيا ويوغسلافيا، وطلبنا اليها ان تقوم بدور في هذا الصدد، كما اتجهنا الى مجموعات اخرى دولية مثل مجموعة الدول غير المنحازة، ودعوناها الى بذل مجهود في هذا المجال، لان ذلك يمليه واجب الصداقة التي تربطها بالدول العربية، ونحن اذن نقوم بمجهود غير مباشر، لا نستطيع ان نتدخل في الحلول المباشرة، كذلك في اتصالاتنا بالامم المتحدة، نركز محادثاتنا دوما مع الامين العام للامم المتحدة على ضرورة تطويق هذه الحرب، ومحاولة ايقافها، حتى لا تهدد المنطقة، كذلك ايضا في محادثاتنا مع الدول الكبرى، وبالخصوص مع الدول الاوروبية واميركا، نركز الحديث على انه ينبغي ان لا يترسخ عندها الاعتقاد بان هذه الحرب لها فيها مكاسب، ونؤكد لها انها اذا لمست فيها مكاسب مادية عاجلة، فان مخاطرها السياسية والامنية كبيرة جدا على السلام في المنطقة وان واجبها المساهمة في تطويق هذه الحرب وفي محاولة ايقافها في اقرب الآجال.

هذا اذن بصورة عامة ما يمكن ان نقوله عن هذه المشكلة.

بقيت مشكلة الصحراء التي وردت في السؤال. فهي ليست معروضة على جامعة الدول العربية وهي ليست مشكلة بين دولتين عربيتين، بل هي مشكلة قامت بسبب قيام حركة مطالبة من جموع من السكان كانوا ينتمون الى هذه المنطقة الصحراوية التي تحررت من الاستعمار الاسباني، ولئن كانت هذه الجموع تحظى بمساعدة بعض الدول، فان الخلاف، رسميا ليس بين دولتين او عدد من الدول العربية ثم ان هذا الخلاف مطروح امام منظمة اخرى هي منظمة الوحدة الافريقية، فنحن اذن لا نتدخل في هذا المشكل الا بالحديث مع الدول المعنية لاقناعها بان هذه القضية قد تؤثر في امن المنطقة كلها، وان من مصلحتها ان تساعد على الحل السلمي الذي يوطد في المنطقة السلام والاستقرار.

■ **كذلك فيما يخص دور الامانة العامة والجامعة كاطار، هل تعتقدون ان سياسة القمة، اي النظر في المشاكل العربية، ومحاولة حلها في مؤتمرات الملوك والرؤساء هو دعم حقيقي للجامعة، المؤسسة الرئيسية الام للتقريب بين العرب، ام انها في شكل من الاشكال بديل للجامعة بالرغم من انها تنعقد في اطار الجامعة وتحت شعارها، او انها في اقل الحالات سوءا اعتراف ضمني بفشل الجامعة في حل المشاكل باجهزتها واساليبها التقليدية، ومحاولة لايجاد اسلوب اخر مباشر وعلى اعلى مستوى؟**

● ان من مميزات العربي المعاصر انه يشك دوما في كل شيء، ويشك ايضا حتى في الاجهزة الاساسية، وفي جدواها، لذلك لا اعتقد ان هذا الكلام ينطبق حقيقة على الجامعة، القمة هي اجتماع رؤساء الدول، فهل يمكن ان ننسق بين الدول ونتجاهل رؤساء الدول؟ صحيح ان الميثاق لم يكن ينص على اجتماعات في مثل هذا المستوى، ولكن هذا نقص تم تلافيه في الستينات، ابتداء من عام ٦٤، وقد وصلنا الى القمة الثانية عشرة، واعتقد ان القمة اصبحت جهازا اساسيا واذا نظرنا الى المنظمات الاقليمية الاخرى نجد لها مؤتمرات من نفس المستوى، ان اوروبا يجتمع رؤساء دولها وحكوماتها مرتين في السنة، الدول المتقدمة المصنعة السبع الكبرى يجتمع رؤساؤها مرة في السنة، دول افريقيا كذلك تجتمع مرة في السنة ولا ادري لماذا سكت ميثاق الجامعة عن هذا المستوى والحال انه اساسي. ولعل ذلك يعود الى انه كان يحضر مجلس الجامعة اول الامر رؤساء حكومات، اي ان مجلس الجامعة لم يكن مقصورا في البداية على مستوى وزراء الخارجية، ولا اعتقد ان مؤتمرات القمة بديل عن الجامعة، انما هي اضافة الى الجامعة تغنيها وتزيدها دعما وتعزيزا لجعل رؤساء الدول يطلعون هم انفسهم على المشاكل المصيرية، ويتخذون فيها قرارات جماعية، وهذا ليس ببديل، لان ما يقدم الى رؤساء الدول هو حصيلة

اعمال تقوم بها مجالس الجامعة، ثم بعد ان تغربل المواضيع تنتخب جملة منها، عددها قليل، تقتضي ان يقول فيها رؤساء الدول كلمتهم، وينبغي ان نحافظ على هذا الجهاز، وان ننظمه فنجعله مؤسسة قادرة منتظمة تقوم باعمالها خير قيام، ولم يكن من الممكن ان نصل الى ما وصلنا اليه بخصوص العمل العربي المشترك في الميدان الاقتصادي لولا القمة الحادية عشرة، ولم يكن من الممكن ان نتخذ الموقف الحازم الذي اتخذناه من اتفاقات كامب ديفيد لولا القمة التاسعة، ولم يكن من الممكن ان نضع تصورا شاملا للعمل العربي في الساحة الاجنبية لولا القمة العاشرة، لذلك، ارى ان هذا المستوى هو في الحقيقة تتويج للعمل العربي المشترك الذي تقوم به وتنظمه جامعة الدول العربية، وليس فيه اي شيء يهدد كيان الجامعة او العمل الذي تقوم بتنظيمه.

■ كيف يمكن من جهة اخرى الاستجابة للطلب الملح الذي نسمعه ونقرأ عنه، والداعي الى التفات الجامعة اكثر الى الجماهير التي هي في النهاية الضمان الاكبر لصمود الجامعة ودعمها، وكيف اذن يمكن تقوية العلاقات بين الامانة العامة والانسان العربي، رغم انها في الاساس جامعة دول، ورغم انكم تلحون على كلمة دول في حين ان الصحافة الغربية والعربية تواصل تسميتها بالجامعة العربية.

● صحيح ان الجامعة جهاز يربط بين مجموعة من الدول، وهذا ما قامت عليه الجامعة منذ سنة ٤٥، لكن المشروع الجديد للميثاق اخذ موضوع الجماهير بعين الاعتبار في اماكن متعددة، وفسح المجال لجملة من الجهود تنبع من مستوى شعبي، على انه ينبغي دوما ان نحتاط حتى لا نثير مشاكل بين القطاعين الشعبي والدولي، فالقطاع الدولي له تنظيماته وقوانينه ومتطلباته، والعمل الشعبي قد يتجاوب مع هذا العمل الدولي في جله، وقد لا يتجاوب معه في بعضه، لذلك ينبغي ان نحتاط حتى يكون عملنا منسجما من حيث المنطق، ومن حيث الاخلاق معا. نحاول اذن ان نوفق بين ضرورة التنسيق والانسجام، وبين اعتبار ما تصبو اليه الجماهير الشعبية، وليس من السهل التوفيق بين هذا وذاك. ونحن نحاول، ولكن بكثير من الحذر، حتى لا نربك العمل المشترك او نعرضه لبعض المخاطر.

■ سيدي الامين العام، تلافيا لما قد يحصل من تدخلات من طرف دولة المقر في عمل الامانة العامة للمنظمات الدولية، وحصرا على استقلال الامين العام فقد جرت العادة ان يكون الامين العام للامم المتحدة وغيرها من المنظمات من خارج دولة المقر، عكس ما جرت عليه جامعة الدول العربية، منذ البداية، فاي الصيغتين، في رأيكم انجح وافضل؟ وهل تشعرون بالاستقلال عن دولة المقر اي الدولة التونسية؟

● لا اود ان ادخل في نقاش حول اي الصيغتين افضل، لان ما اقوله، مهما يكن، سوف يكون معرضا للتجريح، واقتصر على تأكيد الحرية التي اشعر بها كأمين عام منذ اضطلاعي بمهمتي، فهي حرية تجاه دولة المقر، التي هي دولتي، وتجاه بقية الدول الاخرى، اني لم اشعر في اي وقت من الاوقات بتدخل الحكومة التونسية في شؤون الجامعة الا بما يساعدها ويذلل العقبات امامها، ويطلب منها، ولم اشعر كذلك باي تدخل من طرف اي دولة اخرى في شؤون الجامعة الا بقدر ما طلبت الامانة العامة هي نفسها مساعدة ما في هذا المجال او ذاك، ومن هذه الدولة او تلك، وهذا ما احمد الله عليه.

■ هل يمكن ان نصف قيادة العمل في الجامعة بانها فردية، او انها تعمل بقيادة جماعية من الناحيتين النظرية والتطبيقية؟

● اعتقد ان العمل الذي نقوم به هو عمل جماعي نابع اساسا من الدول، وكل ما يقوم به الامين العام انما هو استيحاء من العمل الذي تضبطه الدول مجتمعة، وترجمة لتوصيات وقرارات اتخذتها الدول مجتمعة، فالامين العام يتحرك دائما على هذه الارضية من الاجماع القومي، وصحيح ان عمل الامين العام يعتمد على اجتهاد فردي لانه هو المتكلم الرسمي باسم الامانة العامة، وباسم الجامعة بين دورات المجلس، ولكني رأيت ايضا على تكليف اعضادي بمهمات واسعة، كل في مجاله فاسحا

لهم المجال حتى تكون لهم المبادرة الكافية التي تحقق لجهودهم النجاح.

■ **لقد ذكرتم في اول هذه المقابلة انكم اطلقتم على الجامعة العربية لقب «بيت العرب» هل تشعرون ان هذا البيت يساوي فعلا بين العرب، ويصهرهم صهرا حقيقيا، بحيث اصبح العامل في الجامعة عربيا قبل وفوق ان يكون فلسطينيا او تونسيا او عراقيا او سوريا او جزائريا؟**

● نحاول ذلك، ولا نقول اننا ادركناه لان هذا صعب، لقد ورثنا أوضاعاً قديمة على اننا نسعى ليكون الموظف شاعرا بواجبه القومي قبل شعوره بانتمائه الوطني، نحن لا نقول ان بين الانتماء الوطني والوعي القومي تناقضا، وانما نقول ان الوعي القومي ينبغي ان يتقدم على الانتماء الوطني، كما ان الانتماء الوطني هو ايضا دعم للوعي القومي. ونحن نعتقد ان الوعي القومي نستمده اساسا من الوعي الوطني، ولذلك فان الجدلية صعبة المنال من حيث نتائجها. ولكننا نحاول ان نصل الى توعية الموظفين توعية قومية متواصلة، ثم اننا نحاول اضفاء الطابع القومي على المجموعة العاملة بالجامعة بجعل الموظفين من اكثر عدد ممكن من الدول، وقد وصلنا الآن الى ما يزيد على ١٥ من الجنسيات العربية، وهو شيء لم تبلغه الجامعة في اي فترة من تاريخها، ونحاول دوما ان نشرك في الاهتمام كل الدول، حتى تكون الجامعة حقيقة مشعة على كل الوطن العربي، ويكون الوطن العربي كله مشعا ومساهما فيها.

■ **سؤال اخير سيدي الامين العام، صحيح ان تجربتكم العامة الثقافية في الخمسينات والستينات والسبعينات كانت مرتبطة بالسياسة، وان تجربتكم السياسية في السنوات الثلاث الاخيرة لا تهمل الجانب الثقافي، لكن يظل هناك طابع ثقافي غالب على نشاطكم الماضي، وطابع سياسي غالب على نشاطكم الحاضر، لذلك اسألكم كيف توفقون بين الشخصيتين؟ وهل تترك كلا الشخصيتين المجال للاخرى وهل هذا ازدواج شخصية ام هو تكامل شخصية؟ واي المجالين الثقافي او السياسي تجدونه اقرب الى طبيعتكم وميولكم؟ ولو كان عليكم الاختيار من جديد اي المجالين تختارون؟**

● هذا سؤال ينطوي في الحقيقة على جملة من الاسئلة، ولذلك يستدعي جملة من الردود، والسؤال هو نفسه تحليل للقضية نفسها من جوانبها المختلفة، بحيث لا يسعني الا ان اعيد بعض جوانب السؤال لاجعل منها عناصر اجابة.

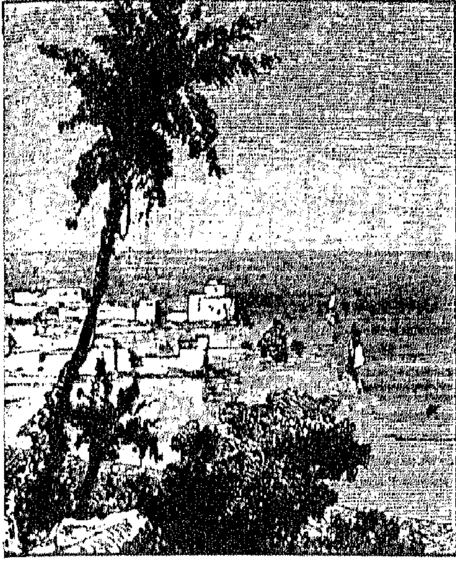
ان الاهتمامات السياسية كانت دوما حاضرة لدي من اول شبابي، لاني منذ اول شبابي، كنت مهتما بالعمل السياسي داخل الحزب، ومهتما بالعمل الاجتماعي داخل النقابات، لما اضطلعت بوظيفة استاذ، وكان ذلك بتساير كامل مع اهتماماتي الثقافية التي درجت عليها منذ شبابي ايضا، صحيح اني لا ارى في ذلك تناقضا بل ارى فيه تكاملا، كما ورد في السؤال، ومن المهم ان تتناغم الاهتمامات عند المسؤول مهما كانت درجته، فيكون متفتحا مهتما بالشؤون السياسية، ولكن بعمق ثقافي يجعله ينفذ الى كل ابعاد العمل السياسي ويضع المشاكل السياسية في اطارها الكبير الذي هو الاطار الحضاري والانساني، والعمل الثقافي وحده منفردا ومستقلا عن اهتمامات المجتمع، يوشك ان يمضي الى انعزال وانطواء. وهو بذلك يكون اضعافا للطاقات الفردية، وقد كنت دوما مؤمنا بان الثقافة والسياسة صنوان كلاهما مكمل للآخر، ولا بد من محاولة صهرهما، حتى تنصب كل هذه الاهتمامات في اتجاه موحد.

وبالنسبة الى عملي في الجامعة فقد وجدت مجالا ثريا، لاني، بحكم اضطلاعي بالامانة العامة تنصب جهودي على الميدان السياسي، ولكن بهذه الصفة وكذلك وبصفتي رئيس لجنة التنسيق التي تضم مختلف المنظمات، فاني اجد نفسي مدعوا الى ان اهتم ايضا بقطاعات مختلفة، اقتصادية وثقافية واجتماعية، وهو شيء مهم بالنسبة الى الرؤية التي تتكون لي عن مختلف القضايا والمشاكل العربية.

وفي كلمة موجزة، اعتقد ان ذلك شيء ممكن، ومفيد، وربما ضروري، لتكون نظرة المسؤول شاملة ونافذة الى اعماق المجتمع العربي.

نشرت في «شؤون عربية» العدد ٢٤ نيسان ١٩٨٢

أدباء من لبنان



رشيد الدين بن الصوري

د. أسامة عانوتي



قال ابن أبي اصيبعة(١) يقرّظ احد تآليف ابن الصوري عالم النبات (العشاب) والطبيب:

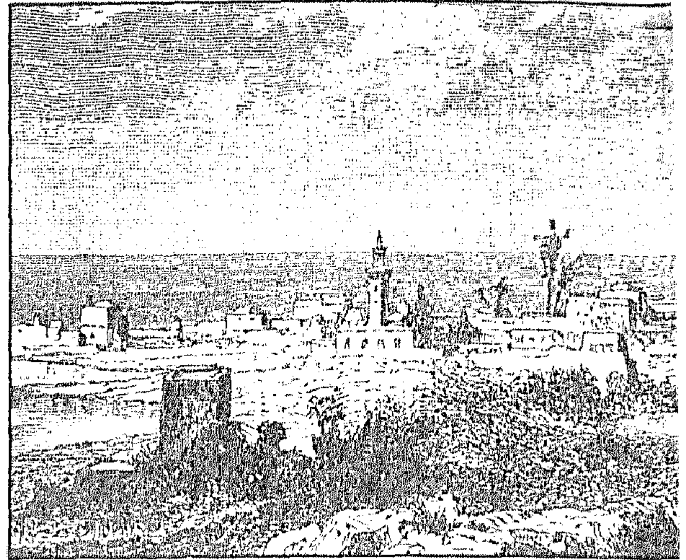
لِعلْمِ رشيدِ الدين في كل مشهد
منارُ علا يأتمه كل مهتدي
حكيم لديه المكرماتُ بأسرها
توراتها عن سيد بعد سيد
حَوَى الفضلَ عن آبائه وجدوده
فذاك قديم فيه غير مجدد
تفرَّدَ في ذا العصر عن كل مشبّه
بخير صفات حصرها لم يحدد
أتتني وصاياه الحسان التي حوت
بنثر كلام كلّ فصل منضّد
وأهدى الى قلبى السرورَ ولم يزل
بإحسانه يُسدى لمثلي من يد
وجدت بها ما أرتجيه وانني
بها أبدا فيما أحاول مقتدي
ولا غرو من علم الرشيد وفضله
اذا كان بعد الله في العلم مرشدي

* * *

هو الصوري، نسبة الى صور (لبنان) حيث ولد سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧م، رشيد الدين، أبو المنصور بن ابي الفضل بن علي الصوري. قال عنه ابن ابي اصيبعة: «...قد اشتمل على جُمَل الصناعة الطبية، واطّلع على محاسنها الجلية والخفية. وكان أوحدَ في معرفة الادوية المفردة وما هياتها، واختلاف اسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها، وتأثيراتها. ومولده في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بمدينة صور (اي ٥٧٣ هـ الموافقة ١١٧٧م). ونشأ بها. ثم انتقل عنها، واشتغل بصناعة الطب... وتميز في صناعة الطب. واقام في القدس سنين. وكان يطبّب في البيمارستان الذي كان فيه... واطلع... ايضا على كثير من خواص الادوية المفردة حتى تميز على كثير من اربابها، واربى على سائر مَنْ حاولها، واشتغل بها. هذا مع ما هو عليه من المروءة التي لا مزيد عليها والعصبية (الحمية لقومه) التي لم يُسْبَقْ اليها، والمعارف المذكورة، والشجاعة المشهورة...»(٢).

وقد اختصه بالطبابة بعض ملوك بني ايوب، كالعادل ابي بكر، الذي اصطحبه معه الى القدس، وخدم من بعده ولده عيسى (الملك المعظم)، ثم ابنه الملك الناصر داود، الى ان ارتحل الملك الناصر الى الكرك، فمكث هو في دمشق حيث توفي سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م،

■ د. اسامة عانوتي استاذ الادب العربي في كلية الآداب الجامعة اللبنانية



وكان قد ألف، ثمة، كتابه «الترياق الكبير» فذاع وشاع نفعه.

وكان رشيد الدين سباقا في علم النبات الذي جلى فيه، (فعده (SARTON)[٣] ثالث ثلاثة فيه ـ ابن البيطار، وابي العباس، ورشيد الدين هذا). فقد كان يشفع وصفه لصفوف النبات بالتصوير، فكان «يستصحب معه مصورا، ومعه الأصباغ، والليقى[٤] على اختلافها وتنوعها. **فكان يتوجه الى المواضع التي بها النبات، مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات. فيشاهد النبات ويحققه، ويُريه للمصور، فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه، واصوله، ويصور بحسبها، ويجهد في محاكاتها. ثم انه سلك في تصوير النبات مسلكا مفيدا. وذلك انه كان يُري النبات للمصور في ابان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه اياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه اياه ايضا وقت ذواه ويبسه فيصوره. فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب، وهو على انحاء مايمكن ان يراه بـه في الارض، فيكون تحقيقه له اتم ومعرفته له ابين»**[٥].

وصنيع ابن الصوري هذا فذ، بدع. وصفه (SARTON)[٦]، قال: إنه في النسق الأعلى، وقد ظل لا كفاء له في الغرب الى زمن بعيد بعد ابن الصوري، وانه اول صنيع بدع في الادب العربي من هذا القبيل[٧]. وقد آثر (Leclerc)[٨] رسوم ابن الصوري لاصالتها، على رسوم العلامة الاغريقي «ديسقوريدس».

وكتابه هذا[٩] الذي ضاع ـ مع الاسف ـ أول كتاب عربي مزود بالايضاحات التصويرية[١٠].

أضف الى هذا ما طوى عليه عمله من اوصاف طائفة من النبات لم تكن منافعها مذكورة ولا معهودة من قبل[١١].

وليس كتابه المصور هذا تأليفه الفرد الذي ضاع. فالغريب، الباعث على الأسى أن نتاجه جميعا قد فُقِد. ولكن كثرة كاثرة من الكتب التي حكت سيرته اوردت ان له «كتاب الادوية المفردة» ـ وبعضها[١٢] نص على انه مصور ـ فلعله هو المؤلف المتضمن الايضاحات التصويرية الموصوفة.

لقد كانت الرسوم الايضاحية جزءا اصيلا في تفكير ابن الصوري وصنيعه. بينما هو في نتاج «ديسقوريدس» نسخ، كيفما اتفق[١٣]، بل، ان (Leclerc) ليرى عمل ابن الصوري يتفق وفهمنا الحديث للشروح التصويرية[١٤].

* * *

وبعد، فهذا نابغة فذ من نوابغنا الشامخة، ما أحرانا بان نجدّ في إثر مخطوطاته النفيسة، المضيعة، مهما اقتضانا ذلك من كلف وجشمنا من مشاق. ■

الهوامش

(١) «عيون الانباء في طبقات الاطباء» ٢/٢١٧، (ط. الوهبية ١٨٨١ ـ ١٨٨٢، مصر، بعناية «امرىء القيس بن الطحان» (أوغست مولر Muller).
(٢) المصدر السابق ٢/٢١٦.
(٣) «Introduction To The History of Science»: 2/649.
(٤) مفردها: لِيقة، وهو الصمغ المحلول.
(٥) «عيون الانباء» ٢/٢١٩.
(٦) I/54, II/172.
(٧) Ibid: I/54.
(٨) حرف «C» لا يلفظ في اخر اسم هذا العَلَم.
(٩) History de la Medecine Arabe: 2/172, 225.
(١٠) Idbid.
(١١) «كشف الظنون»: ١/٥١، و«ايضاح المكنون» ١/٥٥٤، و«هدية العارفين» ١/٣٦٨.
(١٢) «هدية العارفين» ١/٣٦٨.
(١٣) Leclerc 2/172-173.
(١٤) Ibid 2/219.

تاريخ الفرق العربية في كأس العالم لكرة القدم



هجمة لفريق البرازيل على مرمى الارجواي في نهائي بطولة العالم سنة ١٩٥٠.

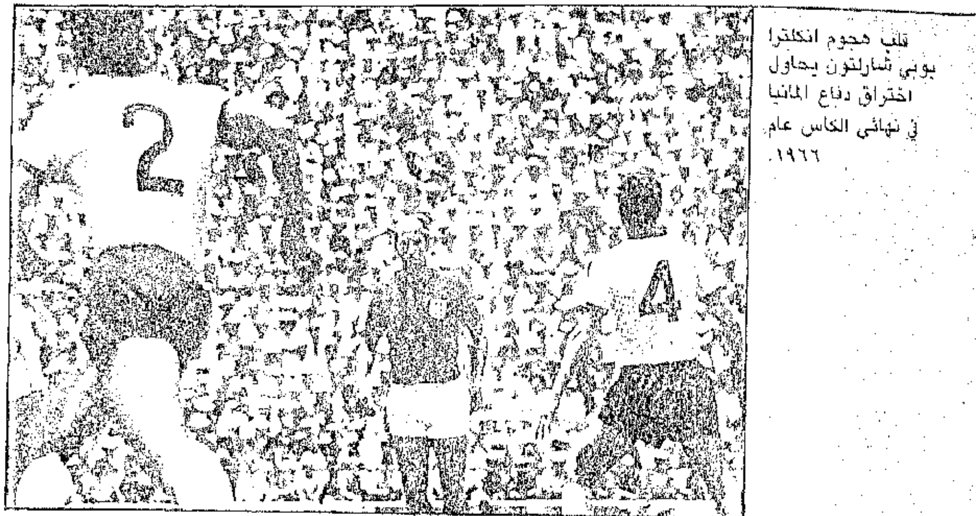
د. يوسف شبل

بدأ الحديث في العالم العربي منذ الآن عن النتائج المرتقبة لبطولة العالم لكرة القدم التي ستجرى في اسبانيا في حزيران القادم بين ٢٤ فريق يمثلون آسيا وافريقيا واوربا وامريكا اللاتينية.وقد وصل فريقان عربيان، ، الجزائر والكويت، الى اسبانيا بعد تصفيات مرهقة بين مجموعة الدول الافريقية حيث ترشحت الجزائر والكاميرون وعن المجموعة الاسيوية الكويت ونيوزيلنده. وفي هذا المقال سنحاول اعطاء القارىء فكرة عن تاريخ الفرق العربية في كأس العالم لكرة القدم منذ انشائها في عام ١٩٣٠ حتى الآن.

جرت اول بطولة عالمية لكرة القدم في مونتفيدو في الارغواي في عام ١٩٣٠ وفازت فيها الارغواي، ولم تشترك أي دولة عربية في هذه البطولة. وقد اقامت اورغواي دورة مصغرة لحاملي كؤوس العالم في ذكرى مرور خمسين عاماً على هذه البطولة في عام ١٩٨٠ ضمت ايطاليا والمانيا وهولنده (مكان انكلترا) والارجنتين والبرازيل والارغواي انتهت بفوز اورغواي على البرازيل ٢ ـ ١ في المباراة النهائية.

وكانت مصر اول دولة عربية تشترك في بطولة العالم الثانية التي جرت عام ١٩٣٤ في

■ د. يوسف شبل: مستشار اقتصادي لدى وزارة المالية في السعودية واستاذ اقتصاد في الجامعة الامريكية - بيروت سابقا، ويشغل حاليا منصب كبير الاقتصاديين في دار الهندسة والتصميم في بيروت.



قلب هجوم انكلترا بوبي شارلتون يحاول اختراق دفاع المانيا في نهائي الكأس عام ١٩٦٦.

روما والتي انتهت باحتلال ايطاليا المرتبة الاولى بعدما فازت على تشيكوسلوفاكيا في المباراة النهائية ٢ ـ ١. وكان الفريق المصري آنذاك يضم نجوم اللعبة من امثال مختار «التتش» وحسين حجازي وحودة والبرنس وسالم وغيرهم. وكان يعتبر في مستوى الفرق الاوروبية وقد خسرت مصر امام المجر ٢ ـ ٤ التي كانت احد أقوى دولتين في الكرة بالعالم وخرجت مصر بالتالي من الدور الاول للبطولة. وهذه الخسارة لا تعكس مستوى الفريق القومي المصري الذي كان يعتبر في مستوى الفرق الاوروبية العريقة في لعبة كرة القدم.

وفي الاربعينات توقفت بطولة العالم بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية ثم استؤنفت لاول مرة في عام ١٩٥٠ حيث اقيمت الادوار النهائية في مدينة «ريو دي جانيرو» في البرازيل حيث فازت اورغواي على البرازيل في المباراة النهائية ٢ ـ ١ بعد مباراة افتتحت فيها البرازيل التسجيل وسادت معظم الشوطين ثم عادت أورغواي لتسجيل هدفين وجاء الهدف الثاني قبل انتهاء المباراة بدقائق. وقد انتحر عدد من المشاهدين البرازيليين حزناً على خسارة فريقهم غير المتوقعة.

لم تشترك مصر في تصفيات البطولة لعام ١٩٥٠ رغم انها كانت تضم نجوم اللعبة من أمثال عبد الجليل ويحي امام لحراسة المرمى، وهمامي وجلال قريطم والدالي للظهر، وحنفي بسطان وحلمي أبو المعاطي وابو حباجة لخط الوسط، ومكاوي والجندي والضنطوي وساحر الكرة عبد الكريم صقر وحسين مدكور لخط الهجوم. وهو فريق لم تعرف مصر في تاريخها الكروي أقوى منه و أغلب الظن لم يصل فريق عربي في تاريخ الكرة الى مستواه ربما باستثناء فريق تونس في عام ١٩٧٨. فقد فازت هذه المجموعة عدة مرات على فرق بارزة من المجر والنمسا وايطاليا واليونان وتركيا. واول مرة دخلت مصر فيها تصفيات كأس العالم بعد الحرب العالمية الثانية كان في عام ١٩٥٤ عندما لعبت مصر في التصفيات ضد ايطاليا وخسرت ٢ ـ ١ في القاهرة وخسرت مرة أخرى ٥ ـ ١ في

ميلانو في مباراة جرت تحت تساقط الثلوج وهو ما لم يعتاد عليه اللاعبون المصريون اطلاقاً. والطريف في الامر ان اللاعب المصري «علاء» أفتتح التسجيل لمصر ثم سيطرت ايطاليا كلياً على المباراة لتسجيل خمسة أهداف. وفي عام ١٩٦٢ لعبت مصر في التصفيات لكأس العالم وخرجت من الدور الاول بعد أن خسرت ١ ـ٠ أمام اسبانيا في القاهرة و ٥ ـ ١ في مدريد. وكان فريق اسبانيا يضم بين لاعبيه «دي ستفانو» و «بوشكاش» و«خنتو» و «سواريز» اي أبرز لاعبي «يال مدريد» و «برشلونه». وكانت هذه أخر مرة تلعب فيها مصر ضمن مجموعة الدول الاوروبية إذ قرر الاتحاد الدولي لكرة القدم بعد ذلك اجراء تصفيات بين الدول الافريقية لانتخاب دولة واحدة تمثل القارة السوداء في بطولات العالم.

ومع ان فريق مصر في الستينات كان يضم نجوماً لامعين من أمثال «صالح سليم»، و «رفعت الفناجيلي» و «الشاذلي» و «مصطفى رياض» و«زافت» و «حماده إمام» و «سمير قطب» و «رفاعي» و «يكن» و «رضا» و «شحته» فإن الفريق القومي لم يكن في المستوى المطلوب نظراً لقلة المران وعدم الاحتكاك.

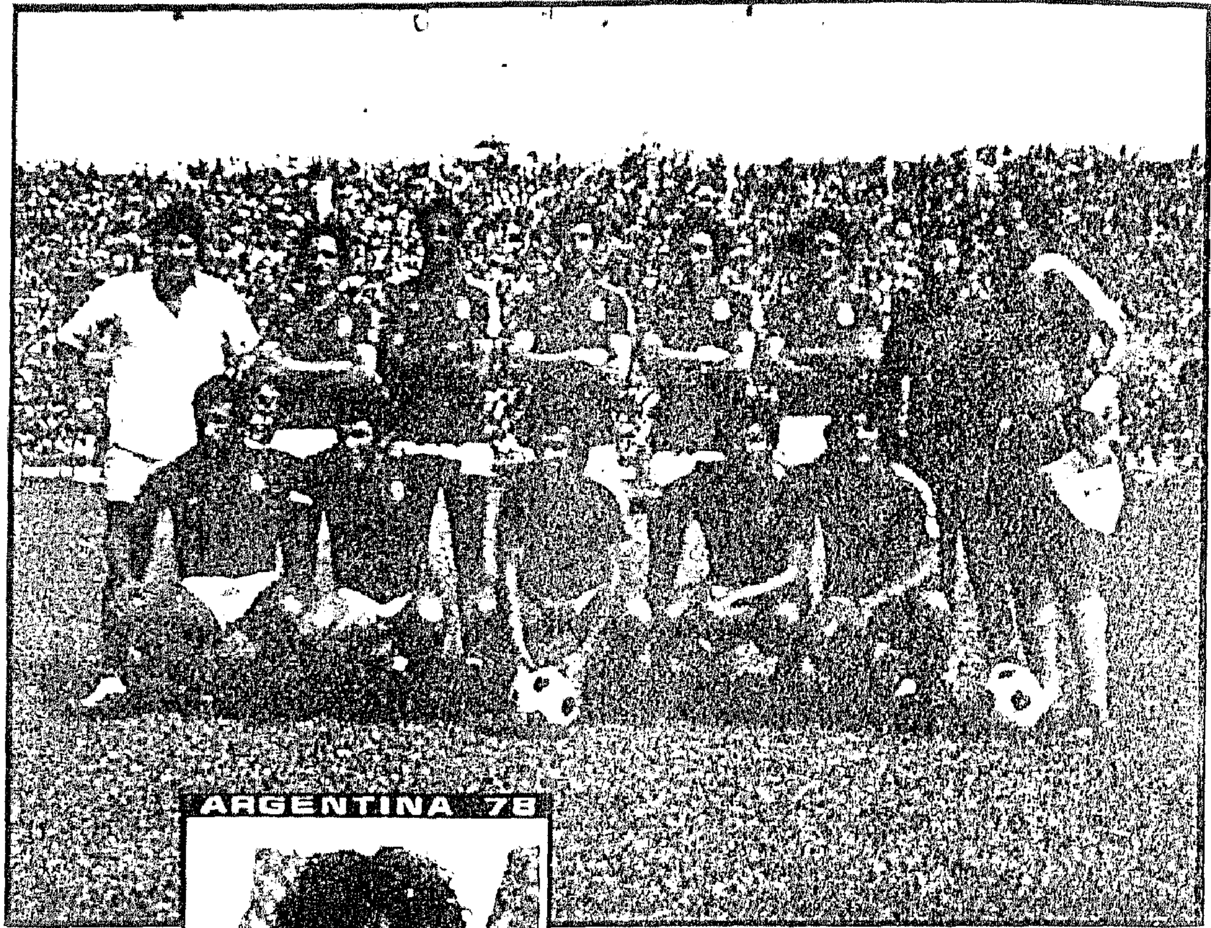
استطاع فريق المغرب الفوز بتصفيات افريقيا في عام ١٩٧٠ وتمثيل هذه القارة في بطولة العالم في المكسيك التي انتهت بفوز البرازيل في هذه البطولة للمرة الثالثة. وقد لعبت المغرب مباراة اولى ضد المانيا الغربية خسرتها ٢ ـ ١ بصعوبة بعد أن افتتح فريق المغرب التسجيل ثم لعبت امام بيرو وخسرت ٠ ـ ٣ وتعادلت مع بلغاريا ١ ـ ١ وخرج فريق المغرب من البطولة في الدور الاول. أما في عام ١٩٧٤ فقد فشلت الفرق العربية في تمثيل آسيا وافريقيا مثلّت زائير افريقيا بعد ان فازت على مصر ٣ ـ ٢ في مباراة فاصلة في القاهرة. وفي عام ١٩٧٨ حيث فازت الارجنتين بالبطولة كانت تونس قد ترشحت عن الدول الافريقية بعد فوزها على مصر ونيجيريا في دورة ثلاثية وسجلت نتائج مشرفة في الارجنتين حيث اقيمت البطولة منها فوزها على المكسيك ٣ ـ ١ وتعادلها مع المانيا الغربية صفر ـ صفر وخسارتها امام بولنده ١ ـ ٠ بعد مباراة اضاع فيها الهجوم التونسي هدفين محققين وكان محط اعجاب الجمهور بلياقته البدنية وارتفاع مستوى لاعبيه خصوصاً عتوقه، طلاق دياب، وعقيد وإمام.

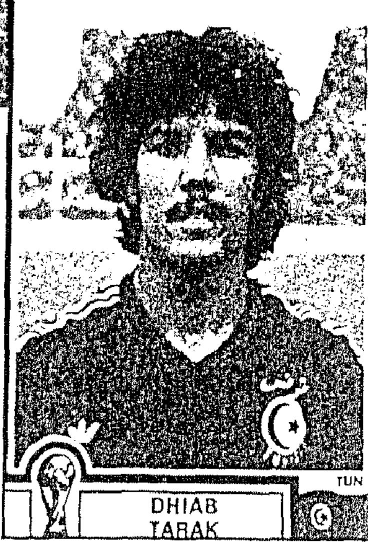
أما في تصفيات كأس العالم لعام ١٩٨٢ فقد خرجت مصر من الدور الاول بعد ان خسرت ١ ـ ٠ ضد المغرب في دار البيضاء وتعادلت صفر ـ صفر في القاهرة. وخرجت بعد ذلك المغرب وتونس في التصفيات لتصل الجزائر عن الدول الافريقية مع الكاميرون حيث أصبح لافريقيا فريقان يلعبان في نهائي كأس العالم. وقد فازت الجزائر على السودان ونيجريا قبل وصولها الى شرف تمثيل افريقيا الى جانب الكاميرون.

وفيما يتعلق بتصفيات آسيا فقد وصل فريق الكويت بعد ان لعب في مجموعة تضم السعودية والصين ونيوزيلنده وقد حصل فريق الكويت على ٩ نقاط من ٦ مباريات بعد فوزه على السعودية ١ ـ ٠ في الكويت وفوزه ٢ ـ ٠ في الكويت وفوزه على الصين ١ ـ ٠ في الكويت وخسارته ٣ ـ ٠ في كوالامبادر وفوزه على نيوزيلنده ٢ ـ ١ في نيوزيلنده وتعادل ٢ ـ ٢ في الكويت. وجاءت كل من نيوزيلنده والصين في المرتبة الثانية والسعودية في المرتبة الرابعة. ثم جرت مباراة فاصلة بين نيوزيلنده والصين فريق واحد منهم انتهت بفوز نيوزيلنده ٢ ـ ١ ودخولها نهائي كأس العالم في اسبانيا الى جانب الكويت عن المجموعة الاسيوية. وفيما يلي النقاط النهائية التي حصل عليها كل فريق من المجموعة الاسيوية في المباريات الست التي خاضها كل فريق.

الفريق	نقاط	فوز	تعادُل	خسارة
الكويت	٩	٤	١	١
نيوزيلندة	٧	٣	١	٢
الصين	٧	٣	١	٢
السعودية	١	ـــ	١	٥

وقد دخلت الكويت في المجموعة التي تضم انكلترا وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا في حين دخلت الجزائر المجموعة التي تضم كلا من المانيا





فريق تونس الذي مثل افريقيا في كأس العالم في الارجنتين عام ١٩٧٨.

لاعب تونس الشهير طارق دياب، الدفاع المفكر للفريق.

الغربية والنمسا وتشيلي. وإذا كانت الكرة مستديرة كما يقول نقاد الكرة أي ان نتائجها غير مضمونة دائماً وبالتالي يمكن حدوث أية مفاجأة، فإن حظ الفريقان العربيان في الانتقال للدور النصف النهائي قد يكون أقل من ٥٠٪ بقليل نظراً لقوة انكلترا وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا في المجموعة التي تضم الكويت وقوة المانيا الغربية والنمسا في المجموعة التي تضم الجزائر.

إن اللاعب العربي إجمالاً متفوق من ناحية المهارات الفردية غير ان قدرته على الاحتمال جسدياً أقل حتماً من اللاعب الاوروبي. وقد أصبحت الكرة الحديثة تعتمد على اللياقة البدنية حيث يستطيع اللاعب التنقل في جميع مراكز الدفاع والوسط والهجوم دون الشعور بالتعب والارهاق.

وإذا نظرنا الى جانب المهارات الفردية فقط لوجدنا مثلاً ان أحمد طرابلسي (حارس مرمى الكويت وشقيق الرّباع اللبناني العالمي محمد طرابلسي) وجاسم يعقوب وفيصل الدخيل وفتحي كميل يملكون مهارات فردية رائعة تؤهلهم اللعب مع أقوى الفرق الاوروبية. والثلاثة الاخيرين يلعبون في خط الهجوم ويجيدون المراوغة والتمويه بالجسم والتسديد بالقدمين والرأس بشكل أفضل من كثير من اللاعبين الاوروبين ولا ينقصهم عن اللاعبين الاوروبين سوى القدرة على اللعب تسعين دقيقة بنفس النشاط الجسماني. وتلعب الكويت



لاعب الجزائر الدولي مصطفى دحلب أمل الفريق في كاس العالم.

بالطريقة البرازيلية التي أدخلها المدرب السابق ولاعب منتخب البرازيل الدولي سابقاً «زاغالو» الذي ساهم كجناح أيسر في فوز البرازيل على السويد ٥ ــ ٢ في بطولة العالم لعام ١٩٥٨. وقد خلفه في التدريب مساعده كارلوس البرتو، البرازيلي الجنسية. وهو غير اللاعب المشهور الذي يحمل نفس الاسم وكان رئيس فريق البرازيل في بطولة عام ١٩٧٠ التي جرت في المكسيك وفازت فيها البرازيل على ايطاليا ٤ ــ ١ في المباراة النهائية. ونفس التحليل ينطبق على اللاعبين التونسيين واللاعبين المصريين أمثال محمود الخطيب وفاروق جعفر ومصطفى عبده وحسن شحاته.

لقد تقدمت كرة القدم العربية بشكل ملحوظ خصوصاً في منطقة الخليج العربي والمغرب العربي بنتيجة التعاقد مع مدربين عالميين وبنتيجة الاحتكاك المستمر مع أقوى الفرق

فريق الجزائر الذي سيلعب في اسبانيا ١٩٨٢.





فريق الكويت الذي سيلعب في اسبانيا سنة ١٩٨٢.

الاوروبية أما الفرق العربية العريقة مثل مصر والسودان قد هبط مستواها لقلة الاحتكاك وغياب النجوم القدامى وعدم ظهور نجوم في نفس المستوى. كما ان الاحتكاك بين الفرق العربية نفسها لا يزال شبه معدوم. فقد فشلت جميع المحاولات لاقامة دورات عربية بين الفرق التي تحمل بطولة الدوري في بلادها وكذلك للفرق حاملة الكأس على الطريقة التي تجري فيها هذه البطولات في أوروبا وأميركا اللاتينية كل عام منذ أكثر من عشرين عاماً. وكان آخر هذه المحاولات الدورة التي اقتصر الاشتراك فيها على فريق النجمة اللبناني وبطل الاردن وبطل العراق في حين اعتذرت باقي الاندية العربية الاخرى حاملة البطولة في بلادها. ومثل هذه الروحية لا تبشر بمستقبل زاهر للكرة العربية.

ومن العوامل الاخرى التي تعيق تقدم الكرة العربية بسرعة عدم وجود نظام احتراف كامل للاعبي الكرة يؤمن مستقبل اللاعب بدخل محترم كما يضمن تقاعداً كريماً. فمعظم قوانين اتحادات الكرة في العالم العربي تراوح بين الهواية الكاملة ونصف الاحتراف. ومثل هذا النظام يحوي جميع مساوي الاحتراف دون ان يشمل أي شيء من مزاياه وكما أنه يجعل اللاعب عرضة لتذبذب مستواه الفني نظراً لأن همومه الحياتية تظل تأخذ كفيره دوماً ولا تترك له الوقت الكافي للتدريب.

وأخيراً نرجو ان توفق كل من الكويت والجزائر في إحراز نتائج طيبة رغم ان كلاهما سيلعب مع مجموعة قوية من الفرق العالمية العريقة. فالنتائج الطيبة تعطي شحنة للاعبين العرب خصوصاً الناشئين منهم.

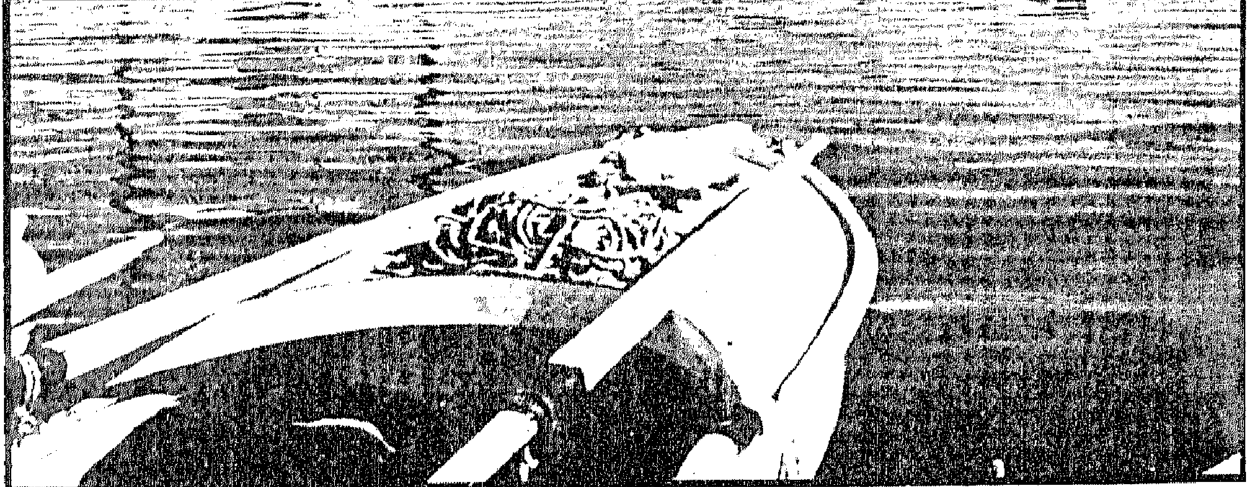
■

الحرف والصناعة في صيدا

أواخر العهد العثماني[1]

د. طلال المجذوب





تمهيـــد:



عرفت صيدا الصناعة والحرف اليدوية، مثل بقية مدن بلاد الشام، وكانت الحرف تتوارثها الأسرة الابن عن ابيه، وهذا عن ابيه كذلك، اما الصناعات فقد كانت تنشأ فتــرة، تــطول ام تقصر، ثم تختفي لتحل محلها صناعة اخرى وهكذا.

■ د. طلال المجذوب استاذ محاضر في الجامعة اللبنانية ـ الفرع الخامس

وقد شهد القرن التاسع عشر كسادا في الصناعة في مختلف مناطق بلاد الشام بسبب ضخامة الانتاج (Mass Production) وتدفق السلع الاوروبية عبر موانىء بلاد الشام، واقبال السكان على استهلاكها بكثرة متزايدة. وقد ساعدت القوانين الاصلاحية التي اخذت بالظهور خلال تلك الفترة الاوروبيين من تجار وصناعيين على التعامل الكثيف مع بلاد الشام، كما حفزت الرأسماليين منهم على القدوم الى اراضي الدولة العثمانية، خصوصا بلاد الشام، واستثمار اموالهم في مشاريع مربحة فيها.

ومن تلك الامتيازات والتسهيلات للاجانب ان الرسوم على المصنوعات الاجنبية كانت ضئيلة (٨٪)، كما ان متانة تلك المصنوعات أدت الى تفوقها على المصنوعات الوطنية المماثلة وعجز هذه عن منافستها. ولم يكن بقدرة الدولة العثمانية اتخاذ اجراءات اقتصادية او ادارية لحماية مصنوعات البلاد بسبب ضغط الدول الاوروبية عليها[١]، ومعاناتها من ذلك وهي التي عرفت آنذاك «بالرجل المريض».

بالاضافة الى ان الاصلاحات الجزئية التي بدأت في الدولة العثمانية قُبيل بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر عجزت عن نقض النظام الاقتصادي الذي كان قائما على اسس اقطاعية، وتطوير صناعة رأسمالية وطنية تستطيع الصمود امام مد المصنوعات الاوروبية، فالرسوم الجمركية، مثلا لم ترفع الى ١١٪ الا سنة ١٩٠٧ وبعد مفاوضات واتصالات قام بها رجال الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية المختلفة. وأدى هذا الاجراء الى تقوية الصناعة الوطنية ودعمها جزئيا فشهدت منذ ذلك ازدهارا نسبيا استمر حتى الحرب العالمية الأولى وكان مقدرا له الاستمرار لولا تلك الحرب ونتائجها.

ومن سُبل المعاناة التي كان يرزح تحتها المواطنون فساد الادارة العثمانية، مما كان يضطر المواطنين الى رشوة المسؤولين احيانا ليسمحوا بانشاء مصنع، او ليبقوا آخر على قيد العمل[٢]. فمثلا عندما انشأ الأخوة ابيلّا معملا في صيدا لنسج الحرير وصنع الأثواب الشبيهة بالحرير الدمشقي (الألاجا) سنة ١٨٦٤، اضطروا بعد بضع سنوات الى اغلاقه، لعدم قدرتهم على منافسة الأقشمة الحريرية القادمة من اوروبا، بعد ان تمنعت السلطات عن مد يد الحماية الجمركية لهم[٣].

ويبدو ان التجار كانوا اقدر على التكيف مع الوضع الجديد الذي خلقه تدفق المصنوعات الاوروبية على بلاد الشام، اذ عملوا كوسطاء بين اوروبا ومدن هذه البلاد خصوصا المدن الداخلية، اذ تركز معظم التجار الوسطاء في المدن الساحلية خصوصا بيروت، كما استفادوا من شراء كميات ضخمة من المواد الخام وتصديرها الى اوروبا حيث كانت بحاجة ماسة اليها.

شيوخ وتقاليد:

كذلك الصناعة فان الكساد لم يصبها كلها، بل بقيت بعض الصناعات والحرف التقليدية صامدة حتى مطلع القرن العشرين حين بدأت بالانتعاش من جديد. ويرجع صمود هذه الحرف والصناعات الى انها كانت ترتكز الى قواعد اقتصادية سليمة، حيث كانت موادها الأولية موجودة في منطقتها او في المناطق المجاورة، لكن نقطة ضعفها هي اتباعها نمطا معينا في الانتاج لا تحيد عنه أمام الصناعة الاوروبية التي كانت في تجدد مستمر. رغم ان الصناعة الوطنية قد تكون انتجتها يد ماهرة توارثت فنّها وحرفتها جيلا بعد جيل، لكن النمط الجامد في الانتاج يصبح مع مرور الوقت، عامل كساد لا عامل رواج لأنه لا يعود يراعي اذواق الناس المتطورة. فالأقمشة الانجليزية مثلا، القطنية او الصوفية، لم تكن اكثر اتقانا من مثيلتها الفرنسية، لكن هذه لم تلق الرواج الذي لقيته تلك، في اسواق بلادنا في القرن التاسع عشر، لأن الانجليز فهموا اذواق الناس هنا وعملوا اقمشة تتلاءم معها[٤]. بالاضافة الى ان جدة البضاعة الاوروبية وجمالها واتقان صنعها أسهم في رواجها واقتفاء الوطنية لها لأنها اضفت الكثير من السرور والراحة على حياتهم الشرقية القاسية والتقليدية.

كان الولد يأخذ «سر الصنعة» عن أبيه، ولذلك كانت أُسر وعائلات معينة تتوارث حرفا



(كوبران) مطرّز الظهر (اواخر القرن التاسع عشر).

وصناعات تقليدية معينة، فالابن يحتفظ بسر الصنعة ليعلمه، بدوره، الى ابنه، وكان من نتيجة ذلك ان غلب اسم الصنعة على اسم العائلة الاصلي ولصق بها فعرفت واشتهرت به بين الناس مثل النجار والحداد، والفران، واللحام، والسروجي، والقزاز، والسايس، والبيطار والملاح، والزهار، والشماع، والرواس، والحريري والتنبكجي، والنحاس والقزي.

وكان لكل صناعة شيخها (رئيسها)، يشبه النقيب اليوم، وفي كل مشغل او ورشة عمل كان يوجد صاحب المحل او المعلم (الاوسطة) ثم الصبي (او المبتدىء بالصنعة) وقد يكون الصبي ابن صاحب الصنعة احيانا. وفي المشاغل او المحلات الكبيرة كان يوجد المعلم فالأجير (او الصانع) فالصبي، وفي بعض الأحيان يكون في المعمل عدة صناع حسب حجمه وسعة شغله.

ويبدو ان الحرف والصناعات في صيدا في اوائل القرن العشرين كانت مرتبة بدقة ومصنفة الى درجات اولى وثانية وثالثة، وحتى هذه الاخيرة كانت قسمين، ويحدد درجة الصانع او الحرفي خبرته في عمله وكفاءته فيه. وفيما يلي نموذج لبعض الحرفيين في صيدا لسنة ١٩٠٨:

حسين حسن نعوس: صانع دباغ

ابراهيم زكريا الصباغ: طرابيشي

مصطفى بدوي عارف: صانع نجار نصف الدرجة الثالثة

الشيخ عبد الوهاب جمعة: مغربل

محمود يونس العر: عجان (يعجن الطحين)

الحاج احمد الصاوي: برادعي (صانع بردعة)

جميل انيس الديراني: خانجي درجة ثالثة (عامل بالخان)

موسى شحادة لاوي: كيال

محمد علي حسنا: بناء

ديب سمعان: مبيض

قيصر قسطنطين: نجار

وكان شيخ الحرفة يحافظ على تماسك ابناء حرفته ويحكم بينهم، ويتقصى العمل، ويمنع الغش والاحتيال وكذلك الاحتكار في الصنعة، ويبعد الغرباء المتطفلين عنها. ويقوم بمهمة الوساطة بين ابناء حرفته والسلطة وبشكل عام يسعى الى كل ما فيه تقدم حرفته وراحة حرفييه. وفيما يلي جدول بشيوخ الحرف في صيدا لسنة ١٩٠٩:

بدوي البساط: شيخ النجارين

احمد الناتوت: شيخ السرماتية

الحاج عبده الداية: شيخ القوندرجية

محي الدين البلولي: شيخ الحلاقين

الحاج ابراهيم البيني: شيخ باعة الخضار

محمد حسنا: شيخ البنائين

عبدو النباطي: شيخ العتالة

الحاج اسماعيل البابا: شيخ الدباغين

عبدو نصار: شيخ البرادعية

الحاج محي الدين كشتبان: شيخ المبيضين
احمد الشامي: شيخ القهوجية
حسين نصار: شيخ المكارية
خليل جرادي: شيخ الحمامجية
الحاج اسماعيل حبلي: شيخ اللحافين
سعيد السن: شيخ البحرية
خليل السكافي: شيخ صيادي السمك
كامل الصباغ: شيخ الصباغين
نقولا ضبر شيخ الخياطين
حسن قنبريس: شيخ الحدادين
صادق الحاصباني: شيخ العربجية

وفي احصاء لارباب الحرف والمهن والتجارة في صيدا الذين كانت لديهم محلاتهم الخاصة سنة ١٨٨٨ يتبين انهم كانوا بالكيفية التالية:

١٠ خياطين
٧ حدادين
٢٦ كندرجيا
٦٠ بائع اقمشة
٢٨ اسكافيا
٣٠ نجارا
١٤ حلاقا
١٣ لحاما
٤ ساعاتية
١٠ صباغين
٧٠ عطارا
٧ صاغة وجواهرجية



صياد يرتق شبكة صيده

صناعات متعددة:

ظلت صناعة الحرير ابرز صناعات صيدا، كما احتل النسيج الحريري مكانة مهمة بين صناعاتها، ووجدت مصانع الألاجه في صيدا، مثلما وُجدت في طرابلس وبيروت(٥). وعندما انشأ الاخوة أبيلا معملا للحرير في صيدا سنة ١٨٥٩ استقدموا له احدث الآلات من اوروبا وكان الاول من نوعه في المنطقة. والى جانب النسيج اخذوا يصدرون كميات كبيرة من خيوط الحرير (الشرانق) الى اوروبا.

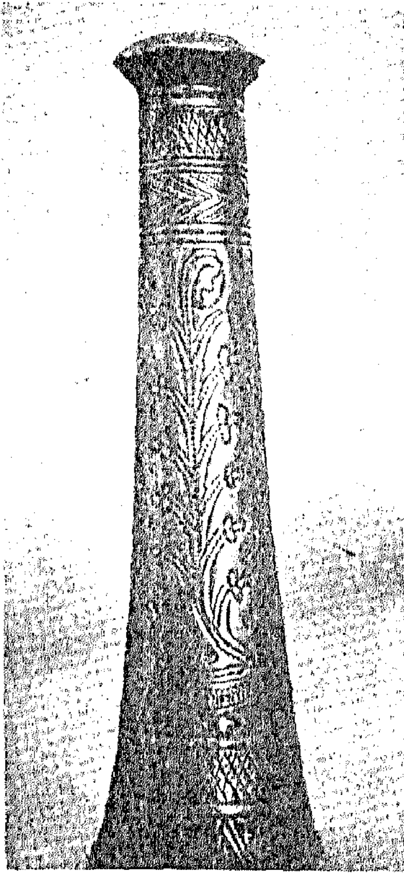
هذا بالاضافة الى مصانع الخشب لصنع تعبئة القار والحمضيات المصدرة الى اوروبا، واستطاع الصيداويون في مصانعهم تلك ان يستخدموا احدث الطرق في تغليف الفواكه المصدرة لحفظها من الفساد والتلف وذلك بلف كل ثمرة بورق منسوج (Tissues) رقيق كانوا يستوردونه من الخارج(٦).

كما قامت فيها صناعة السفن والمراكب الشراعية واستطاع الصيداويون ان يحرزوا خبرة ومهارة في صناعة المراكب، بحيث اخذت ترد اليهم طلبات لصنع السفن من معظم مدن الساحل السوري، وفي اوائل القرن العشرين تمكنوا من بناء ثلاث سفن ضخمة كانت حمولة الواحدة من ١٢٠ ـــ ١٤٠ طنا.

كما اقيم فيها سنة ١٩١١ معمل لصنع السجاد الوطني من انواع الاصفهاني والفرهاني والشيرازي وكانت تعمل به فتيات صيداويات وكان ملك احد افراد عائلة البزري(٧). كما انشئت فيها صناعة القرميد سنة ١٩٠٧ لسد حاجة صيدا والمناطق المجاورة علما بأن صيدا استوردت تلك السنة ٣٠٠ الف قطعة قرميد من الخارج عن طريق بيروت.

كما قامت فيها عدة مدابغ صدرت معظم جلودها المدبوغة الى بيروت وقبرص. كما قامت فيها قبل الحرب العالمية الاولى مصانع للصابون احدها لعائلة حشيشو والآخر لعائلة زهرة والثالث لعائلة كالو.

وهناك صناعة «طبع الاقمشة» حيث كانت تستورد الأقمشة الاوروبية «السادة» ثم تطبع عليها رسوم واشكال تناسب اذواق سكان البلاد



طنطور من الفضة محفور عليها صور حيوانات وازهار وخطوط هندسية نافرة تلبسه النساء (النصف الأول من القرن التاسع عشر).

في مشاغل بيتية كانت منتشرة في معظم مدن بلاد الشام، وكان هذا النوع من القماش يستهلكه القرويون في صنع مناديل للرأس واغطية للُحف.

هذا، وكانت في صيدا صناعات وحرف عديدة تتألف من محل واحد هو مشغل ومحل بيع وعرض في وقت واحد. مثل صنع القناديل وعرف به احمد حسن البدري. وصنع الجلال للدواب، وعرف بعملها محي الدين محمود نصار وعبد الغني نصار، وصنع الأباريق والادوات الفخارية وعرف بها اسبر فاخوري، كذلك كان من الدباغين محمود درويش زهرة ورشيد محمد البابا، وبالصباغة محمود احمد الصباغ.

وكان احد الاوروبيين مسيو بزون قد انشأ معملا لاستخراج الزيوت الطبية والعطور من النباتات البرية الكثيرة التي تنمو في سهل صيدا وفي التلال المجاورة لها. كما عرفت مشاغل لصياغة الحلى من الذهب والفضة وكذلك صناعة الادوات النحاسية المختلفة.

ومن صناعات صيدا الزراعية الرئيسية صناعة ماء الزهر حيث يقطر في فصل الربيع



حياكة سلال القصب كفريا ــ صيدا.

من زهر شجرة الصفير. وقد تمتع ماء الزهر الصيداوي بشهرة واسعة في كل بلاد الشام وانحاء مصر واسطنبول، وقد صدرت صيدا منه سنة ١٩٠٥ الى سوريا ومصر واسطنبول حوالي ستة الاف كيلو، وفي سنة ١٩٠٧ كانت صادراتها منه اربعة الاف كيلو[٨]، وكان يوضب عادة في«ألفِيات»كبيرة (زجاجات).

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر قامت فيها عدة معامل لصنع الحلويات المختلفة سرعان ما تمتعت بشهرة واسعة لطيب مذاقها واتقان صنعها ونظافتها مثل معامل حلويات الديماسي والقصير والسنيورة. وهذه العائلة الاخيرة تخصصت بنوع من الحلويات التي عرفت باسم هذه العائلة. كما قام في اوائل القرن العشرين معمل حلويات شاكر والبساط (وقد تأسس سنة ١٩٠٤) ولا تزال قائمة، وعرف هذا المعمل الأخير بانتاج اجود انواع الحلاوة الطحينية والسمسية وغيرها.

ونورد هنا اعلاناً عن احد هذه المعامل نشره صاحبه سنة ١٩٠٧ لدلالته على اسلوب الدعاية التجارية في تلك الفترة:

«غريّبة ومعمول المشهوران في صيدا شغل سعد الدين شاكر بجانب القشلة العسكرية في بوابة التحتا اشتهرت هذه الحلوى للذيذ طعمها وحسن صنعها وخلوّها من كل غش، وحبا بتوفير السؤال على الطلب عن محل بيعها بينا له مكان محلنا اعلاه، وجعلنا فوق كل علبة منها ورقة مطبوعة عليها اسمنا وعند التجربة يظهر صدق مقالنا»[٩].

وعند اقامة معرض صناعي في اسطنبول لاول مرة سنة ١٩١٥ دعت البلدية في صيدا الصناع والحرفيين الى تقديم انتاجهم للفوز باحدى جوائز المعرض ولعرض انتاجهم فيه.

■ من كتاب «تاريخ صيدا الاجتماعي ١٨٤٠ ــ ١٩١٤» الذي سيصدر قريباً ■

المصادر والمراجع:

(١) Roderic Davison: Reform in the ottoman Empire 1856-1876.

(٢) Edwin Pears: Turkey and its people, Second edition, London, 1912, p. 55.

(٣) تقرير القنصل الاميركي العام في بيروت لسنة ١٨٧٣ ت/٣٦٧، جـ ١١.

(٤) علي الحسين: تاريخ سوريا الاقتصادي، دمشق ١٣٤٢ هـ، ص ١٩٣.

(٥) التميمي وبهجت: ولاية بيروت، ص ٥٥.

(٦) تقرير القنصل الاميركي العام في بيروت لسنة ١٨٨٦ مؤرخ في ٣٠ حزيران ١٨٨٦ وبرقم ت/ ٣٦٧، جـ ١٤.

(٧) المفيد، العدد ٦٤٧، في ٢٣ اذار ١٩١١.

(٨) توما كيال: تجارة صيدا وزراعتها وصناعتها، الشرق، مجلد ١١، عدد ٣، اذار ١٩٠٨، ص ١٨٠.

(٩) ثمرات الفنون، العدد ١٦٣٣، في ٧ تشرين الاول ١٩٠٧.



الشيخ ابراهيم الأحدب

١٢٤٢ ـ ١٣٠٨ ـ ١٨٢٦ ـ ١٨٩١ [(١)]

د. زينب القاروط

حياته:

هو الشيخ ابراهيم بن علي الأحدب الطرابلسي الحسيني[(٢)] الحنفي، ثالث ثلاثة أبناء[(٣)] اختلف المؤرخون في سنة مولده، اذ نجد عند بروكلمن وكحالة وغيرهما انه ولد عام ١٢٤٢، وهو التاريخ الذي اعتمدناه، يقابله عام ١٨٢٦ م. بينما نجد عند خير الدين الزركلي واخرين ان مولده كان عام ١٢٤٠ هـ، ١٨٢٤ م[(٤)]. كذلك نجد فرقا يقدر بحوالي سبع سنوات في تاريخ وفاته[(٥)].

ومهما يكن من امر الخلاف فان الشيخ ابراهيم قد عاش في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، في طرابلس الشام، من عائلة عرفت بالتقوى والصلاح، تلقى القرآن

■ د. زينب القاروط استاذة في كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية ـ فرع الشمال.

واتقن تجويده، وهو ابن تسع سنين[٦]. فَقِهَ جميع العلوم الشرعية واللسانية والأدبية، من تفسير وحديث وفرائض واصول، وكلام ولغة، ونحو وصرف وبيان وبديع، وعروض ومنطق. قرأ معظم هذه العلوم في المدرسة السَقْرَقيَّة[٧]، على الشيخ عُرابي[٨] وعلى الشيخ عبد الغني الرافعي العمري (١٢٣٣ ـ ١٣٠٧) (١٨١٨ ـ ١٨٩١)[٩] بالمدرسة الطواشية[١٠]، فبرع في هذه العلوم، وقد لازم كبار العلماء، فتقدم بجده على اقرانه، وسار صيته بين الافاضل شرقا وغربا[١١]. وقد قال فيه الاديب حسين بيهم (١٢٤٩ ـ ١٢٩٨) (١٨٣٣ ـ ١٨٨١)[١٢] مادحا:

قَدْ جَدَّ في طلبِ العلومِ فَنَالها

لا يَبْلُغِ المقصودَ مَنْ لَمْ يَتْعَبِ

وفي عام ١٢٦٤ هـ[١٣] لما كان في الثانية والعشرين من عمره، تصدر للتدريس، ونشر العلوم التي برز فيها، وقد انتفع به كثير من الطلاب في بيروت وطرابلس، وقد اشاد احد معاصريه[١٤] بطريقته في التدريس، فقال:

عالِمُ العصْرِ وعلاّمته

من بقِسْطاس النُّهى يمتاز وزنا

شاعرٌ ألفاظهُ خمراً ألم

تَرَ أنّا في معانيهِ سكرنا

لفُنُونِ الفِقْهِ قد أبْدا طَرَا

يق لولا درسَهُ كُنَّ دَرَسْنَا

رحلاته والمراكز التي شغلها:

زار الشيخ ابراهيم، دار الخلافة في الاستانة، ايام سلطنة عبد الحميد خان[١٥] فاجتمع بعظمائها، وانتفع بأكابر علمائها، واستغل الشيخ فرصة وجوده في حضرة السلطان العثماني، فامتدحه بقصيدة تزيد عن ثمانين بيتا، مطلعها:

بنصرةِ دينِ الله وافت لنا البُشْرَى

فأولَتْ أولى الايمانِ من نشرها بشرا

وانتشر في الآفاق صيته، فاستدعاه سعيد جنبلاط[١٦] الى مركزه في المختارة[١٧] وهو في ذلك الوقت حاكم مقاطعة الشوف، وذلك في عام ١٢٦٨ ـ ١٨٥٢[١٨]، واتخذه مستشارا في الاحكام الشرعية، وبقي في هذا المركز مدة تقارب الثماني سنوات، كتب خلالها الكثير من الشعر، عاد بعدها الى طرابلس، وذلك بعد الفتنة الشهيرة عام ١٢٧٧ ـ ١٨٦٠[١٩]، وهو يقول في ذلك: «ثم مضى على ذلك مدة، وانا مقيم في المختارة من جبل لبنان، اسكن ابيات الشعر، مع خلوّ البال، عرائس المعاني والبيان... ثم اقتضت عوائد الدهر، اعادتي الى الوطن، بعدما خمدت نيران تلك الفتن»[٢٠].

ذكر اسد رستم في كتابه (بشير بين السلطان والعزيز)[٢١] نقلا عن شاكر الخوري، انه خلال اقامة الشيخ ابراهيم في المختارة، قام بتدريس اولاد سعيد جنبلاط الى جانب غيرهم من اولاد الاعيان.

والواقع ان اول مدرسة اسسها الشيخ ابراهيم الاحدب كانت في بيروت. اذ قبل مغادرة الشيخ الى المختارة، استدعاه السيد عبد الغني رمضان، عضو ولاية بيروت وكبير تجارها بناء على مشورة زوجته، وكانت من عائلة (كريمة) الطرابلسية، لتدريس اولاده، سليم[٢٢] ومحمود ومصباح[٢٣] وسعد الدين[٢٤].

وبعد مضي عدة اشهر، من عودته من المختارة، انتدبته حكومة بيروت التركية، وعينته نائبا في المحكمة الشرعية عام ١٢٧٧ هـ، وهو يقول في ذلك: «فاقمت في بلدي طرابلس الشام ما يقرب من نصف عام ثم حضرت الى بيروت بطلب واليها لنيابة القضاء»[٢٥].

وبعد فترة قضاها في هذا المركز، وعند اجراء تنسيقات النواب، صار رئيسا لكتاب المحكمة الشرعية، وبقي في مركزه هذا اكثر من ثلاثين عاما.

كان الشيخ ابراهيم الاحدب اماما من ائمة المذهب الحنفي[٢٦] وكان في الدرجة العليا في علم القضاء، ساعدته سعة اطلاعه وما عرف عنه من تدقيق، وصحة نقل، وقوة تحقيق، على ان يكون مرجعا لحاكم جبل لبنان، فاعتمدت على فتاويه واقواله، وحكمت بمقتضاها، فكان لدى عروض المشكلات مرجعا وللمسائل العويصة مقصدا ومطمعا[٢٧]. والى جانب عمله

في المحكمة الشرعية، تولى في نفس الفترة تحرير جريدة ثمرات الفنون[٢٨] فأودعها كثيرا من المقامات البديعة والرسائل الادبية والفصول الحِكَمِية[٢٩]. وفي عام ١٢٨٩ ـ ١٨٧٢، زار الديار المصرية، ولقي ترحيبا من علمائها، وكان من نتيجة هذه الزيارة، ان نشأت علاقات ودية، بينه وبين أجل علماء مصر، العلاّمة الشيخ عبد الهادي نجا الابياري (١٢٣٦ ـ ١٣٠٥) (١٨٢١ ـ ١٨٨٧)[٣٠]، فاعجب كل بصاحبه، وتبادل العالمان الرسائل الادبية، وظهرت هذه الرسائل فيما بعد، في كتاب يحمل عنوان «الوسائل الادبية في الرسائل الاحدبية».

وقد قام بجمعها الشيخ عبد الهادي نجا طيب الله ثراهما[٣١].

وعرضت على الشيخ ابراهيم نيابة صنعاء، فاعتذر عن توليها[٣٢]، وقيل في سبب اعتذاره، بُعد المسافة؟

ثم عيّن عضوا في شعبة مجلس المعارف في لواء بيروت، وعند تشكيل الولاية، انتخب عضوا في مجلس معارف الولاية.

ولقد وصل الشيخ الى رتبة مدرس السلمانية[٣٣] وهي من رتب كبار المدرسين،، كما كان يدعى لفحص تلامذة المدارس، كالبطركية والمدرسة الوطنية[٣٤].

وفي نفس العام، الذي زار فيه مصر، وجهت اليه بموجب براءة سلطانية خدمة الفراشة الشريفة في الحرم المكي.

صفاته الخلقية والخلقية:

لم تحدثنا كتب الطبقات والسير، كثيرا عن اخلاقه، الا اجمالا ولماما، واكثر ما ورد ذلك في حلية البيطار، اذ يقول «وكان قليل الكلام بما لا يفيد... مع طبع ذهني واخلاق مرضية، وفكر صائب واوصاف علية، وذهن متوقد، وحاضرة جيدة»[٣٦].

وفي مقدمة فرائد اللآل «ومن حيث الخلق، فانه كان لطيفا، لين الجانب... صادق الود، وافي الوعد».

ولقد قال حسين بيهم[٣٧] في رقة اخلاقه:

شهمٌ بـه الشرعُ الشريف مؤيدٌ
والحقُّ يُنصَر دائما بـالاَحْدَب[٣٨]

شهمٌ له التقوى شعارٌ لازم
ان الصلاحَ يُزينُ ربَّ المنصِبِ

اخلاقُهُ تُزري النَسِم بلُطْفِهَا
لكنَّ شَمسَ علومِـه لم تُحْجَب

وكذلك لسليم رمضان[٣٩] فيه رأي:

حسن السيرة محمود الثنا
لم يخيّب من كان به احسن ظنا

اما الشيخ عبد الهادي نجا الابياري فقد قال:[٤٠]

لِلّـهِ آدابٌ كـأنفـاس الصبـا
لُطفـا واخـلاقٌ كـأزهارِ الرُبَى

نفسٌ تـدينُ تواضُعاً ويـدٌ تسيـ
ـل تكـرمـا ونهى تلين تحببا[٤١]

شهرته:

كان الشيخ ابراهيم نابغة في حفظ اشعار المتقدمين والمتأخرين، يملي عن ظهر قلب متونا شتى في الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق ومن مقامات الحريري وغيرها، وكان على اطلاع واسع على امثال العرب، ووقائعهم ونوادرهم[٤٢]. وهكذا نجد انه، يمكننا ان نطلق على الشيخ ابراهيم لفظ موسوعة عربية اسلامية، وبالاضافة الى ما ذكر فقد اشتهر عنه، انه مع اشتغاله بالتدريس والتأليف، فقد نقل بخط يده ما يزيد على الف كتاب ورسالة، وكانت الشهرة الاكبر للشيخ قائمة على انه صاحب قريحة شعرية غريبة، حتى بلغ ما نظمه نحو ثمانين الف بيت، وكل بيت من شعره لا يخلو من صناعة بديعية او نكتة ادبية او حكمة بالغة، او مثل سائر حتى ان بعض معاصريه[٤٣] قد وصفه ببديع الزمان الهمذاني[٤٤] او لبيد[٤٥] فقال:

هو افقه الشعراء بل هو اشعر
الفقهاء بل هو در كنز المذهب

لا بدع ان يدعي بديع زمانه
ولبيده في الشرق او في المغرب

وكذلك فقد مدحه الشيخ الابياري شعرا ورد في الوسائل الادبية في الرسائل الاحدبية فقال:

جمع العلوم وكادَ يستقصي اللغى[٤٦]

ما كان منها معجماً او معربا

وسع العلوم بجانب من صدره

رحب، وللعمل استعد بأرحبا

فترى له في كل علم مشرعا

وترى له في كل فضل مشربا

اما بديع نظامه ونشاره

فتهز نشوة سامعيه المنكبا

ومن المساجلات الادبية الطريفة، التي ساعدت على انتشار شهرة الشيخ ابراهيم رحمه الله، انه قرظ ديوان ناصيف اليازجي[٤٧] حين اهداه نسخة منه، فقال قصيدة ابتدأها بالغزل الى ان قال:

ابدى (الحريري)[٤٨] على خده

(مقامة) تنسي (بديع الزمان)[٤٩]

اقلامه في الطرس[٥٠] تبدى لنا

أغصان روض او فروع قيان

فقل علاه (مبتدأ) في الورى

من غير (أخبار) ودع ذكر (كان)[٥١]

فانتفض ناصيف للاجابة مبتدئا بالغزل ايضا حتى قال:

في خدها نار المجوسِ التي

قام لديها الخال كالموبذان[٥٢]

أو (نار ابراهيم) مشبوبة

في مهج الحساد ذات الدخان

هذا (خليل الله) والناس في

الدين والدنيا فنعم القرآن

ينسي جريراً نظم أبياته

ونثره ينسي بديع الزمان[٥٣]

وكذلك كان الشيخ سريع الخاطر، حدّث الرواة عنه انه كان يملي في الحال ما يقترح عليه من موضوعات سواء كان ذلك شعرا ام نثرا، وغالبا ما كان ينظم القصيدة الطويلة ويرتجل الرسالة او الخطبة في اي موضوع كان، حتى قيل انه كان ينظم القصيدة الطويلة التي ربما بلغت سبعين بيتا في جلسة واحدة، بدون تكلف ولا طول مدة، وكثيرا ما كانت القصيدة تحتفظ بهيكلها الذي بنيت عليه ساعة القائها، ولا يطرأ عليها اي تغيير.

واحاطة الشيخ ابراهيم الاحدب باحكام الشريعة الاسلامية لا سيما علم الفرائض، اثبته ابراهيم اليازجي في قصيدة منها:

فضاض مشكلة حواض معضلة

رواض مسألة من كل ملتبس

لا يصطلي نار ابراهيم مجتهد

ولا تنال عداه كف ملتمس[٥٤]

ونورد ابياتا من حكم موزون مقفّى صادر عن المحكمة التي كان الشيخ ابراهيم كاتب الضبط فيها:

من بعد حمد الله والصلاة

على النبي، باذل الصلاة

بمجلس الشرع الشريف السامي

ومحفل الحكم المنيف النامي

بثغر بيروت الرفيع العالي

أيده الرحمن ذو الجلال

الى ان يقول في نهاية الحكم:

فأمر الوالي برقم ما جرى

نظما فحسب الأمر نظما سطرا

وذا مقال العبد ابراهيم

الاحدب الراجي رضى الكريم

وذا في نصف جمادي الأول

يوم الخميس يا رفيع المنزل

سنة ست وستين بدت

ومايتين قبل ألف قد خلت

من هجرة المختار خير الرسل

صلّى عليه ربنا ذو الفضل[٥٥]

اذا اردنا حصر الاتجاهات التي عالجها الشيخ الاحدب، نجد ان له في كل فرع من فروع العربية جولة، وفي ميدان النظم من فتاوي وامثال وقصائد صولة، نظم الشيخ ابراهيم، رحمه الله القصائد الشائعة، في مدح امراء العرب ووزرائهم، وكبرائهم كالامير عبد القادر الجزائري، وباي تونس محمد صادق باشا، الذي احسن اجازة الشيخ، كذلك مصطفى باشا كبير وزراء تونس، ارسل اليه علبة مرصعة بالماس وعليها رسمه بالالبسة

الرسمية، واسمه منقوش بالحجارة الكريمة[٥٦].

واقترح حسين باشا وزير المعارف بتونس على الادباء رسالة «لا سلامة من الخلق» التي انشأها الشيخ ابراهيم فحكم له بالسبق على سواه، وارسل له الجائزة المعينة، مع سبحة من العنبر ورسالة بخط يده.

وبالاضافة الى ما ذكرنا فقد كان للشيخ شهرة مسرحية لا تقل عن سواها من المميزات الاخرى التي عرفت عنه، يقول طرّازي في ذلك «وكان له كلف بالروايات، حتى بلغ ما جمعه منها نحو عشرين رواية، فبعضها مبتكر له، وبعضها مأخوذ من التاريخ، او مترجم عن لغة اوروبية كرواية «الاسكندر المكدوني» ورواية «السيف والقلم» ورواية «المعتمد بن عباد» وغيرها وقد بلغت شهرة رواياته، مسمعي راشد باشا والي سوريا في دمشق، فاعجب ببراعة منشئها، ولما اراد ان يحتفل بختان انجاله في نواحي سنة ١٨٦٨ كلف صاحب الترجمة ان يعلم رواية «اسكندر المكدوني» لجوق من الممثلين ويذهب بهم الى دمشق لاجل تمثيلها، ففعل الشيخ ابراهيم ذلك. وكان لتمثيل الرواية صدى استحسان لم يزل يردده سكان الفيحاء... وعند رجوع الشيخ ابراهيم الى بيروت اهداه راشد باشا خاتما مرصعا بالالماس، ونفحه بمائة ليرة عثمانية، ثم انه نال من مكارم اعيان دمشق واكرامهم، ما لم ينله عالم سواه في عصره».

وفاته:

في صباح يوم الجمعة ٢٤ من شوال ١٣٠٧هـ نزل به مرض[٥٧]، فاستمرّ مريضا نحو تسعة اشهر صابرا على ذلك، وفي ليلة الثلاثاء من رجب ١٣٠٨هـ، ٢ اذار ١٨٩١م فاضت روحه الطاهرة، فتولى طلبة العلم حمل نعشه، وشيّعه خلق كثير، من الاشراف والعلماء والوجهاء الى مقبرة الباشورة[٥٨]، حيث دفن بالاحترام اللائق به، وقيلت فيه المراثي تعدد شمائله ومحاسنه، لكمال خلقه وخلقه وفضله، ولقد رثاه الشيخ قاسم الكستي (١٢٥٦ ـ ١٣٢٨) (١٨٤٠ ـ ١٩١٠)[٥٩] بقصيدة طويلة جاء فيها:

لفقدك هذا العصر يا من قضى نحبا
على اهله قد اوجب الحزن والندبا
نعزّي بك الآداب يا من حويتها
وكنت لمن يرتادها منهلاً عذبا
يظنك بعض الناس انك في الثرى
ولم يدر عند الله منزلك الرحبا

■

الهوامش

(١) قارن (Brockelman. G.A.L.SII, 760) وكحالة، معجم المؤلفين، ج ١، ص ٦١/كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٧١/عبد الله نوفل ص ١٢٢.

(٢) قيل ان نسبه يتصل بالامام علي بن ابي طالب رضي الله عنهم. انظر طرازي، تاريخ الصحافة ج ٢، ص ١٠١ ـ ١٠٤.

(٣) اخواه احمد وحسن.

(٤) الزركلي الاعلام ج ١ ص ٤٨ / البيطار، حلية، ج ١، ص ٤٦ وما بعدها.

(٥) سميح وجيه الزين، تاريخ طرابلس، ص ٤٥٨، وفيه ان الشيخ قد توفي في رجب ١٣١٥هـ، وهذا يعارض ما نقش على الضريح.

(٦) قارن مقدمة فرائد اللآل/ الزين، تاريخ طرابلس، اذ يرى ان الشيخ تلقى العلم على كبر.

(٧) تقع في اول الطريق المعروفة الآن باسم صف البلاط، المؤدية الى مقبرة باب الرمل، بناها الامير سيف الدين اقطرق، انتهى بناؤها قبل ٧٦٠هـ/ تدميري، تاريخ واثار، ص ٢٩٠، انظر ايضا الملحق.

(٨) لم اجد له ترجمة.

(٩) الزركلي، الاعلام ج ٤، ص ١٥٨.

(١٠) تقع في منتصف سوق الصاغة، شمال المدرسة النورية، بجوار الممر الشرقي لمدخل حمام العبد، عرفت بهذا الاسم او باسم مدرسة بني الطواشي، نسبة الى مؤسسها الامير سيف الدولة الطواشي، المتوفى سنة ٨٧٥هـ ـ ١٤٧١م فالمدرسة بنيت قبل هذا التاريخ، والطواشي او الطواشية هم الخصيان الذين يستخدمون في قصر المماليك وفي اجنحة الحريم السلطاني، تدمري، تاريخ واثار، ص ٢٨٧.

(١١) طرازي، تاريخ اصحافة، ج ٢، ص ١٠١ ـ ١٠٤.

(١٢) الزركلي، الاعلام ج ٢، ص ٢٧٣.

(١٣) طرازي، خزائن الكتب، ج ١، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(١٤) هو سليم رمضان، احد تلامذة الشيخ.

(١٥) حكم بعد ابيه السلطان محمود (١٢٣٧ ـ ١٢٧٧) (١٨٣٩ ـ ١٨٦١)، قارن محمد فريد المحامي، تاريخ الدولة العثمانية،

ص ٢٧٧ ــ ٢٨٧، يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، ص ١٩.

(١٦) هو سعيد بن بشير بن قاسم بن علي بن رباح بن جانبولاد، وجده الاعلى جانبولاد اول من اسس هذه السلالة في لبنان.

(١٧) لا زالت هذه البلدة مقرا لآل جنبلاط الى اليوم.

(١٨) وقيل عام ١٢٦٧، على خلاف في ذلك، قارن البيطار، حلية، ج ١، ص ٤٦ وما بعدها.

(١٩) الفتن بين الدروز والنصارى وقعت في الاعوام (١٢٥٧ ــ ١٨٤١)، (١٢٦١ ــ ١٨٤٥)، (١٢٧٧ ــ ١٨٦٠) وهي اخر الفتن في القرن الماضي، انظر فريد، تاريخ الدولة.

(٢٠) قارن مقدمة النفح المسكي، وطرازي، تاريخ الصحافة، ج ٢، ص ١٠١ ــ ١٠٤، والشدياق، اخبار الاعيان، ج ١، ص ١٥٥.

(٢١) ج ٢، ص ٢٣٣ و ٢٣٤.

(٢٢) شاعر، من رواد النهضة وامين سر الجمعية السورية.

(٢٣) شاعر مجون.

(٢٤) شاعر.

(٢٥) مقدمة النفح المسكي، طرازي، تاريخ الصحافة، ج ٢، ص ١٠١ ــ ١٠٤.

(٢٦) مؤسس هذا المذهب هو الامام ابوحنيفة النعمان، وهو اول المذاهب السنية الاسلامية، عاش هذا الامام ما بين ٨٠ ــ ١٥٠ هـ، امتاز مذهبه بالتوسع بالاخذ بالرأي وتعظيم الحرية الفردية، والاستحسان سمة من سمات المذهب الحنفي.

(٢٧) البيطار، حلية، ج ١، ص ٤٨.

(٢٨) اول الجرائد الاسلامية في بيروت، واول صحيفة عربية انشأتها شركة مساهمة في العالم كله وكان المساهمون من ادباء المسلمين واعيانهم، وكانت الصحيفة اسبوعية سياسية، علمية، ادبية، انشأتها سنة ١٨٧٥ جمعية الفنون الاسلامية، واستمرت في الصدور طيلة اربعة وثلاثين عاما، توقفت عن الصدور عام ١٩٠٩/ مروة، تاريخ الصحافة وطرازي تاريخ الصحافة، ج ٢، ص ٩٩، جـ ٣، ص ٦ بالهامش.

(٢٩) (C. Brockelman G.A.L.SII. 760).

(٣٠) في تاريخ وفاته خلاف، انظر كحالة، معجم المؤلفين، جـ ٢، ص ٢٠٣ و (C.Brocklmann' G.A.L. GII. 487)

(٣١) البيطار، حلية، جـ ١، ص ٤٦ وما بعدها.

(٣٢) طرازي، تاريخ الصحافة، جـ ٢، ص ١٠١ ــ ١٠٤.

(٣٣) نسبة الى سليمان الاول (١٤٩٤ ــ ١٥٦٦) عاشر سلاطين ال عثمان واعظمهم حكم من ١٥٢٠ الى ١٥٦٦ وهو المعروف بالقانوني، انظر الصباغ، المجتمع العربي، ودائرة المعارف الاسلامية.

(٣٤) خاتمة النفح المسكي.

(٣٥) البيطار، حلية جـ ١، ص ٤٦ وما بعدها.

(٣٦) نفسه، حلية، جـ ١، ص ٤٦ وما بعدها.

(٣٧) انظر ترجمته سابقا.

(٣٨) الاحدب اسم من اسماء السيف.

(٣٩) انظر سابقا.

(٤٠) الوسائل الادبية، المقدمة.

(٤١) تقال للجمر اذا راتفع.

(٤٢) طرازي/ الخزائن، الكتب جـ ١، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١.

(٤٣) هو حسين بيهم.

(٤٤) عاش في القرن الرابع الهجري.

(٤٥) توفي سنة ٤١ هـ.

(٤٦) هكذا في الاصل.

(٤٧) انظر ترجمته سابقا.

(٤٨) القاسم بن علي (٤٦٦ ــ ٥١٦) (١٠٥٤ ــ ١١٢٢)؛ الزركلي: الاعلام جـ ٦، ص ١٢.

(٤٩) احمد بن الحسين بن يحي الهمداني (٣٥٨ ــ ٣٩٨) (٩٦٩ ــ ١٠٠٨)، الزركلي، الاعلام جـ ١، ص ١١٢.

(٥٠) بالكسر الصحيفة.

(٥١) في القاموس، نجم يهتدى به.

(٥٢) في الدين المجوسي تطلق على حارس النار حتى لا تطفأ.

(٥٣) انظر اسبقا.

(٥٤) مقالة للشيخ طه الولي في صحيفة اللواء، ١٣ ك ٢ ١٩٨٠.

(٥٥) مقال الشيخ طه اولي في لواء الاحد.

(٥٦) ما تزال هذه الهدية في حوزة الاستاذ المهندس ابراهيم الاحدب حفيد الشيخ رحمه الله: ويعتقد انها علبة عطوس.

(٥٧) قيل انه اصيب بالشلل لمدة قصيرة، فبرأ منه ثم اصيب به ثانية/ مقال للشيخ طه الولي في لواء الاحد، ٣٠ ك ٢ ١٩٨٠.

(٥٨) ويقال لها ايضا قبر الوالي ذلك ان الوالي التركي احمد حمدي باشا قد دفن خارج سور كلية البنات الاسلامية، ثم نقلت رفاته الى داخل المدفن، والباشورة تقع في المنطقة المسماة السور اي سور مدينة بيروت القديمة، ومواجهة المدفن لجهة الغرب يقوم مبنى الاسعاف العام، حكم الوالي سنة ١٢٨٩، لمدة سنة وسبعة اشهر، غرايبة، سوريا في القرن ١٩؛ وللشيخ قصيدة مديح في احمد حمدي باشا لم تزل بين مسوداته.

(٥٩) الزركلي، الاعلام، جـ ٦، ص ١٩.

للمؤلفة كتاب مفصّل بعنوان:
الشيخ ابراهيم الاحدب
دار الانشاء طرابلس ١٩٨١.

من قصص العرب

يُواسِي بعضهم بعضاً *

قال الواقدي[١]:

كان لي صديقان: أحدهما هاشميّ، وكنا كنفس واحدة؛ فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد، فقالت امرأتي: أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدّة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم؛ لأنهم يرون صبيانَ الجيران وقد تزيّنوا في عيدهم، وأصلحوا ثيابهم، وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة! فلو احتلْتَ بشيء تصرفهُ في كُسْوتهم!

فكتبت إلى صديقي الهاشميّ أسأله التّوسِعَة عليّ، فوجّه إليّ كيساً مختوماً، ذكر أنّ فيه ألفَ درهم،فما استقرَّ قَراري حتى كتب إليَّ الصديقُ الآخر يشكو مثلَ ما شكوتُ إلى صاحبي، فوجَّهتُ إليه الكيسَ بحاله، وخرجتُ إلى المسجد، فأقمتُ فيه ليلي مُسْتحيياً من امرأتي.

فلما دخلتُ عليها استحسنَتْ ما كان مني، ولم تعنِّفْني عليه.

فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشميُّ ومعه الكيسُ كهيئته، فقال لي: اصْدُقني عمّا فعلتَه فيما وجهتُ إليك؟ فعرَّفْتُه الخبر على وجهه، فقال: إنك وجّهتَ إليَّ وما أملك على الأرضِ إلّا ما بعثت به إليك، وكتبتُ إلى صديقنا أسأله المواساة فوجّه إليّ بكيسي! فتواسينا الألف أثلاثاً!

ثم نُميَ الخبر إلى المأمون فدعاني، فشرحتُ له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار؛ لكلّ واحد ألفا دينار، وللمرأة ألف دينار!

هوامش

* المسعودي: ٢ ــ ٣٣٦.

(١) الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، توفي ٢٠٧هـ.

عمارة الفقيه وعبد الملك بن مروان *

قال عمارة الفقيه:

كنتُ أجالسُ عبدَ الملك بن مروان[١] كثيراً في ظل الكعبة، فبينا أنا معه إذ قال لي: يا عُمارة، إن تَعِش قليلاً فسترى الأعناقَ إليَّ مائلةً والآمالَ نحوي ساميةً، وإذا كان ذلك فلا عليكَ أن [illegible] لرجائك باباً ولأمَلِك ذريعة[٢]، فوالله إن فعلت لأملأنّ يديك غبطة، ولأكسونّك نعمةً سابغة.

ثم إن عبدَ الملك سار إلى دمشق، وصارت إليه الخلافة، فخرجتُ إليه زائراً، واستأذنتُ فأذِنَ لي، ودخلتُ فسلمتُ عليه، فلما انقضى سلامي، قال: مرحباً بأخي؛ ونادى أحد غلمانه، فقال: بوِّئْهُ[٣] داراً، وأحسِن مهاده، ونزِّهْه، وآثرْه على خاصتي.

ففعل، وأقمتُ عنده عشرين ليلة أحضرُ غداءه وعشاءه؛ فلما أردتُ الانصرافَ والأوْبةَ إلى أهلي أمرَ لي بعشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم، ومائة ناقة برقيقها وكُسوتهم، وقال لي: أتُراني يا عمارة ملأتُ يديك غبطة؟

فقلت: يا سبحان الله، يا أمير المؤمنين؛ وإنك لذَاكِر لذلك؟ قال: نعم! والله لا خيّر فيمن ينسى ما وَعَد به ويذكر ما أوْعد[٤]. كم لهذا الأمر يا عمارة؟ قلت: والله لكأنه بالأمس، وله دهرٌ يا أمير المؤمنين! قال: فوالله ما كان ذلك عن خبرٍ سمعناه، ولا حديث كتَبْناه، ولا أثرٍ رَوَيناه؛ غير أني عقلتُ في الحداثة أشياء رجَوْتُ أن يرفعَ اللّهُ بها درجتي، وينشر بها ذكري.

قلت: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت لا أُشاري، ولا أماري[٥]، ولا اهتك ستراً ستَرَه اللّهُ دُوني، ولا أرتكبُ محرماً حظرَه اللّهُ علي، ولا حسدتُ، ولا بغيت؛ وكنتُ من قومي واسطة القلادة، وكنتُ أكرمُ جليسي وإن كان ذميماً، وأرفعُ قدرَ الأديب، وأكرم ذا الثقة، وأداري السفيه، وأرحمُ الضعيف، فبذلك رفع الله قدري! يا عمارة؛ خذ أُهبةَ السفر؛ وامض راشداً!

* غرر الخصائص: ١٥٨.

(١) من أعاظم الخلفاء ودهاتهم.

(٢) سبباً.

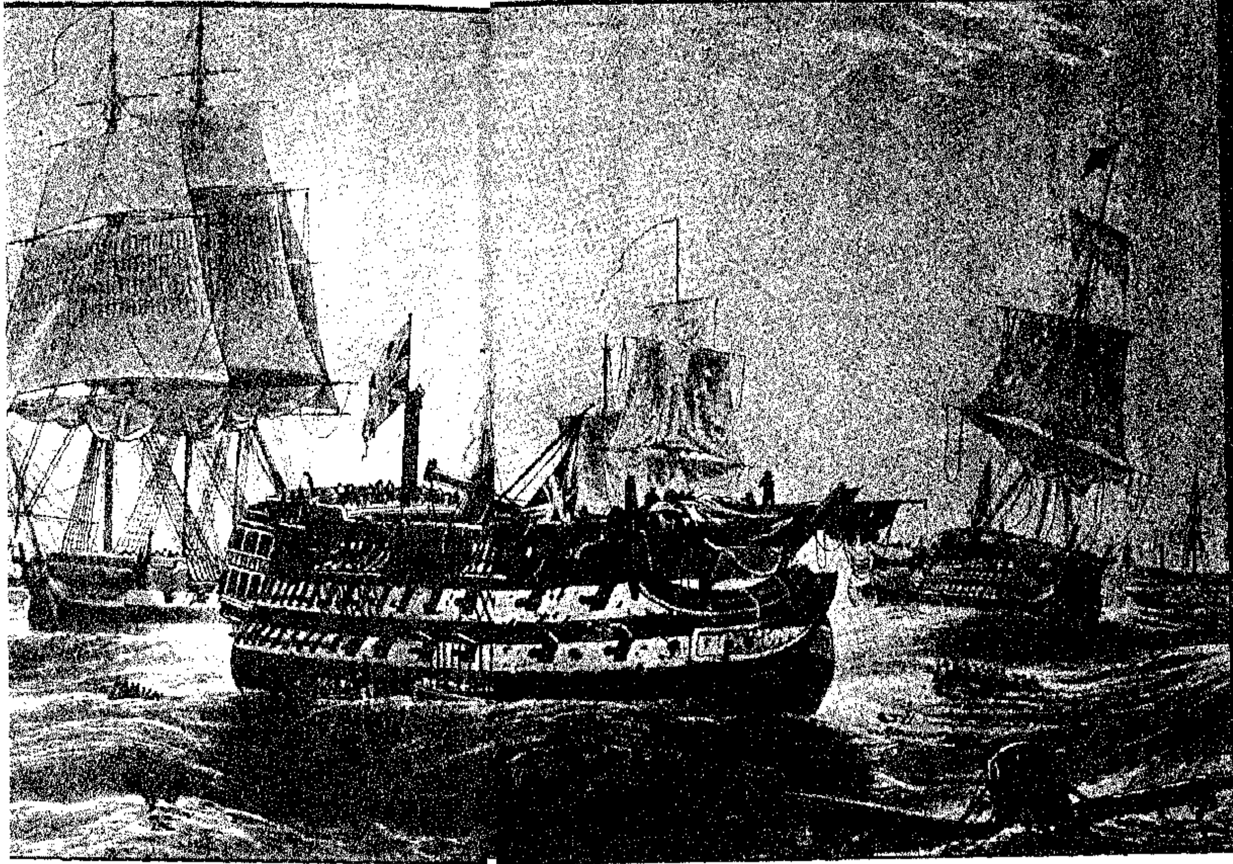
(٣) بوئه: أنزله.

(٤) الوعد في الخير والإبعاد عن الشر.

(٥) المشاراة: الملاحاة، أو لا يشارر من الشر

بنو بو علي

شذا عدرة



يكاد لا يخلو تاريخ شعب من الشعوب من ماثر تخلده وتحفظ له ذكراً طيباً يصبح مع الزمن بمثابة حافز يدفع صاحبه لبذل أقصى الجهد في سبيل تحقيق الأفضل لما فيه خير أبناء شعبه وأمته.

وما يتطلبه منّا واقعنا الحاضر، هو أن نتحرى حقيقة تلك المآثر وننفذ الى لبّها فنكتسب صفاتها ونحرز فضائلها ونتخذها نقطة انطلاق نحو الحياة الصحيحة الفاعلة التي تطمح دوماً نحو الأفضل.

وهذا ما نحاول القيام به من خلال استقصاء حقيقة مآثر شعب من شعوب أمتنا أغفلناه حتى كدنا لا نعلم عنه شيئاً، شعب «بني بو علي».

■ شذا عدرة

ماجستير في التاريخ ـ باحثة، نشرت لها مقالات ودراسات موضوعة ومترجمة في عدد من الدوريات العربية.

«بنو بوعلي قبيلة ذات أهمية كبيرة، بعض أفرادها بدو وبعضها حضر. ويسكن البدو منهم منطقة جعلان الشرقية ويمتلكون قطعاناً من الابل والماعز، كما يقومون بتربية الخيل. ويشتغل الحضر بزراعة النخيل والحبوب في بلاد واحة بني بوعلي، يسكن بنو بوعلي أيضاً في صور ورأس الرويس أي على الساحل الجنوبي الشرقي لعمان حيث يعمل هؤلاء بالملاحة وصيد الأسماك، وقد اعتنقوا المذهب الوهابي وتعصبوا له كثيراً وهم ذو شجاعة ومروءة ويمتازون بحدّة النظر».

«الموطن الرئيسي لبني بوعلي هو الغافري في منطقة جعلان بسلطنة عمان، وتقع على بعد ٤٠ ميلاً جنوب غربي صور وعلى بعد سبعة أميال جنوب شرقي هناوي عاصمة بلاد بني بوحسن، ويتكون السكان كلهم من قبيلة بني بوعلي.

وقد أصبح بنو بوعلي وهابيين منذ قدوم النجديين لعمان منذ قرن تقريباً، وظلوا كذلك حتى أواخر عام ١٨٤٥م، بل كانوا متعصبين للمبادىء الوهابية. ولكنهم بعد قليل خفّ عندهم هذا التعصب، واستأنفوا تدخين الطباق بعد أن حرّموه على أنفسهم. ومع ذلك فقد ظلوا محافظين على المبادىء الأخرى كالصلاة في أوقاتها، وقد قيل أنهم رغم حالتهم هذه الاّ أنهم ظلّوا أكثر قبائل أهل عمان تديناً. وهم ينتمون الى جماعة الوهابيين ويعرفون بالأزرقة».

نستخلص من هذين القولين لكل من «عائشة السيار» و«ج.ج. لوريمر» (J.J. Lorimer)، بأن تلك الجماعة العربية كانت تستوطن منطقة واسعة من اقليم جعلان، عرفت الاستقرار من خلال حياة الحضر التي عاشها أبناؤها فاشتغلوا بالزراعة وخاصة زراعة النخيل الذي امتلكوا منه أجود الأصناف وأحسنها وعلى امتداد مساحات شاسعة بالاضافة الى أنهم عرفوا البحر وحذقوا لغته. وهم أبناء صور ثاني مدينة بحرية في عمان وهي الموطن المستقر السكان. وكانت الاشخرة بمثابة عاصمة لبلادهم.

عرف بنو بوعلي الاستقلال منذ نعومة أظفارهم، وقد وصفهم المؤرخ الانجليزي أرنولد ويلسون في كتابه «الخليج الفارسي» (Persian Gulf) بالاستقلالية اذ يقول: «في سنة ١٨٢٠، اتهمت قبيلة بني بوعلي المستقلة، وشبه المحاربة بالتورط...» وهذا يعني أن بني بوعلي قد عرفوا الاستقلال منذ زمن طويل حتى أصبح صفة ملتصقة بهم، وبُعد بلادهم عن المراكز الرئيسية في الخليج العربي كان له دور مهم في ذلك. لذا نجدهم قد تعوّدوه ولم يعودوا يطيقون الخضوع لأية سلطة أجنبية. وهم تمتعوا باستقلالهم حتى في ظل حكم سلطان عمان الذي كان يمثله شكلياً والي ذلك المكان ومعه حامية عسكرية في مدينة صور. ولكن يبدو أنه عندما اتضحت معالم التبعية الفعلية لأحد حكام عمان وهو السلطان سعيد للغرباء الانجليز، وذلك لأنه لم يكن متمكناً من الأحوال الداخلية في سلطته

عند توليه السلطة في تموز سنة ١٨٠٦ م، فاتبع خطة تقوم على مبدأ الاحتماء باحدى الدول الأوروبية التي لها ممتلكات في المحيط الهندي، فاتجه أولاً الى الفرنسيين في موريشس ولكنه عاد فتحول الى الانجليز في بومباي. فازاء هذا الوضع الجديد، رفض أولئك القوم الخضوع لإرادة تلك القوة الأجنبية ولو بطريقة غير مباشرة فحملوا لواء التمرد والعصيان على السيد سعيد وبدأوا يشنون ضده وضد أعوانه الانجليز غارات بحرية وبرية معاً. وقد اتسمت هذه الغارات بالضراوة والشراسة بسبب تحمس بنو بوعلي لمذهبهم الوهابي الذي كان يدعو الى محاربة الأعداء في كل مكان، كما أنه أضفى طابع الجهاد المقدس على كل عمل حربي يشنّ ضدهم.

اتبع بنو بوعلي في محاربة أعدائهم الانجليز والعمانيين ما ألفوه من وسائل تقليدية شرعية لديهم ولدى غيرهم ممن جابوا بحارهم، كالتعرض لسفن خصومهم والسطو على بضائعهم. وهذا ما قام به رجال بني بوعلي عندما أسروا سفينة عند رأس الحد تابعة لأحد التجار الهنود من الذين كانوا يتاجرون تحت حماية شركة الهند الشرقية وكانت تحمل سلعاً من الأرز والتوابل والحديد قاصدة منطقة جعلان. وكأنهم بذلك قد أصابوا عصفورين بحجر واحد، فالسفينة هي انجليزية، والبضاعة هي لإمام عمان، وكلاهما يعتبرهما بنو بوعلي في حالة حرب معهم.

تداول أحد القواد الانجليز المدعو كابتن بروس هذا الأمر مع السيد سعيد الذي أضاف وأكّد على ان بني بوعلي متورطون فعلاً في أعمال القرصنة(*)، وأنهم قد استولوا على ثلاثة مراكب تابعة لمسقط، لكن لم يشأ الانجليز في بداية الأمر التورط في أمر يجهلون عواقبه نتيجة جهلهم لواقع أمور قوم كبني بو علي وانطلاقاً من مبدأ زعموه وهو عدم التدخل في الشؤون


السيد سعيد بن سلطان

الداخلية للولايات العربية، لذا رفضوا في البدء الاشتراك مع السيد سعيد في الاعداد لحملة ضدهم واكتفوا بأن أرسل مسؤولهم الأول في تلك المنطقة الكابتن طومبسون رسالة الى زعماء بني بوعلي الثلاثة سليم بن علي ــ محمد بن علي وعلي بن أحمد يعلمهم فيها امتعاض حكومته من تصرفهم ويطلب منهم اعادة المراكب والغنائم التي استولوا عليها وأن يرسلوا مندوباً عنهم ليجتمع به في قشم مركزه الرئيسي.

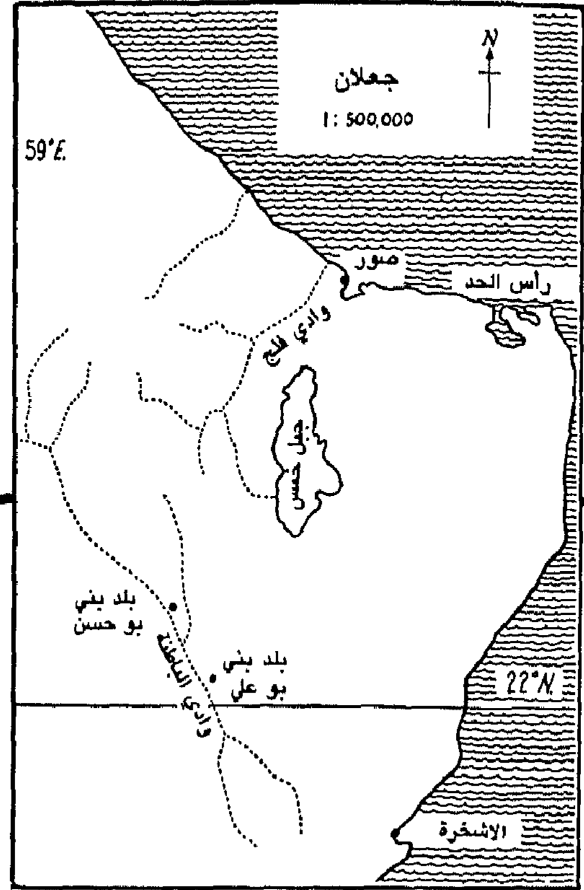
حمل مرشد عربي من مسقط تلك الرسالة وحاول ابلاغها لبني بوعلي، وكان الانجليز قد استعانوا به ليرشدهم على موقع الأشخرة ــ وليكون الوسيط بينهم وبين تلك القبيلة العربية. ولكنه لقي مصرعه على يد فرسانها الذين اعتبروه متواطئاً مع الأعداء متحالفاً معهم فلم يرحموه.

على أثر هذه البعثة الفاشلة، أعطت حكومة بومباي أوامرها للكابتن طومبسون للاشتراك فعلياً مع السيد سعيد مع الإعداد لحملة ضد بني بوعلي وكسر شوكتهم، ولكن مع كثير من التحفظ في ابقاء جنود الكتيبة الانجليزية على الشاطىء دون التوغل الى داخل البلاد.

استغرق الاعداد لتلك الحملة المشتركة حتى وصولها الى المنطقة المنشودة ــ منطقة

(*) كان الانجليز قد نجحوا في حمل مؤتمر فيينا الذي عقد في التاسع من حزيران عام ١٨١٥، على اتخاذ قرار بمكافحة القرصنة في مختلف بحار العالم لتضمن بذلك مكافحتها في الخليج العربي، وانتدبت نفسها لتكون حامية حمى التجارة الدولية في تلك المنطقة.

ومما يجدر التنويه به هو ان مؤتمر فيينا، قد أفسح المجال أمام بريطانيا لكي تمارس مهمة بوليس البحار، المهمة التى طالما ابتغتها لكى تحقق من ورائها السيادة والهيمنة على بقية الدول الاوروبية.




الكابتن
بيرونيت
طومبسون

جعلان — مدة طويلة ناهزت الشهر أو أكثر، والسبب في ذلك يعود الى شدة حرص الفريقين الانجليزي والعماني على تجهيزها تجهيزاً كاملاً عدّة وعدداً. وبعد أن تمركزت الحملة في المواقع المحددة لها، ارتأى كل من السيد سعيد والقائد طومبسون اصدار بلاغ يوجهانه الى زعيم بني بوعلي يدعوانه فيه الى تسليم مواقعه وأسلحته وقتلة المبعوث الانجليزي.

جاء رد الشيخ في الليلة ذاتها، وقد وافق على تسليم الحصون الى السيد سعيد، «لأنه لا يرغب أن يكون في حرب مع الانجليز» الّا انه لم يوافق على تسليم القتلة أو الأسلحة، لأنه كان على يقين بأن سعيداً سيسلمهم كسجناء الى الانجليز. بالاضافة الى أن سلاح العربي في شبه جزيرة العرب عامة، وفي منطقة الخليج خاصة، يشكل عنصراً هاماً من عناصر شخصيته وهو عادة يكون سلاحاً أبيض، سيفاً أو خنجراً.

امتلأ صدر طومبسون بالحقد والكراهية على بني بوعلي، فحث السيد سعيد على المضي في استعداداته الحربية ضدهم غير مدرك لأهميتهم أو واعياً لمدى قدرتهم العسكرية. بل جلّ ما هنالك بأن غروره الانجليزي الواهي قد أعماه عن ادراك ذلك. فحاول استناد الى «مويس بارتليت» (Moyse Bartlett) أحد البحاثة الانجليز أن يبرهن ذاتيته من خلال فرض استسلام كلي على بني بوعلي فوقع في خطأ كبير جرّه فيما بعد الى ارتكاب سلسلة من الأخطاء، قادته جميعاً الى المثول أمام محكمة عسكرية في بومباي ليدافع أمامها عن نفسه، ولكن دون جدوى اذ جرّدته من جميع صلاحياته التي كانت تخوله التدخل في شؤون الخليج.

توجهت الحملة الانجليزية العمانية في ٩ تشرين الثاني سنة ١٨٢٠ باعداد كبيرة الى احياء بني بو علي على خمسين ميلاً من مدينة صور والتحمت مع فوارسهم في حرب برية انتهت بانتصار بني بو علي وبانزال هزيمة بالجنود العمانيين والانجليز الذين لاذ قسم كبير منهم بالفرار بعد أن شاهدوا بأم أعينهم المصير الأسود الذي لقيه كثير من أخوانهم.

لهذا لم يجد طومبسون قائد الحملة الانجليزية بدّاً من التراجع وجمع أشتات جيشه المنهزم الذي ملأت أشلاء أكثر من ثلثي جنده أحياء بلدة بني بوعلي والانسحاب به الى مكان آمن، خاصة بعد ان تخلى عنه اثنان من قواده — القائد مورلي والقائد جيدلي — حيث تركاه عائدين الى صور مع ماتبقى من كتيبتهما. هذا مع العلم، أن القانون العسكري الانجليزي متشدد وصارم في عقابه حيال تلك الأمور وقد

استدعي كل من مورلي وجيدلي فيما بعد الى بومباي، بناء على شكوى قدمها القائد طومبسون الى حكومة بومباي.

والجدير بالذكر ان بني بوعلي هم القبيلة الوحيدة في سلطنة عمان التي خاضت حرباً برية على أرضها ضد قوة بريطانية. وهذا ان دلّ على شيء فانما يدل على ان هؤلاء القوم لم يدّخروا وسيلة الاّ واتبعوها في محاربة أعدائهم واستبسلوا من أجل الحفاظ على أرضهم واستقلالهم واعلاء شأن مبدأ آمنوا به.

ويستطيع كل من يطّلع على رسائل طومبسون الى زوجته نانسي، ان يستخلص الكثير من عبر تلك المعركة وأن تصبح لديه فكرة واضحة عن الحالة المزرية التي وصل اليها الجيش الانجليزي والعماني حتى ان طومبسون والسيد سعيد على استناداً الى المؤرخ الانكليزي «ج.ج لوريمر» (J.J. Lorimer) كانا محظوظين اذ استطاعا النجاة بنفسيهما. والرسائل لم تكن عادية، بل أشبه بالوثائق لما احتوته من وصف دقيق لأحوال الفريقين أبان المعركة، ولما حملته من لواعج نفسه التي اعتراها الكثير من الألم والمرارة نتيجة تخاذل قواده وجنوده.

١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٢٠

«عزيزتي نانسي

واجهت هذه الحملة أشد المحن صعوبة... فعندما سمعت أول طلقة أطلقها جنود الكشافة تعلمنا بتحرك العرب، أعطيت أوامري للسبّاهيين (الهنود المجندين في الجيش الانجليزي) بامتشاق الحراب، ولكن لم يتحرك أحد منهم. عندئذ أمرتهم باطلاق النار فأخذوا يطلقونها بطريقة عشوائية في حين أن العرب كانوا يتقدمون بسرعة ملوحين بسيوفهم.

ظل السبّاهيون واقفين في أماكنهم حتى أصبح العرب على مقربة خمسة عشر ياردة منهم، حينئذ لاذوا بالفرار. وقد حاولت تدارك الأمر وايقاف الفارين ولكن دون جدوى. توجهت الى الإمام فوجدته جريحاً الناس تتراكض هاربة كالخراف، وقد رأيت بينهم بعض الأوروبيين من رجال المدفعية، فسعيت اليهم لاثنيهم عن ذلك ولكنهم كانوا من القلة بحيث أنهم لم يستطيعوا تأدية أي عمل.

ازاء هذا الوضع، رأيت كل شيء يضيع من أمامي... فخرجت وستون من رجالي في محاولة للقيام بأي عمل ذي فائدة، تقدمت نحو ميل من الغاب فرأيت قوات العدو تتقدم لتحيط بجناحي قواتنا لتقطع بذلك علينا طريق المدينة، لقد لقيت صعوبة بالغة في العودة. اني خائف من أن يكون كثيرون قد فقدوا.. والإمام يتحدث الآن عن العودة الى قشم ومنها الى مسقط في حال احتلت مسالك نجد... لقد وعد بتزويدنا بالجمال لحمل مرضانا والسبّاهيين. والحقيقة هي ان هؤلاء السبّاهيين المتغطرسين ليسوا أهلاً لمجابهة السيوف العربية. ولكن ما علينا الا أن نحاول.

أسألك أن تحافظي على هدوء نفسك وأن تثقي بالعناية الالهية التي تحيط بنا جميعاً...

المخلص لك دائماً

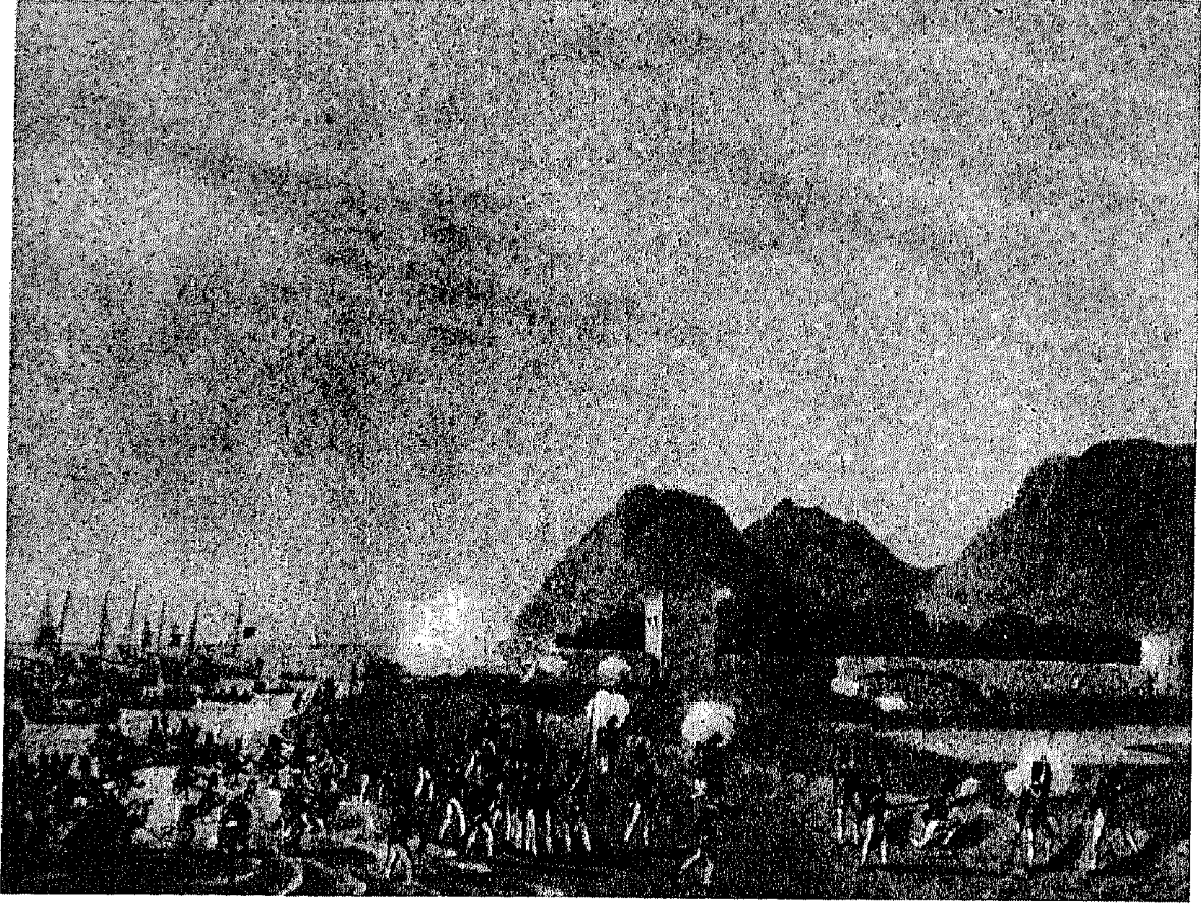
ت.ب. طومبسون»

وقد كتب طومبسون مرة أخرى الى زوجته بعد حوالي أسبوع من بدء المعركة، يطلب منها ان ترسل له سترته الزرقاء وآلة الحلاقة وقطعة من الصابون، وعاد الى ذكر أولئك الجنود السبّاهيين بكثير من الامتعاض والاشمئزاز حيث قال «أولئك الذين ولّوا هاربين قبل أن يصابوا بأي أذى وعلى بعد عشرين ياردة فقط من العدو»، كما أتى ذكر كل من القائدين مورلي وجيدلي، اذ تساءل بأي وجه سيلقيانه؟

وأخيراً ختم رسالته بحكمة يائسة استخلصها من احساس عميق باليأس والاستسلام:

«نحن نلعب اللعبة، لكن السماء هي التي توزع الأدوار»، ان هذا القول الأخير، انما يدل على الوضع اليائس الذي وصل اليه طومبسون، فالغطرسة عنده أصبحت ذلاّ، والغرور أصبح استسلاماً.

نلاحظ أول ما نلاحظ من خلال هذه الرسائل، أن المدة التي كتبت فيها كانت متقاربة جداً، مما يعني أن الأحداث كانت تتسارع جداً ولغير صالح الانجليز، الأمر الذي كان يشحن



القوات الانجليزية تتوغل في اراضي بنو بو علي العربية.

نفس طومبسون بالانفعالات الكئيبة والمؤلمة معاً، فتدفع به الى الكتابة وبشكل مستفيض ليفجّر من خلالها ما يعتمر في نفسه من آلام.

فالرسالة الأولى أرّخت في العاشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، والحملة كانت قد وصلت في التاسع منه، مما يدل على ان معظم أحداث المعركة الرئيسية قد وقع خلال يوم واحد. فالهنود المجندون في الجيش الانجليزي ولّوا هاربين قبل أن يشتركوا فعلياً في المعركة ــ قائدان انجليزيان عادا أدراجهما الى صور مع ما تبقى من كتيبتهما ــ هذا عدا عن الذين لاقوا حتفهم في أرض المعركة.

تدل هذه الأمور على الروح المعنوية المتدنية التي كانت تسود أفراد الجيش الانجليزي وهذا أمر طبيعي، اذ قدموا أرضاً يجهلون طبيعتها وقوماً لم يسمعوا الا عن قوتهم وشدة بأسهم، بالاضافة على أنه لم تكن لديهم تلك القضية النبيلة التي تستلزم تقديم أرواحهم من أجلها، خاصة وأنهم هم الهنود الأغراب عن قوادهم الانجليز وبذلك لا ناقة لهم ولا جمل من وراء تلك العملية.

ونجد هؤلاء على طرفي نقيض مع فوارس بني بوعلي الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية تبيّناها من خلال ما قاله طومبسون عنهم بأنهم منذ بداية المعركة كانوا يتقدمون وهم شاهرين سيوفهم في وجه أعدائهم، وهذا يدلّ أيضاً على مدى شجاعتهم التي أكد عليها أيضاً القائد الانجليزي من خلال قوله: «الحقيقة هي بأن أولئك السبّاهيين المتغطرسين ليسوا أهلاً لمجابهة سيوف العرب».

وأما الأمر الأساسي الذي يبدو أنه ساعد عرب بني بوعلي على احراز ذلك النصر الباهر فهو قضية سيادتهم على أرضهم التي ائتمنوا عليها السيد سعيد، فلم يحفظ الأمانة بسبب خضوعه للسيادة الانجليزية، يأتمر بأمرها ويحافظ على ودّها، وبالتالي يحفظ مصالحه معها.



أحد الجنود الانجليز بكامل سلاحه.

فهو كان يفكر بعقلية التاجر وليس بعقلية السلطان لأنه حسب قوله: «اني تاجر قبل أن أكون سلطاناً».

الى جانب ذلك فان بني بوعلي كانوا قد انتقوا المذهب الوهابي وتعصبوا له، هذا المذهب الذي أضفى «صفة الجهاد» على كل عمل ينفذ ضد الأعداء.

أما الرسالة الأخرى فقد أرّخت في السادس عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أي بعد أسبوع من بدء المعركة، حيث أظهرت لنا انتهاءها ومدى الآلام النفسية التي كان طومبسون يعانيها، فقد كانت أعمق من أن يداويها الزمن الذي غدر به ووجّه اليه صفعات أليمة ترجمها بقوله فيما بعد، وعند أول لقاء له مع زوجته في مسقط. «لقد قطعوا رأسي تقريباً».

هذه الكلمات التي أدخلت الهلع والفزع الى قلب طفله صاحب الخمس سنوات آنذاك، والذي أدرك بأن خطراً عظيماً يحدق بوالده. وقد صحّ ادراكه اذ عزلت فيما بعد، حكومة بومباي الكابتن طومبسون من منصبه، بعد أن وجهت اليه:

ـ تهمة الاشتراك في حرب برية ضد بني بوعلي وداخل أراضيهم، وهذا ما اعتبرته يتعارض وتعليمات القائد الأعلى الجنرال ويليام غرانت كير، وبالتالي قد عرّض سلامة القوات الانجليزية للخطر.

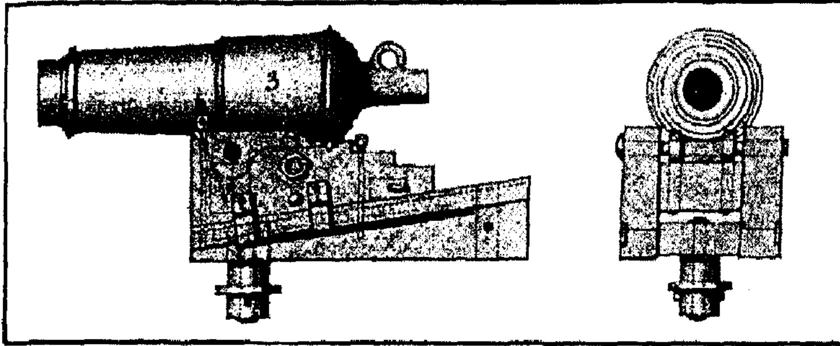
ـ وتهمة الخروج عن سياسة الحكومة البريطانية التي كانت تنص على عدم التدخل في شؤون الولايات العربية، قد فعل ذلك من أجل ارضاء إمام عمان الذي كان قد وعده بالمساعدة العسكرية ضد بني بوعلي.

ـ وتهمة فشل سياسته في الخليج التي لا تتلاءم على حد قولهم وسياسة بريطانيا ازاء محاربة القرصنة في الخليج العربي.

لذا، ازاء فشله العسكري والسياسي، وازاء تعريض سمعة القوات الانجليزية للخطر وتوريطها في معارك فاشلة، أخضعه حاكم بومباي لمحاكمة عسكرية جرّدته من جميع صلاحياته التي لها صلة بشؤون الخليج العربي.

وهكذا انتهت علاقة طومبسون بالخليج العربي، ولكن لا يعني هذا انتهاء علاقة الانجليز بأبناء الخليج. اذ شعرت بريطانيا باهانة عظمى من جرّاء انتصار بني بوعلي على جيشها ووجدت أنه من الضروري استعادة هيبتها وردّ الصاع صاعين لتلك القبيلة العربية. لذلك جدّدت ارسال حملة كبيرة الى صور غاضّة بذلك الطرف تماماً عن زعمها القائل بعدم التدخل في الشؤون الداخلية العربية. ولكن ذلك الوضع المستجد كشف النقاب تماماً عن حقيقة بريطانيا وساستها، وهي أنهم أصحاب مصالح وليسوا أصحاب مبادىء. ومما يؤكد هذه الحقيقة، هو موقفها من مسألة واحات البريمي الواقعة شمال غرب سلطنة عمان، اذ كانت مسألة مشابهة لقضية بني بوعلي من حيث أنها محاولة أخرى لخروج جزء من البلاد العمانية عن سلطة الإمام سعيد الذي وجّه في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٢٣، خطاباً الى حكومة بومباي يستنجد بحلفائه الانجليز، ولكن بما ان هذه المسألة لا تتصل بمصالح بريطانيا فقد غضّت الطرف عن رعاية مصلحة حليفها السيد سعيد.

مدفع متحرك يؤكد في تقنيته المتطورة عدم التكافؤ بين السلاحين الانكليزي والعربي



وهكذا يتضح لنا وضوحاً تاماً، أن الانجليز هم أصحاب مصالح وليسوا أصحاب مبادىء. وانطلاقاً من هذا المفهوم شرع الانجليز في الاعداد لحملتهم المقبلة على بني بوعلي.

وقع اختيار حكومة بومباي على الجنرال ليونيل سميث صاحب الخبرة القتالية الطويلة في ميادين معارك الخليج، كمشاركته في حملة ١٨٠٩ الانجليزية ضد القواسم في رأس الخيمة، وكإشرافه على سقوط قاعدة موريشس الفرنسية سنة ١٨١٠. وغير ذلك من الحملات. أختير لقيادة حملة ضد بني بوعلي، كانت هائلة العدد والعّدة بمقاييس ذلك الزمن.

تألفت تلك الحملة من حوالي ١٣٠٠ جندي بريطاني من مدفعية بومباي والفرقة ٦٥ التابعة لصاحب الجلالة، والفرقة الأوروبية في الهند، بالاضافة الى أكثر من ١٥٠٠ جندي هندي.

انتقل هؤلاء جميعاً من بومباي في العاشر من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٢١م. ضمن قوافل بحرية تصحبهم أيضاً قافلة من احدى عشرة سفينة تحمل أعداداً كبيرة من الأحصنة.

وصلت هذه الحملة في نهاية ذلك الشهر الى صور، وتناهى الى سمع بني بوعلي أمر وصولها ولم يخف عليهم غايتها وهدفها، فجمعوا لها أشد رجالهم بأساً وتركوا حصنهم في الثامن من شهر شباط (فبراير) بقيادة زعيمهم الشيخ محمد بن علي وأخيه كاظم الذي ترأس الحملة السابقة ضد طمبسون وجنده، وتوجهوا جميعاً الى حيث نزلت الحملة.

وفي ليل العاشر من ذلك الشهر، باغت أولئك الفوارس فيالق الحملة فقتلوا منهم الكثير وقضوا على بعض قوادهم المهمين كالكابتن شارلز بار، كما أصيب عدد آخر بجروح، بعض منها كان خطراً.

أما خسائر الجانب العربي فلم تتناول الا القليل من القتلى والجرحى، ولكن كان من بين الجرحى الشيخ محمد الذي أصيب برصاصة في ذراعه.

كان ذلك الهجوم الليلي الصاعق تكملة لاندحار الانجليز ودرساً صعباً لقوتهم ولقائدهم سميث الذي ابتدأ بعد ذلك يتخذ تدابير وقائية مشددة ضد أي احتمال لهجوم مفاجىء.. وأخذ يعد العدة لشن هجوم معاكس على بلدة بني بوعلي.

وفي صباح الثاني من آذار (مارس) عام ١٨٢١، استأنف سميث زحفه نحو مقر البلدة حيث دارت معركة رهيبة في نفس مكان المعركة السابقة أسفرت عن مجزرة بربرية ارتكبها الجنود الأوروبيون بحق قبيلة بني بوعلي، اذ عمدوا الى التخريب والتقتيل دون تمييز ولم ينج منهم الا من فرّ. أما السيد سعيد فلم يشترك شخصياً في هذه الحملة بسبب جرحه البليغ من المعركة الاولى. غير أنه أمدّ الحملة ببعض المدافع الثقيلة بناء على طلب تلقاه من سميث. لهذا أورثت هذه الحملة قوم بني بوعلي بغضاً شديداً للانجليز عبّروا عنه فيما بعد بالتقارب من الفرنسيين.

استبسل بني بوعلي استبسالاً عظيماً وأظهروا من ضروب الشجاعة ما أذهل أعداءهم وجعلهم يبالغون في وصفهم ووصف سيوفهم القاطعة التي لاترتد خائبة، وهذا ويلستد الرحالة الانجليزي يصف سيوفهم بقوله: «يبلغ طول سيفهم ثلاثة أقدام، مستقيم، رفيع، ذو حدين وقاطع كموسى الحلاقة».

تقدم عند انتهاء المعركة بعض الضباط الانجليز من رجال بني بوعلي لنزع سلاحهم،

فما كان من زعيمهم محمد بن علي الّا ان تقدم قومه ليسلم سيفه بينما كان شقيقه كاظم يرقد جانباً جريحاً يعاني من آلام مبرحة.

ومما يجدر ذكره أن نساء بني بوعلي لم يظهرن أي نوع من الأسى أو الحزن، وكذلك رجالهم الذين اعتبروا أن هذه هي مشيئة الله فتقبلوها بكل رضى واطمئنان، وتوجهوا عند المغيب لتأدية صلاتهم كالمعتاد بكل تواضع وخشوع غير حافلين بكل الخراب المحيط بهم.

ان ما قام به بنو بوعلي من أعمال حربية وغير حربية، انما كانت انطلاقاً من ايمانهم الراسخ بعدالة قضيتهم، قضية بلدهم ووجوب استقلاله عن النفوذ الأجنبي الغريب والذي لم يأبه له السيد سعيد قليلاً أو كثيراً. هذا الايمان الذي توافق أيضاً مع ايمانهم الديني القومي والذي كان يدعوهم الى الجهاد ضد الأعداء.

فهم عندما ذاقوا طعم الهزيمة ظلّوا منتصرين معنوياً، الأمر الذي أدركه الانجليز وأعوانهم العمانيون، فأخاف الأولين، لذا عملوا على تدمير الأشخرة وبلد بني بوعلي تدميراً كاملاً، مع تدمير جميع قلاعهم ومخازن اسلحتهم واسترداد جميع مدافع طومبسون التي كانوا قد استولوا عليها.

وأيقظ الآخرين على حقيقة واقع بني بوعلي وقوتهم التي يستطيعون استردادها كاملة عدة وعدداً خلال مدة قصيرة طالما أن معنوياتهم لازالت مرتفعة جداً بالرغم من كل الأضرار التي لحقت بهم، لذلك عمدوا الى تفريقهم وتشتيت شملهم عن طريق رفض السيد سعيد استقبال رجالهم ما عدا الجرحى الشديدي الاصابة والشيوخ والأطفال، وحثّه للجنرال سميث على حمل ما تبقى منهم عبر البحار. وقد نزل هذا الأخير عند رغبة الإمام وأرسلهم الى بومباي.

يتبين لنا من خلال هذا التتبع الكامل لسير معركة ٢ آذار (مارس) من عام ١٨٢١، أن قوم بني بوعلي عملوا على استرداد حقهم في الاستقلال عن دولة ربطت مصالحها بمصالح دولة غريبة عنهم في العرق واللغة، وبعيدة عنهم في الموقع والزمن.

وقد ارتدت أعمالهم في سبيل ذلك طابعاً حربياً ضد تلك الدولة وحليفتها الأجنبية. ولم يكن ذلك الطابع الحربي طابعاً قرصنياً كما شاء البعض تسميته، لأن جميع تلك الأعمال الحربية، انما كانت تتم تحت شعار الجهاد المقدس ضد العدو والذي كان قد رفعه أصحاب المذهب الوهابي وقد اعتنقه بنو بوعلي أكثر أهل عمان تديناً وتعصبوا له وتشدّدوا في تطبيق قوانينه كتحريم تدخين الطباق على أنفسهم وتأدية الصلاة في أوقاتها، فقوم كهؤلاء يحرصون هذا الحرص على تطبيق تلك الأمور لابدّ وأنهم قد حرصوا أشد الحرص على تطبيق الأمر الأساسي وهو تأدية الخمس من الغنائم التي يحصلون عليها الى رئيس الدولة، لأنه حسب المفهوم الوهابي، كانت تلك الغنائم تعد غنائم حرب وليست أسلاباً، لذا وجب تأدية خمسها الى الحاكم الشرعي، وذلك حسب ما تقضي به الشريعة الإسلامية في أحوال الجهاد. وأما حسب ما يقضي به المفهوم العام للحروب الرسمية، الذي يقول أنه تم الاستيلاء على السفن لحساب دولة فذلك يكون من امور الحرب المتعارف عليها وبما ان الدولة السعودية كانت تشارك بنسبة عالية من الأرباح والغنائم التي كان يجنيها بنو بو علي من حروبهم البحرية ضد الأعداء، فمن الممكن اعتبار تلك العمليات الحربية البحرية من أمور الحرب المتعارف عليها دولياً، أي من الحروب الرسمية.

وتجدر الاشارة ان شعب بني بوعلي، بما تمتعوا به من استقرار في الموطن واستقلال في السيادة حتى وهم في ظل شبه حماية من دولة عربية أخرى، وحرصهم على ابقاء سيادتهم بعيداً عن النفوذ الأجنبي الغربي، بالامكان اعتبارهم أنهم كانوا نواة صالحة وجيدة لتكوين دولة صغيرة قوية لها سطوتها وهيبتها التي تستطيع أن تفرضها على كل الدول العدوة منها قبل الصديقة. ■

عن رسالة للماجستير في التاريخ، نوقشت في كلية الآداب / الجامعة اللبنانية / سنة ١٩٨١.

محضر محاكمة امرأة مغربيّة في محكمة التفتيش الدّينية البُرتغاليّة (١٥٥٩م)

ترجمة وتعليق أحمد بوشرب



تقديم الوثيقة:

تتعلق هذه الوثيقة التي عثرت عليها بدار الوثائق الوطنية البرتغالية (Arquivo Nacional da Torre do Tombo) والتي ترجمتها عن اللغة البرتغالية القديمة كمحضر من محاضر محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. وهي مرتبة ضمن محاضر محكمة تفتيش يابرة (Evora) تحت الرقم التالي: (Inquisicâo de E'vora, M^{co} 74 No 6868) وتسجل هذه الوثيقة مراحل اعتقال ومحاكمة امرأة مغربية عجوز من دكالة عاشت بالبرتغال مايفوق اثنتين وعشرين سنة. وكانت التهمة الموجهة إليها هي الرجوع إلى الدين الإسلامي والقيام بشعائر وطقوس إسلامية. وتم اعتقال (آنة دوميلو) التي لم تذكر اسمها الأصلي رغم أنه طلب منها ذلك في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة ١٥٥٩، وشرع في محاكمتها في اليوم الثاني والعشرين من نفس الشهر. وتم النطق بالحكم بالسجن في ٢٤ أبريل من سنة ١٥٦٠، أي بعد سنة من المحاكمة والاعتقال.

ويحتوي الأرشيف البرتغالي على عدد كبير من المحاضر المتعلقة بمحاكمات عدد مهم من

المغاربة الذين أرغمتهم المجاعات والفتن التي تلت احتلال البرتغاليين لعدد من الموانيء المغربية على الالتحاق بالبرتغال والاقامة فيه، اما عن طواعية، بعد أن أوهموا أنه بامكانهم ضمان قوتهم هناك، أو بعد أن تم أسرهم أو اختطافهم أو بيعهم خلال المجاعات، وخصوصاً خلال مجاعة ١٥٢٠ الكبرى. ومعلوم أن الجوع أرغم المغربي خلال تلك المجاعة على بيع أبنائه قبل بيع نفسه. ولقد كان العرض كبيراً إلى حد أنه لم يعد أي شيء أرخص من الإنسان...[١] وإذا كانت المصادر البرتغالية قد تركت لنا صورة عن عمليات البيع قد تدعو إلى الشك[٢] فان تصريحات هؤلاء المغاربة أمام محاكم التفتيش تؤكد وصول جلهم إلى البرتغال ما بين ١٥٢٠ ــ ١٥٢١.

ومن محاضر محكمة تفتيش يابرة وصلنا ٧٩ محضراً تتعلق باعتقال ومحاكمة مغاربة كانوا مقيمين بالبرتغال بدعوى اعتناقهم لدينهم الأصلي. والاستمرار في العيش حسب العادات والتقاليد المغربية ورغم أن محاضر محكمة لشبونة لم تحص بعد، فان تحرياتي الأولى أعطت عدداً يفوق بكثير عدد محاضر محكمة يابرة. ومن بين محاضر محكمة لشبونة عدد من محاضر محاكمة بعض المجاهدين البحريين المغاربة الذين تم القاء القبض عليهم خلال غاراتهم على السفن والسواحل البرتغالية.

وترتبط محاكمة هؤلاء المغاربة بانشاء محاكم التفتيش الدينية بالبرتغال قصد محاربة البدع والردة والمعتقدات التي تتناف وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية. وكان قرار إحداث تلك المحاكم مرتبطاً بتزايد التعصب الديني وتنبيه من طرف الحكام لتسخيره لأغراض سياسية[٣]. فمن المعلوم أن البرتغال عرف خلال حروب الاسترداد وبعدها تعايش الديانات الثلاث، وتبنى ملوك البرتغال باستمرار سياسة متسامحة الى حد ما، وعملوا على استمرار اقامة اليهود والمسلمين ببلادهم نظراً للدور الاقتصادي المهم الذي كانوا يلعبونه. وبذلك تم الاعتراف لغير النصارى بحرية التدين وان فرضت عليهم بعض الشروط القاسية كالاقامة في أحياء خاصة، والحيلولة دون اتصالهم بالنصارى واداء ضرائب متنوعة وثقيلة[٤] وكان من المسلمين من أصبح من أقرب المقربين للملوك البرتغال[٥].

وكان هذا التسامح مناقضاً لسياسة ملكي اسبانيا، «فردنان وأزبيلا» التي امتازت بالتعصب الديني ومطاردة المسلمين واليهود، وانشاء محاكم التفتيش الدينية منذ سنة ١٤٧٨ واحراق مئات المسلمين واليهود[٦].

وتخلى حكام لشبونة عن سياسة الملوك السابقين منذ بداية القرن السادس عشر، وذلك قصد تحقيق أهداف شخصية. فلقد أدى طمع الملك (أمنويل، ١٤٩٥ ــ ١٥٢١) في اسبانيا وامبراطوريتها الشاسعة من خلال مصاهرة «الملكين الكاثوليكيين» أن رضخ لضغوط اسبانيا وفرض سنة ١٤٩٦ على اليهود والمسلمين اما التنصر أو مغادرة البلاد.

وخوفاً من انتقام إسلامي، كانت معاملته وشروطه المفروضة على المسلمين أخف بكثير مما فرضه على اليهود من شروط قصد تنصيرهم والاحتفاظ بهم بالبرتغال. وهكذا تمكن جل مسلمي البرتغال من الالتحاق ببلاد الإسلام[٧].

ولهذا كان عدد من حوكم بالبرتغال بسبب تمسكه بالدين اليهودي اكثر بكثير ممن حوكم لكونه مسلماً، كما انه لا يوجد ولا محضر واحد يتعلق بمسلم من مسلمي البرتغال، فكل المحاضر تتعلق بمسلمين تم جلبهم الى البرتغال كعبيد، اما من المغرب، او من غرب افريقيا، (منطقة موريطانية الحالية) او من تركيا والهند.

وبتخلي (امنويل) عن سياسة التسامح الديني السابق الذكر، بدأ يعمل على الحصول من البابوية على اذن بإنشاء محاكم تفتيش دينية.

ولكن البابوية التي لم تكن تنظر بعين الرضى لما يجري باسبانيا، رفضت حتى الرد على خطاب الملك. ولم يعد (امنويل) ثانية الى الموضوع.

وكان ابنه وخلفه (جوا الثالث ١٥٢١ ــ ١٥٥٧) متزمتاً وشديد العداء لليهود[٨].

ولهذا الح في الطلب على البابوية، ولم يتردد عن الكذب والرشوة للوصول الى هدفه.

ورغم انه حصل على قرار بابوي مؤرخ في ١٧ ديسمبر/١٥٣١ يسمح له بإنشاء محاكم تفتيش دينية لمعاقبة اليهود المتنصرين الذين تأكدت ردتهم الى دينهم الاصلي، والمسيحيين المعتنقين الديانة اليهودية او الثائرين ضد الكنيسة الكاثوليكية، فانه لم يحصل على موافقة البابا على انشاء محاكم على الشكل الذي يريده ودون اشراف البابوية المباشر عليها الا سنة ١٥٣٦ بعد صدور القرار المؤرخ في ٢٥ ماي.

وهكذا شرعت محكمة تفتيش يابرة في أعمالها منذ سنة ١٥٣٦ في حين افتتحت محكمة لشبونة في السنة التالية. وتقرر في بداية الأمر انشاء محاكم في عدد مهم من مدن البلاد، ولكنه لم يحتفظ في نهاية الامر الا بثلاثة فقط: محكمة يابرة، ومحكمة لشبونة، واخيرا محكمة (كوينبرا — Coimbra) التي لم تعمر طويلا. واستمر العمل بمحاكم التفتيش الى سنة ١٨٢١.

وكان يشرف على محاكم التفتيش الدينية البرتغالية في بداية الامر اسقف سبتة الذي سرعان ما استقال بسبب غلو القضاة وبشاعة الطرق المستعملة من طرف الحكومة وقساوة الاحكام الصادرة عنها(٩).

واستغل الملك هذه الاستقالة لتعيين اخيه (دون هنري) في منصب المفتش الاول، وذلك رغم انه لم يكن حائز على شرط السن الضرورية.

وكان المفتش الاول يعين قضاة للنيابة عنه في رئاسة الجلسات، وللدفاع عن مصلحة محكمة التفتيش وضمان معاقبة المحالين عليها كان يعين «محام مراقب» كانت مهمته شبيهة بمهمة وكيل النيابة.

وكان حق المتهم الالتجاء الى محام لاثبات براءته، ولكن هذا الالتجاء الى المحامي لا يكون عمليا الا في حالة ما اذا اعتبرت المحكمة اعترافات المتهم غير كافية، وسمحت «للمحامي المراقب» بالمرافعة. وكانت المحكمة هي التي تعين المحامي، الذي كان دوره يقتصر احيانا على حث المتهم على الاعتراف.

ولمعاقبة من كانت تصرفاته او معتقداته مخالفة لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية، اعتمدت محاكم التفتيش اعتمادا كبيرا على التبليغات.

ولتسهيلها حددت اعتمادا على «ملصقات الايمان»(EditalDafé) التي كانت تلصق مرة في السنة عند مدخل المعابد والاديرة، حددت الخطايا الواجب التبليغ بها. والزم الكل بالتبليغ وهدد من امتنع عن ذلك بطرده من الجماعة (Excommunication) وبالتالي تكفيره، وكانت لائحة الخطايا طويلة، وجلها قابل لأن يرتكب حتى من لدن اكثر الناس تمسكا بتعاليم الكنيسة، كارتداء اقمصة نظيفة يوم الجمعة او السبت، وكالقيام بعمل ما يوم الاحد، وكتنظيف البيت يوم الجمعة، وكره لحم الخنزير او تناول بعض الاطعمة كالكسكس و«الفتات» وكاستعمال مائدة قصيرة الأرجل... الخ!

واستطاعت الكنيسة تحويل كل البرتغاليين الى متجسسين على بعضهم، «من الان فصاعدا، استحوذت على الامة موجة من التجسس... اصبح الذين يغطيهم نفس السقف، والذين يتقاسمون نفس العمل، والذين تجمعهم نفس المائدة يبلغون ببعضهم البعض...»(١٠). وتدخلت الكراهية الشخصية والتمييز العنصري والديني لتلقي بمئات الابرياء داخل زنزانات محاكم التفتيش، ووصل تحذير الكنيسة للرأي العام الى حد ان الابن اصبح يبلغ عن أبيه.

وبعد اعتقال من بلغ عنهم، كانت المحكمة تعتمد على عدد من الوسائل لارغامهم، ليس فقط على الاعتراف «بخطاياهم» و«جرائمهم»، ولكن كذلك للتبليغ عن ذويهم وأصدقائهم، وذلك بزرع جواسيس بين المعتقلين، واكراه السجناء على التجسس، وخصوصا بتمديد مدة الاعتقال خلال المحاكمة في ظروف جد صعبة، الشيء الذي يرغم المتهم على طلب المثول امام المحكمة «لارضاء ضميره» حسب ما تدعيه المحاضر.

وعندما تستنفذ المحكمة هذه الوسائل تلتجيء الى التعذيب الذي كان مقننا ويخضع لعدة درجات حسب صمود وتحمل المتهم. ومات لهذا عدد من المتهمين، اما داخل زنزانات السجن، او بين ايدي المعذبين.

وتقدم دراسة واستغلال مادة محاضر محاكم التفتيش خدمة كبيرة لمؤرخ الغزو البرتغالي، وخصوصا لمؤرخ نتائجه الفكرية والدينية على المغرب. وهذه المحاضر التي لم يتم بعد



استغلالها بالبرتغال بالمقارنة مع الاهتمام الخاص الذي اولي لمحاكمات اليهود، تكمل المعلومات التي زودتنا بها المصادر البرتغالية الاخرى، وتسد بعض الثغرات التي تركتها. والمحاضر المتعلقة مباشرة بالمغرب تتكون من ثلاثة انواع متميزة:

١ ــ المحاضر المعلقة بقيام المغاربة بطقوس وشعائر اسلامية

بالاضافة الى اهتمام هذه المحاضر باوضاع هؤلاء المغاربة المادية (مهنهم وظروف عيشهم) والقانونية (كان منهم العبد والحر، ونصف الحر، ومن هو في وضعية ثلاثة ارباع الحر...)، تسلط هذه المحاضر الاضواء عن نسبة تدين هؤلاء، ومدى تمسكهم بالدين الاسلامي واحكامهم على المسيحية، وتخبرنا عن عقليتهم (فكرغيبي، ايمان بالسحر...) وعن كيفية تنظيم افراحهم (الزواج العقيقة، الاعياد...) واحزانهم (الولائم التي تلي موت احدهم مثلا).

وهذا النوع من المحاضر المتعلقة بالمغرب هو اكثر الانواع الثلاثة عددا.

٢ ــ محاضر تتعلق بالتهريب بسواحل المغرب

تتعلق هذه المحاضر بتجار برتغاليين استمروا في التعامل التجاري مع المغاربة رغم التحريم الذي اعلن عنه الملك اثر اضطراره الى التخلي عن عدد من الموانىء المغربية بعد سنة ١٥٤١. كما كان هؤلاء التجار يحصلون على اموال طائلة من نقل مغاربة مقيمين بالبرتغال الى الموانىء المغربية. واذا كانت هذه المحاضر دون كثرة النوع الاول[١١] فان مساهمتها في التعريف بالنشاط التجاري البرتغالي اساسية اذ انها تخص تجارة افراد او شركات لم تخبرنا الوثائق الرسمية الا عن الشيء القليل من انشطتها.

كما ان اعترافات المهربين المعتقلين تسلط الاضواء على انواع السلع التي كانوا يروجونها، واثمانها، وتطور الطلب عليها، وتشير الى السلع التي كانوا يقتنونها بالموانىء المغربية. واذا اضيفت الى هذه المحاضر ما يعرف بـ «الاتصالات» او «وثائق ابراء الذمة»[١٢] وكذا الوثائق الرسمية المتبادلة ما بين الملك ووكلائه التجاريين، اصبح بالإمكان تحديد المكانة الاقتصادية التي كان المغرب يحتلها داخل الامبراطورية التجارية البرتغالية، وتحديد مدى استفادة كل من البرتغال والمغرب من تلك المبادلات التي تمت في وقت كانت الغلبة فيه للبلد الاول.

٣ ــ محاضر تتعلق بالجهاد البحري المغربي خلال القرن السادس عشر

تسلط هذه المحاضر اضواء جديدة على موقف المغاربة من الغزو الايبيري لسواحل بلادهم.

فبخلاف ما ادعاه بعض المؤرخين الاجانب، لم يؤد احتلال موانىء شمال المغرب الى توقيف العمليات البحرية التي كانت تستهدف سفن وسواحل البرتغال. فقد تم القاء القبض على عدد من المغاربة من بينهم اعراب من ناحية القصر الكبير كانوا يتعاطون هذا النوع من الجهاد.

وتخضع كل محاضر محاكم التفتيش الدينية لتصميم شبه موحد. فهي تبدأ بالامر الصادر عن المفتش الديني باعتقال المتهم، يليه محضر الاعتقال والايداع بالسجن الخاص بالمحكمة. وتأتي بعد ذلك محاضر الجلسات بالتتالي مع تواريخ تنظيمها واعترافات المتهم. ويلحق بتلك الاعترافات تدخل «المحامي المراقب» وتقويمه لتلك الاعترافات. فاذا اعتبرها كافية اصبح بامكان القاضي او القضاة النطق بالحكم، واذا اعتبرها غير كافية قام بمرافعته التي يليها رد المتهم او محاميه. وبعد تدخل الطرفين يتم النطق بالحكم. وبعد ذلك يأتي محضر التخلي العلني للمتهم عن خطاياه في حفل ديني كبير، وتختم المحاضر بحصر مصاريف المحاكمة الواجب اداؤها من طرف المتهم، يليه تاريخ تسريح المتهم وخلع «لباس التوبة» عليه.

الترجمة:

اتهامات واعترافات (آنة دوميلو ــ Ana De Melo)، المسلمة المتنصرة الحرة الساكنة بهذه المدينة، (Evora) الحبيسة بسجن المؤسسة المقدسة، وذلك بسبب جريمة البدعة والردة[١٣].

١٥٥٩

محضر حبس واستنطاق (آنة دوميلو ــ Ana De Melo) المسلمة المتنصّرة التي كانت لـ (روي دوميلو ــ Rui De Melo) الساكن بهذه المدينة يابرة، والتي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه.

الكاتب (جوان منديش ــ Joane Mendes).

في سنة الف وخمسماية وتسعة وخمسين من ميلاد سيدنا المسيح، وبمدينة يابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش المقدسة، ضمن الجلسات التي يرأسها كالعادة الدكتور (انطونيو دو كاشترو ــ Antonio De Castro)، المفتش الديني البابوي ضد البدع والردة باسقفية يابرة هذه ومقاطعتها... الخ، مثلت امامه مسلمة متنصرة تسمى (آنة دو ميلو ــ Ana De Melo) عبدة (لوي دو ميلو ــ Luis De Melo) معلم بمدرسة كتدرائية مدينة يابرة هذه، ومقيم بها. ولما مثلت امامه لكونها اقترفت آثاما من اختصاصات محاكم التفتيش المقدسة، فان السيد المفتش المذكور امر بحبسها. ولهذا استدعى (انطونيوس فرننديش ــ Antonio Fernandes) قائد السجن، وامره بقيادتها الى زنزانتها، الشيء الذي نفذه فورا ووقّع هنا الى جانب السيد المفتش وحررت هذا، انا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

ــ انطونيوس دكتور (امضاء)

و (١/ب) وفور ذلك وفي نفس اليوم والشهر والسنة، وبأمر من السيد المفتش المذكور، التحقت انا، (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة بالسجن، حيث توجد رهن الاعتقال (آنة فرننديش ــ Anan Fernandes) المسلمة المتنصرة، وذلك بمحضر (انطونيو فرننديش ــ Antonio Fernandes) قائد السجن المذكور، وطلبت من (مرغريدا لورنسو ــ Margarida Lourenco) الحبيسة كذلك بالسجن المذكور، ان تقسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها، والتي بسبب ذلك كلفتها بالذهاب لتفتيش (آنة فرننديش دو ميلو) المسلمة المتنصرة السابقة، ومعاينة ما اذا كانت تحمل اموالا او سكينا او شيئا اخر. ووعدت (مرغريدا) اعتبارا للقسم السابق الذكر بتنفيذ ذلك، والتحقت فورا بالمكان الذي كانت توجد به (آنة فرننديش) المذكورة ولم تعثر على شيء عدا سبعة او ثمانية «سبتي»[١٤] واطلعتني على هذا بمحضر قائد السجن. حرره (جوان منديش).

ــ جوان منديش (امضاء)

الجلسة الاولى

في اليوم الثاني والعشرين من شهر ماي، من سنة الف وخمسمائة وتسعة وخمسين بيابرة، بقاعة الجلسات بمؤسسة محكمة التفتيش، وخلال الجلسة التي يرأسها كالعادة الدكتور

(انطونيو دو كاشترو) المفتش الديني باسقفية يابرة هذه، ومقاطعتها ... الخ» امر باحضار (آنة فرننديش)، المسلمة المتنصرة الحبيسة بسجن هذه المؤسسة المقدسة. ولما مثلت امامه امرها بالقسم بالاناجيل المقدسة التي لمستها بيدها ووعدت بقول الحق. وبعد ذلك سألها السيد المفتش عن اسمها وسنها واصلها ومحل سكناها، وعما اذا كانت عبدة ام حرة؟ قالت: انها تسمى (آنة فرننديش دو ميلو)، وان سنها كما يتجلى من مظهرها هو ستون سنة تقريبا. وذكرت ان اصلها من ناحية آسفي، من مكان يعرف بالمدينة[١٥]، وانها عاشت بلشبونة مايفوق العشرين سنة، وانها تعيش بهذه المدينة، يابرة منذ سنتين. وذكرت انها حرة، وانها كانت متزوجة واصبحت ارملة، وان زوجها كان يسمى (دييغو فرننديش ـ Diego Fernandes) الذي كان مسلما متنصرا وافته المنية، ومنه رزقت بنتا تسمى (ازبيل رودريغش ـ Isabel Radrigues)، وهي متزوجة من شاب ابيض[١٦] يدعي انه من اصل نصراني مهنته حلاق، ويسكن بـ (Covillan).

وسئلت عما اذا كان لها اخ او اخت (بالبرتغال)، اجابت ان لها اختا بلشبونة تسمى (مريا رودريغش) متزوجة من جوان دوبجاة ـ Joao De Beja) عبد الملكة سيدتنا، وهو مسلم متنصر يعتني بتحركات وتنقلات سموها. وذكرت انه ليس لها غيرها، وان اختها المذكورة بدون ذرية.

سئلت عما اذا سبق ان سجنت او عوقبت هي او احد اقاربها على يد المؤسسة المقدسة. قالت: ان اختها السالفة الذكر (مريا رودريغش) حبست من طرف المؤسسة المقدسة لمحكمة تفتيش لشبونة، وانه اطلق سراحها على ان تبقى مرتدية لباس التوبة[١٧] وذلك حسب تقديرها قبل ثلاث سنوات تقريبا، وان زوجها تم كذلك تسليمه للقضاء المدني[١٨]، وكان يسمى (كرشتفاو فرننديش ـ Cristovao Fernandes) وانها (آنة دو ميلو) لم يسبق لها قبل اليوم ان سجنت من قبل المؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وانها لا تعرف اي قريب سبق حبسه باستثناء احد اقارب ابيها الذي سجن من طرف المؤسسة المقدسة، واطلق سراحه بلشبونة خلال السنة الماضية، والذي كان يسمى (جوا سلغادو ـ Joao Salgado).

سئلت عما اذا كانت مسيحية معمدة، وعن اسم الذي اشرف على ذلك، وعن اسماء آباء المعمودية، وعما اذا كانت قد اكدت تنصيرها وعلى يد من، وفي اي مكان ومن هم الشهداء على ذلك، وما هو اسمها الاصلي؟

قالت نعم، انها نصرانية توصلت بالمعمودية والاسم المسيحي بدير سان بنيو (S. Benio) الذي يوجد خارج هذه المدينة، وذلك نظرا لكونها كانت آنذاك بذاك الموضع في صحبة الراهبات، وانها لا تعرف اسم الراهب الذي اشرف على ذلك نظرا لطول المدة، وكانت ام التعميد مولدة اسمها (فرنسيشكا تريغا ـ Francisco Tourega) التي توجد على قيد الحياة. (وقالت) انها تجهل اسم الاسقف الذي اشرف على تأكيد تنصيرها ببيت (روي دو ميلو ـ Rui De Melo) وكانت الشاهدة على ذلك فرنشيسكا دا سيلفا ـ F. Da Silva) المسلمة المتنصرة التي توجد في ملكية روي دو ميلو). وكان الشاهد على ذلك رجل يشرف على كنيسة نسيت اسمه[١٩].

سئلت عما اذا كانت تعترف بذنوبها وتتناول القربان وقت الصوم الكبير من كل سنة، وعما اذا كانت تسمع القداس وتسمع الوعظ ايام الآحاد والاعياد.

قالت: انها تعترف في كل سنة بخطايها خلال الصوم الكبير وتتناول القربان وتسمع القداس والوعظ في الاحاد والايام المقدسة.

وبما انها تقول انها نصرانية فقد طلب منها بالطبع ان تقوم برسم الصليب وان تحمد الاله وان تقول الصلوات المسيحية.

قامت (آنة دو ميلو) السالفة الذكر برسم الصليب، ولكنها عجزت ان تقول الصلوات وان تقوم برسم الصليب كما يجب[٢٠]، ورددت صلاة (O. Pater Noster)[٢١] و(آن مريا)[٢٢] و(Credo)[٢٣] ووصايا دين الله كما يجب. اما صلاة (Salve Regina)[٢٤] فانها تجهلها.

سئلت عما اذا كانت تعلم او تتكهن سبب اعتقالها بسجن محكمة التفتيش هذه.

الورقة الأولى من المحضر وهي تتعلق بالأمر الصادر عن المفتش الديني باعتقال المتهمة

قالت: يبدو لها انها معتقلة بسبب انه لما توفي زوجها حضرت الى جانب عدد من المسلمين المتنصرين والمسيحيين عشاء اعده اخ زوجها، ولكنها خلال ذلك العشاء لم تقم باي شيء مما يقوم به المسلمون. قيل لها، انها رهن الاعتقال بهذه المؤسسة المقدسة بسبب اقترافها جرائم تستحق عليها ذلك. ومع ذلك، توسل اليها (المفتش) بمولانا السيد المسيح، وباسمه المقدسة، ان تعترف اعترافا شاملا بكل خطاياها، وبكل ما تعرفه عن نفسها وعن غيرها، لانه بفعلها هذا، ستستفيد من الرحمة والشفقة التي تخص بها الام المقدسة الكنيسة والتائبين الحقيقيين. وعلى العكس من ذلك، فانها اذا ما استمرت على عنادها وسلبيتها، فانها ستعامل بالصرامة التي ينص عليها القانون و(٣/ب)، وعبرت (آنة دو ميلو) المذكورة عن رغبتها في التفكير في امورها ووعدت بقول كل ما ستتذكره، الشيء الذي حبذه السيد المفتش، وامر بارجاعها الى زنزانتها.

وطلبت مني، انا الكاتب الشرعي، الامضاء هنا عوضا عنها لكونها لا تستطيع ذلك.

وامضيت الى جانب السيد المفتش المذكور.

حرره (جوان منديش) الكاتب بالمؤسسة المقدسة مع الخط المتعلق بـ(a) والتشطيب المتعلق بـ(فرننديش) الذي لم يكن من اجل التزوير.

— انطونيوش دكتور.

— جوان منديش.

وبعد هذا، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ماي من سنة الف وخمسمائة وتسعة وخمسون، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها السيد الدكتور (انطونيو دو كاشترو) المفتش ... الخ، امر باحضار (آنة دو ميلو) المسلمة المتنصرة التي تخصها هذه المحاضر، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر انها ترجو ذلك. ولما مثلت امامه امرها باداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق.

وبعد ذلك قالت: انها لما كانت بلشبونة خلال المدة التي ذكرت انها كانت تسكن هناك، قالت لها اختها (مريا رودريغش) التي اشارت اليها سابقا ان زوجها (كرشتفاو فوننديش — Cristovao Fernandes يريد ان يصحبها معه من لشبونة الى بلاد المسلمين[٢٥]، وانها لا ترغب في ذلك، وان زوجها السابق الذكر اعتقل من طرف محكمة التفتيش بلشبونة، وتم تسليمه للمحاكم المدنية واضافت كما اعتقلوا اختها (مريا رودريغش) واطلق سراحها بعد ذلك شريطة ان ترتدي لباس التوبة بعد ان ردت الى الكنيسة الكاثوليكية. ولم تقل غير هذا، نظرا لكونها لم تتذكر غيره، وقالت انها مسيحية صادقة.

وعند هذا الحد امرت بالعودة الى زنزانتها. وطلبت مني، انا الكاتب الشرعي، ان امضي نيابة عنها، الشيء الذي قمت به نظرا لكونها لا تستطيع ذلك. وامضيت الى جانب السيد المفتش المذكور.

وحرره (جوان منديش) مع التشطيب المتعلق بـ(منديش).

— انطونيوش دكتور.

— جوان منديش.

وبعد هذا، وفي اليوم السادس والعشرين من ماي من سنة الف وخمسمائة وتسعة وخمسون، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (انطونيو دو كاشترو) المفتش ... الخ، امر باحضار (آنة دو ميلو) المذكورة، والمسلمة المتنصرة التي تتعلق بها هذه المحاضر، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر انها ترجو ذلك. ولما مثلت امامه امرت باداء القسم بالاناجيل التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق الحق. وفور ذلك قالت بانه منذ ثلاث سنوات، اقول ست سنوات، لما كانت هي (آنة دو ميلو) بلشبونة، توفي زوجها (دييغو فرننديش)، المسلم المتنصر، فبكته هي (آنة دو ميلو) وناحت عليه كمسلمة، وعلى طريقة المسلمين، مبعثرة شعرها وخادشة خديها ومتوسلة في شأن روح وجسد زوجها المذكور الى محمد والى سيد ابي العباس السبتي[٢٦]، والى مولاي علي[٢٧]، الذين يعتبرهم المسلمون اولياء لكي و(٤/ب) يكونوا مع روحه وجسده، وان

ذلك فعلته كمسلمة وبنية من هو مسلم، معتقدة ان ذلك سيفيده، وانه من الاحسن ان تفعل وان تقول كذلك لفائدة روح زوجها المذكور. (وذكرت) انه بعد موت (دييغو فرنندیش) المذكور بحوالي ثلاثة اسابيع، تصدق اخ زوجها المذكور، الذي يسمى (ميغل دوسنتوش ـــ Miguel De Santos) والذي وافته المنية، تصدق بمدينة لشبونة، المذكورة بعشاء لفائدة روح اخيه (دييغو فرنندیش) على طريقة المسلمين. وتم ذلك العشاء بدار مسلم متنصر من لشبونة، حر ومتزوج كان يسكن بباب البحر، وغادر لشبونة لمكان تجهله. واستدعيت (آنة دو ميلو) لذلك العشاء من طرف اخ زوجها وذلك لتحضيره على طريقة المسلمين. ووجدت بتلك الدار خروفا مذبوحا، ولكنها لا تعرف من ذبحه، ولا ما اذا تم ذبحه على طريقة المسلمين. ومن لحمه حضرت (آنة دو ميلو) نفسها كسكسا اكلوه. وعند الشروع في الاكل قالت (آنة دو ميلو) وباقي المسلمين المتنصرين الذين ستذكرهم اسفله: باسم الله، اي ما معناه[٢٨] وذكرت انها تجهل ما اذا قال باقي المسلمين المتنصرين، «باسم الله» لانها لم تاكل معهم على نفس المائدة لكونها كانت منهمكة في تحضير الاكل. ولكنها قالت «باسم الله» حينما شرعت في الاكل، وكان المسلمون المتنصرون الذين علمت بهم و(٥). وعاينت انهم تعشوا هناك هم الاتية اسماؤهم:

(مغيل دو سنتوش) المذكور الذي توفي، وهو اخ زوجها السالف الذكر، و(انطونيو فرنندیش) و(مريا فرنندیش)، زوجته، وهما مسلمان متنصران حران، وهما اللذان تم العشاء في بيتهما، وكما سبق ان ذكرت لا تعرف اين ذهبا سوى انها سمعت انهما التحقا بقشتالة. وتعشى كذلك هناك ابن لـ(انطونيو فرنندیش) و(مريا فرنندیش) يسمى (لويش ـــ Luis)، والذي قد يكون سنه تسع او عشر سنوات قريبا. ورأت كذلك في ذلك اليوم (غيومار رودريغش فرغوزا Fragosa) المسلمة المتنصرة المعتقلة بهذا السجن، راتها تدخل ولكنها لا تعرف ما اذا كانت قد اكلت ام لا. كما دخل كذلك مسلمون متنصرون اخرون من لشبونة لا تعرفهم، ولا تتذكرهم. وطلب منها اخ زوجها المذكور تحضير ما سبق ذكره كمسلمة، وبنية من هو مسلم. ولا تتذكر الان غير هذا. ولكنها ستتذكر كل ما ستتذكره. وبما انها لا تستطيع ان تمضي فقد طلبت مني انا الكاتب الشرعي، ان اقوم بذلك هنا نيابة عنها، وامضيت الى جانب السيد المفتش المذكور، الذي طلبت منه ان يشفق عليها. وحررت هذا انا جوان منديش الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

ـــ انطونيوش دكتور.

ـــ جوان منديش.

وبعد هذا، في اليوم التاسع والعشرين من شهر ماي من سنة الف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (انطونيو دو كاشترو) المفتش و(٥/ب) ... الخ، امر باحضار (آنة دو ميلو) المسلمة المتنصرة السابقة الذكر، والتي تتعلق بها المحاضر السالفة، وذلك نظرا لكون قائد السجن ذكر انها ترجو ذلك. ولما مثلت امامه امرت باداء القسم بالاناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. وفور ذلك، ذكرت انها نفسها لما كانت بلشبونة منذ ما يقرب من سبع سنوات حسب تقديرها، وكان ذلك قبل وفاة (دييغو فرنندیش) المسلم المتنصر زوج المعترفة، توفي كذلك هنا بلشبونة مسلم متنصر لا تعرف اسمه لكونهم كانوا لا ينادونه الا «بالقائد» والذي كان في ملكية فرنا والفريش دو برتغال Fernao Alvares De (Portugal)، وكان زوج مسلمة متنصرة وحرة كانت من قبل عبدة آل (كمويش ـــ Camoes) وتسمى (لويزا دو كمويش ـــ Luisa Camoes) والتي كانت انذاك بلشبونة، وبسبب موت زوجها التحقت بهذه المدينة، يابرة، حيث تسكن اسرة (كمويش) عند مدخل شارع الامراء. وعندما توفي بلشبونة المسلم المتنصر المذكور المكنى بالقائد، زوج (لويزا دو كمويش) المذكورة، التقتا بالقنطرة[٢٩] حيث ذهبتا للنهر من اجل الغسيل، وهناك قامتا بـ(الدماع ـــ Adimaa) الذي هو النواح الذي يقوم به المسلمون كلما توفي احدهم.

وقامت المعترفة و(لويزا كمويش) بالنواح على المسلم المتنصر «القائد» زوج (لويزا دو كمويش) المتوفي، مبعثرتين شعرهما، وخادشتين خديهما كما يفعل المسلمون. وقامت المعترفة بذلك بنية المسلمة، ويبدو لها ان (لويزا دو كمويش) المذكورة فعلت ذلك بنفس النية نظرا لكونها ناحت وخدشت خديها كما يفعل المسلمون، وكما فعلت المعترفة، وصادف النواح والخدش حضور ومشاركة (مريا فرننديش)، (ازبيل سوارش)، و(فرانسيشكا دا سليفا) المسلمات المتنصرات اللواتي التحقن بقشتالة، واللواتي تجهل مكان وجودهن، واللواتي حضرن كذلك العشاء الذي تكلمت عنه المعترفة سابقا، والذي اعده (ميغل سانتوس)، المسلم المتنصر، ترحما على (دييغو فرننديش)، اخيه وزوج المعترفة. ونظرا لموت زوجها السابق الذكر، استدعت كذلك (لويزا دو كمويش) المذكورة المعترفة لحضور عشاء كانت تنوي اعداده (لويزا دو كمويش) المذكورة ترحما على زوجها، وذلك على الطريقة التي بعدها المسلمون. ولكن المعترفة وعدتها بالحضور اذا ما امكنها ذلك ولم تستطع الذهاب الى ذلك العشاء (في الوقت المحدد) بسبب زوجها (دييغو فرننديش) المذكور، ووصلت متأخرة فالفتهم قد انتهوا من الاكل، ووجدت (لويزا دو كمويش) المذكورة في صحبة المسلمات المتنصرات المذكورات اعلاه، واللواتي التحقن بقشتالة، واخريات لا تتذكرهن.

وأضافت أن (لويزا دوكمويش) المذكورة، حينما التقت بها المعترفة بالنهر رأتها وسمعتها تستغيث بسيدي أبي العباس السبتي لكي يساعدها فيما تتمناه معتبرة اياه ولياً. وكانت تتوسل كذلك الى محمد. وتقول أن دين المسلمين أفضل من دين النصارى، الشيء الذي قالته كذلك (آنة دوميلو) نفسها وهي تتوسل الى محمد (و٦ ب). والى سيدي أبي العباس السبتي لكي يساعدها في ما صعب عليها معتبرة اياه ولياً. ورجت عن كل هذا المغفرة والشفقة، مؤكدة أنها ستصلح نفسها. وذكرت أنها الآن لا تتذكر شيئاً غير هذا، وأنها ستقول كل ما ستتذكره. وكالعادة لم تقل أي شيء. وذكرت أنها لا تريد شراً لأي واحد من الأشخاص الذين بلغت بهم.

وبما أنها لا تستطيع الامضاء، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي أن أوقع هنا عوضاً عنها. وأمضيت الى جانب السيد المفتش المذكور.

وحرر هذا جوان منديش، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

ـ أنطونيوش دكتور.

ـ جوان منديش.

قبل المحامي المراقب(٣٠) بالمؤسسة المقدسة باسم العدالة اعترافات المتهمة على الأقل فيما يجعل منها متهمة.

ـ جرونموش دو بيدروزو (Jeronimos de Pedroso).

يابرة، في اليوم الخامس من يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة المفتش الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)... الخ، أمر باحضار (آنة دوميلو) المذكورة نظراً لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك، ولما مثلت أمامه (و٧) أمرت بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت يدها عليها ووعدت بقول الحق. وبذلك ذكرت أنها تتذكر أشياء أخرى، وأنه بعد مدة طويلة من مغادرة الملك رحمه الله لمدينة يابرة بعد إقامته الأخيرة بها، استدعت (ازبيل كريا) (Isabel Correa) زوجة (جرنما كريا Jeronima Correa) التي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه، استدعت في أحد الأيام المعترفة لكي ترافقها الى تريجلا (Torreguela) بمقاطعة هذه المدينة من أجل الفسحة وتناول الطعام هناك. وذهبت المتهمة للقائها بـ(تريغلا) حيث وجدت الى جانب (أزبيل كريا) ج. منديش (Joana Mendes) المسلمة المتنصرة التي كانت ملكية (منديل منديش) والتي توجد رهن الاعتقال بسجن محكمة التفتيش هذه، وكذا (مرغريدا داسلفا) (Margorida da Silva) المسلمة المتنصرة، زوجة (فرنسيشكو ديال) (Francisco Dial) التي كانت بدورها بسجن محكمة التفتيش هذه، (ومريا منديش) المسلمة المتنصرة الأرملة الحبيسة بنفس السجن.



احتفال تقليدي يسبق جلسات المحاكمة (من: ملكيات اسبانيا والبرتغال الهاي ١٧٢٠).

و(غريسا فرننديش) (Gracia Fernandes) المسلمة المنتصرة المعتقلة كذلك بنفس السجن، و(أوبيل فرننديش) المسلمة المنتصرة كذلك زوجة (جوا فرننديش)(Joào Fernandes) المعتقل بنفس السجن. جلست كل هذه المسلمات المنتصرات على الأرض، الشيء الذي قامت به (أزبيل كريا) المذكورة والمعترفة وأكلن جميعاً. وعند الشروع في الأكل قلن جميعاً: «باسم الله» أي ما معناه[٣١]، وبعد الأكل عادت كل واحدة الى بيتها. وقالت المعترفة الكلمة المذكورة (كذا) «باسم الله» بنية من هو مسلم. وتعتقد أن الأخريات كان عليهن أن يقلن كذلك بنفس تلك النية وهي الآن لاتتذكر ما ستتذكره (و٧ ب). وكعادتها ذكرت أنها لاتريد أي ضرر لأية واحدة من المسلمات المتنصّرات المذكورات أعلاه، ورجت العفو، وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي هنا نيابة عنها لأنها لا تستطيع الامضاء. وأمضيت الى جانب السيد المفتش.

حرره (جوان منديش).

ــ أنطونيوش دكتور.

ــ جوان منديش.

وبعد هذا، وفي اليوم التاسع من شهر يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، وبقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو) المفتش... الخ أمر باحضار (آنة دو ميلو)، المسلمة المنتصرة المذكورة التي تتعلق بها هذه المحاضر السابقة، وذلك نظراً لكون قائد السجن ذكر أنها ترجو ذلك.

ولما حضرت لكي ترضي ضميرها كما أدعت ذلك، أمرها بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق وفور

ذلك ذكرت (آنة دو ميلو) المسلمة المتنصّرة المذكورة أنها بالاضافة الى ما صرحت به تتذكر أنها منذ توصلها بالماء المقدس للمعمودية، والى حين اعتقالها من طرف المؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، كانت دوماً مسلمة، وآمنت باستمرار بدين محمد، تستغيث به وبسيدي أبي العباس السبتي، وتتوسل اليهما، وكذا الى مولاي علي اللذين يعتبرهما المسلمون أولياء محمد. وكانت تقول وقت أكلها ونومها وقيامها: «باسم الله» كما يفعل المسلمون، رافعة يديها المفتوحتين نحو السماء، وذلك على طريقة المسلمين. وكلما تجشأت قالت كذلك: «الحمد لله، محمد رسول الله»[٣٢]. أي معناه: «أتوسل الى الله، أو أطلب من الله أن يعينني، ومحمد هو خادمه»[٣٣].

وكانت تقول كذلك: «الله أكبر»[٣٤] كلما اصطدمت بشيء أو حدث لها شيء آخر. أي ما معناه: الله أكبر، الله يرعاني ويساعدني. ومن جهة أخرى، صامت المعترفة لعدة مرات صيام رمضان الذي هو صيام المسلمين، وكانت لا تأكل طول (و٨) اليوم ولو لقمة واحدة ما عدا خلال الليل، بعد بروز النجوم. وآنذاك كانت تأكل حتى تشبع كما يفعل المسلمون. ورغم أنها صامت عدة مرات صيام رمضان المذكور، فانها لم تكمل أبداً الثلاثين يوماً المتتالية التي تكون صيام رمضان الإسلامي وكانت تصوم فقط خمسة عشر يوماً تقريباً. وذكرت (آنة دو ميلو) أنها كانت كذلك ترغب في الامتناع عن العمل خلال أيام الجمعة. وذلك كما يفعل المسلمون، ولكنها كانت تشتغل خلال ذلك اليوم لكونها كانت تعيش مع أشخاص آخرين[٣٥].

وهكذا كانت تشتغل من يوم الاثنين الى يوم السبت، وبعد أن أصبحت حرة بقيت تعمل يوم الجمعة كذلك حتى تضمن خبزها، ولكنها كانت تتمنى أن تمتنع عن ذلك كما سبق ذكره، (وذلك) بنية من هو مسلم.

سئلت عما اذا كانت تمتنع عن العمل خلال عيد من أعياد المسلمين أي «العيد الصغير»[٣٦] «وعيد الكبش»[٣٧] و[٣٨] وغيرهما من الأعياد والحفلات الإسلامية، وطلب منها أن تقول الحق. قالت (آنة دوميلو) المذكورة أنها لا تمتنع عن العمل في أي عيد من أعياد المسلمين لكونها لا تعرف تواريخ الاحتفال بها، وأنها لم تقم بطقس ديني غير ما ذكرت لكونها تجهلها بسبب انتمائها للأعراب الذين يعيشون بالبوادي[٣٩]، وأضافت أنها تتذكر كذلك أن (مسيا دوميلو Mocia de Melo) المسلم المتنصر الذي كان عبداً لـ(سيماو ودوميلو Simào de Melo) ورفيقته مريا منديش، المسلمة المتنصّرة كذلك، واللذين يعيشان بلشبونة بشارع الأكياس، وكذا (بيرودا الميدا Pedro d'Almeda)، المسلم المتنصر الحر الذي كان من قبل عبداً لـ(دون بيدرو دا ألميدا) وزوجته (جوانة فرننديش)، هي الأخرى مسلمة متنصّرة: تذرى القمح بسوق الحبوب بلشبونة، واللذين يعيشان معاً بشارع الأكياس المذكور بنفس دور (دون بيدرو) وكذا (جوا غنسلفيس Joas Gonçalvez)، المسلم المتنصر الذي كان عبد (دوق أفيرو) وزوجته (مدنيلا رودريغش Madanella Rodrigues) المسلمة متنصر الحرة الساكنين بجانب دير (سنتا كترينا Santa Catrina) بلشبونة من الجهة الداخلية لشارع أكتوبر[٤٠] على مقربة كذلك من دور (دون بيدرو) المذكور، و(غريدا)، المسلمة المتنصر الحرة التي كانت في ملكية (بيدرو دا فونسيكا Pedro da Fonseca) والتي كانت متزوجة من مسلم المتنصر كان عبد دوق (براغنصا)[٤١]، والتي هي الآن أرملة وتعيش بدار متصلة بكنيسة (سان أزان San Isan) بـ«ألفامة»[٤٢] بلشبونة، استدعت المعترفة كل هؤلاء المسلمين والمسلمات المتنصرين لحضور العشاء التي تكلمت عنه سابقاً، والذي أعدته المعترفة بلشبونة.

وتعشى كل هؤلاء المسلمين والمسلمات المتنصرين، وفي بداية الأكل قال الجميع: «باسم الله»، وعند نهايته توسلت المعترفة وكل السابقي الذكر (و٨ب) الى محمد والى سيدي أبي العباس السبتي، وكذا الى مولاي علي من أجل رحمة روح زوجها المذكور، وتأسفوا عليه هناك جميعاً وبكوه على طريقة المسلمين. وصرحت أن أخ زوجها (ميغل دو سنتوش) المسلم المتنصر أمر باعداد العشاء المذكور ترحماً على زوج المعترفة نفسها الذي هو أخوه.

وهـو الذي نادى المعتـرفة لكي تـذهب لطبخ العشاء. ولقد ذكرت أنها ذهبت فعلاً.

وبذلك تعشى الأشخاص الذين أعطت المعترفة أسماءهم بتفصيل في هذا الاعتراف، وهم الذين استدعتهم للعشاء المذكور كما صرحت بـذلك أعلاه. وذكرت أيضـاً أنه بعـد موت (دييغـو فرننديش)، زوجها هي (آنة دوميلو)، بما يقرب من خمس سنوات، سألتها وعرضت عليها (مريا دا سيلفا)، المسلمة المتنصرة الحرة والمتزوجة من (دييغو دا أبرانش Diego d'Abranches)، المسلم المتنصر الذي كان عبد الأمير (دون لويش Don Luis) رحمه الله، والذي يذرى القمـح بسوق لشبونة، واللذين كانا يسكنان باسطبل نفس الأمير، سألتها واقترحت عليهـا الذهاب معها ومع زوجها الى بلاد المسلمين لكي تعودا هنـاك مسلمتين ولكن المعتـرفة أجـابتها أنهـا لا تريد ذلك.

كما صرحت أن (مريا دو سلفا) المذكـورة قالت لها ذلك منذ خمس سنوات تقريباً، وأن زوجها (دييغو فرننديش) توفي منذ ما يقارب من سبع سنوات، وأنه كذلك منذ ثلاث سنوات قالت لها (كترينا دوسا Catarina desa)[٤٣] المسلمة المتنصرة الحرة والمتزوجة التي لا تعرف اسم زوجها المسلم المتنصر الذي يعيش بلشبونـة، بالمدارس العامة، قالت لها أنهـا تنتظر الوقت الذي يسمح لها بـالذهاب الى بـلاد الإسلام، والذي تعثر فيه على من يقبل مرافقتها وزوجها الى هنـاك لتعود هي وزوجهـا الى الإسـلام. ولم تقـل شيئـاً، ورجت المغفـرة والعفـو عن خطاياها، وقالت أنها لا تريد أي ضرر لأي واحد من الأشخاص الذين بلغت بهم. وطلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي هنا نيابة عنها لكـونها لا تستـطيع ذلك وأمضيت الى جـانب السيد المفتش.

وحرره (جوان منديش) مع التشطيب الذي يتعلق بـ (؟) والتعديل المتعلق بـ (Com).

ــ أنطونيوش دكتور.

قبـل المحامي المـراقب نيابـة عن العـدالة اعترافات المتهمة على الأقل في ما يجعـل منها متهمة.

ــ جرونيموش دو بدروزا (Jeronimos de Pedrosa).

(و٩) وبعد هذا، وفي اليوم التاسع عشر من شهر يونيو من سنة ألف وخمسمائة وتسعـة وخمسين بيابرة، بقاعـة الجلسات بـالمؤسسـة المقدسة لمحكمة التفتيش، وخلال الجلسات التي يرأسها كالعادة السيـد الدكتور (أنـطونيو دو كـاشترو)، المفتش... الخ مثـل أمامـه المجاز (جـرونيمـو دو بيـدروزا) المحـامي المـراقب بالمؤسسة المقدسة وذكر أنه تأمل النازلة، وألفى العـدالة تقبل اعترافـات المتهمـة، وطلب من سماحته أن تأمر بـالحاق الخـطايا المنسـوبة لـ (آنة دوميلو) المذكورة بمحضرها، وأن توجه اليه للاطلاع عليها ليتمكن من المرافعة النهائية، الشيء الذي أمر السيد المفتش المذكور بالقيام به وبتسليمـه الى المحامي المـراقب المذكـور لكي يرافع في نهاية الأمر، وذلك نزولاً عند رغبته. وتنفيذاً لذلك أضفت، أنا الكاتب، لهذا المحضر الخطايا المذكورة التي تأتي أسفله بالتتالي.

وحرره جوان منديش.

(٩، ١٠) الخطايا المنسوبة لـ (آنة فرننديش دو ميلو)، المسلمة المتنصرة.

في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمـة التفتيش حيث كان موجوداً السيد الدكتور (أنطونيو دو كـاشترو) المفتش... الخ مثـل أمامـه المجـاز (جرمينودو بيدروزا) من المستشارين القضائيين لمولانا الأمير الكردنـال[٤٤]، والمحامي المـراقب بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وطلب من السيد المذكـور أن يأمـر بالقـاء القبض على مسلمة متنصرة تسمى (آنة فرننـديش) كانت عبـدة (روى دوميلو) الساكن بهـذه المدينـة، يابرة، نظراً لكثرة ما تنسبه المؤسسة المقدسة لها من ذنوب تستوجب اعتقالها، ويتمنى احالتها على المحكمة. ولهذا يرجو ويلتمس من سيادته تنفيـذاً شامـلاً للعدالة. وذكـر السيد المفتش المذكور أنه وافق على ما رجاه والتمسه لكونه لا يخالف القانون، وأمر باطلاعه على الخطايـا المنسوبة لـ (آنة فرننديش) المسلمة المتنصـرة المذكورة.

وبعد الاطلاع عليها، ونظراً لكونها بدت له كافية، فانه أمر بنسخها لكي تبرر اعتقال (آنة فرنديش) المذكورة. وتنفيذاً لذلك نسخت أنا، (جوان منديش) الكاتب بالمؤسسة المقدسة هنا خطايا (آنة فرنديش)، المسلمة المتنصرة المذكورة، تلك الخطايا التي ستأتي أسفله بالتتالي.

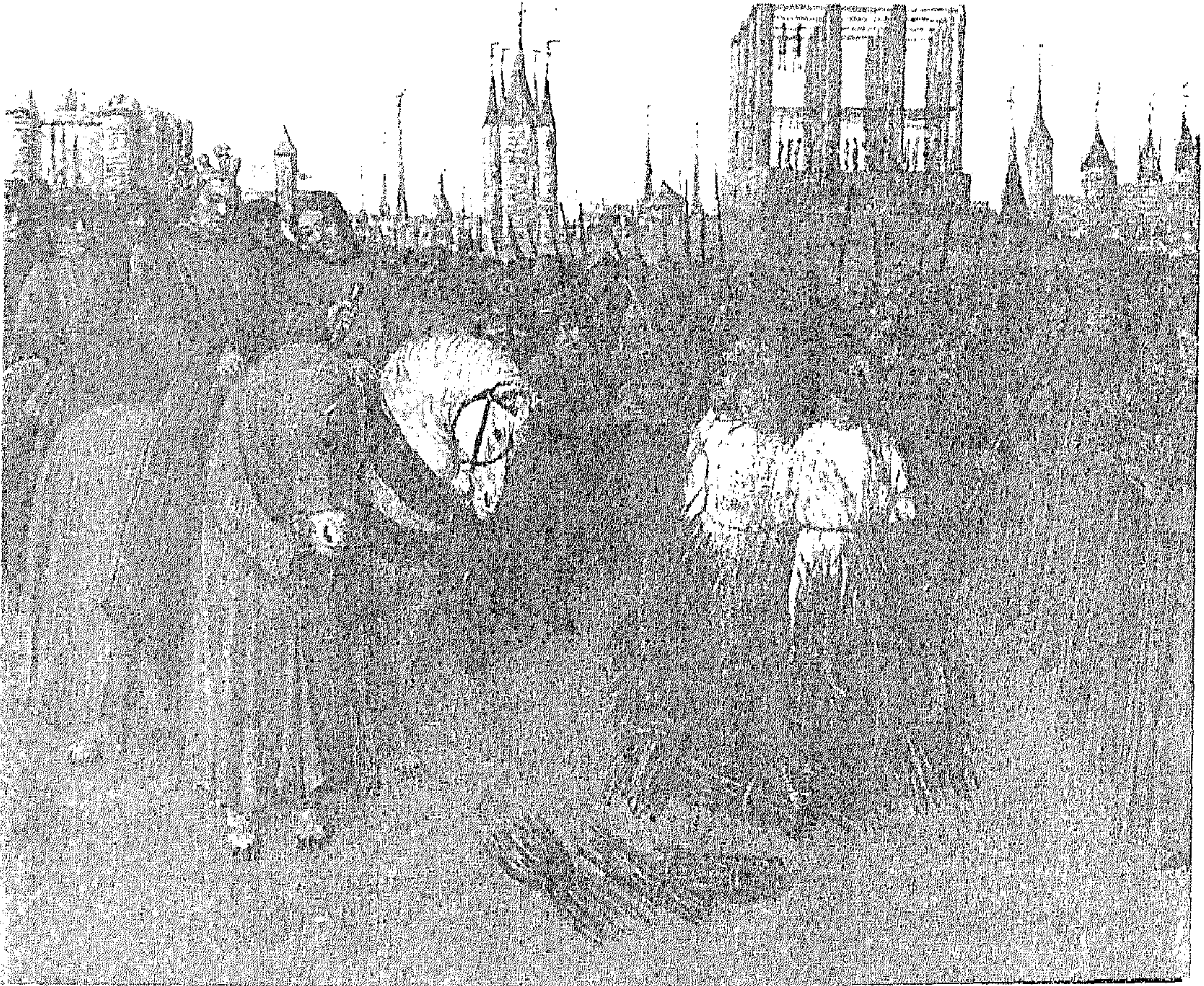
وحرره (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

شهادة (مريا نونش)، المسلمة المتنصرة الحرة الساكنة بهذه المدينة، يابرة، المعتقلة بسجن محكمة التفتيش هذه، ضد (آنة فرننديش دو ميلو) المسلمة المتنصرة المعتقلة كذلك بالسجن المذكور، هذه الشاهدة التي توجد ضمن اعترافات (مريا نونش المذكورة، وهي بالورقتين، ٣ و ٤[٤٥].

وبعد هذا، وفي اليوم الثلاثين من شهر مارس من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وبعد حضور السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو) المفتش.. الخ، مثل أمامه (أنطونيو فرننديش)، قائد السجن، وأخبر السيد المفتش أن (مريا نونش)، المسلمة المتنصرة المعتقلة بهذا السجن ترجو المثول أمامه. وفور ذلك أمر السيد المفتش المذكور باحضارها، ولما حضرت سألتها عما اذا كانت قد طلبت ذلك، فأجابت أنها فعلت ذلك لرغبتها في ارضاء ضميرها من أشياء تذكرتها. وفور ذلك أمرها السيد المفتش بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق. قالت أنه قبل أربع عشر سنة أو خمس عشرة، ومن ذلك الوقت الى الآن، أقول من ذلك الوقت الى الأربع أو الخمس سنوات الأخيرة كانت (مريا نونش) وفلان (كذا)، وبعض المسلمات المتنصرات، وكذا مسلمة متنصرة أخرى تسمى (آنة دوميلو) (و١٠ ب) التي كانت عبدة (روي دوميلو) رحمه الله، وكذلك أخرى تسمى فلانة، تسكن بالمكان الفلاني، وأيضاً فلان وفلانة المسلمة المتنصرة، عبدة فلان، وذكرت أن (آنة دوميلو) المذكورة تسكن مع فلانة المسلمة المتنصرة المذكورة، وأنها كانت لها معهن جميعاً، ومع كل واحدة منهن محادثات وصداقة، فكلما مرت بالشارع والتقت مع كل واحدة منهن تحدثن في ملة محمد، وتوسلن الى سيدي أبي العباس السبتي، أحد أولياء المسلمين، وتوسلن الى محمد، وأن المسلمات المتنصرات المذكورات كن يعتبرن أن العباس السبتي ولياً وكذا محمد، وأن (مريا نونش) كانت تتوسل الى محمد وسيدي أبي العباس السبتي بنية من هو مسلم، وأنها تعتبر أنهما قادران على مساعدتها في كل أمورها، وأدعت أن الخطيئة أضلتها، وأنها قامت بهذا عدة مرات من الوقت الذي ذكرته الى الآن، وأنها كذلك كانت كلما أكلت أو انتهت من ذلك تقوم بطقوس إسلامية، قائلة «باسم الله» و«الحمد لله»[٤٦]، كما يفعل المسلمون، وقالت أيضاً ذلك بعض المسلمات المتنصرات من الوقت المذكور الى الآن. وكان اولئك المسلمات المتنصرات، كذا فلانة و(ريا نونس)، كن يذهبن في بعض المرات والى سيدي أبي العباس السبتي. وكن يتوسلن كلما أردن الجلوس أو الوقوف كما سبق ذكره. وكانت (مريا نونش) بدورها تفعل كذلك بنية من هو مسلم دون أن يمنعها عن ذلك كونها توصلت بماء المعمودية المقدس.

سئلت عما إذا قاموا بأشياء أخرى من ملة محمد، وعما اذا قالوا أنها حسنة وأفضل من دين النصارى لأنه توجد معلومات تثبت أنها قالت وفعلت أموراً أخرى بالاضافة الى ما ذكرت ضد ديننا المسيحي المقدس، وطلب منها قول الحق لأن قوله الآن سيفيدها أكثر مما لو قالته بعد ذلك. ورغم ذلك، توسل اليها بسيدنا المسيح وبأمه المقدسة جداً أن تقول الحقيقة كلها لأنه بقولها ستمنح لها الرحمة التي تضمنها الكنيسة الكاثوليكية للمعترفين الحقيقيين، وبالسكوت عنها، وباخفائها، ستعرض للصرامة التي ينص عليها القانون.

(و١١). وبعد ذلك مباشرة ذكرت (مريا نونش) المذكورة أنه أيضاً بدار البارون المذكور قام بالشعائر الدينية (الإسلامية) كل الذين سبق ذكرهم، وقالوا ان ملة محمد أفضل من دين النصارى، ولم تعارض ذلك القول بل على العكس كان يعجبها أن تسمع ذلك، ولكنها الآن



عقوبة الإحراق في وسط الساحة في فرنسا، كما في البرتغال، (لوحة لجان فوكيه، باريس، المكتبة الوطنية).

تتأسف كثيراً لكونها فعلت وقالت ما سبق ذكره، ولكونها آمنت بملة محمد. ورجت المغفرة عن كل هذا لأنها نادمة عليه.

وصرحت أن (آنة دوميلو) المذكورة، وفلانة، المسلمة المتنصرة السوداء، وفلانة، أسيرة فلانة وفلانة، أسيرة فلان، اولئك النساء الخمس المذكورات أعلاه لم يكن يرافقنها الى النهر من أجل الغسيل، ولا الى دار البارون التي أشارت اليها. ومع ذلك، اذا ما لقيتهن صدفة بالشارع أو في أي مكان آخر، كانت تراهن وتسمعهن يتوسلن الى محمد والى سيدي أبي العباس السبتي، ويستغثن بهما. ولم تسمع قط غير هذا لأنها ليست ذات صلة وطيدة بهن أو بغيرهن من اللواتي ذكرتهن أعلاه. وعن كل هذا رجت المغفرة. وبما أن الجلسة دامت مدة طويلة، فان السيد المفتش أمرها بالعودة الى زنزانتها، وأمرها بالتفكير جيداً في أمورها، وبالتعجيل في التخفيف عن ضميرها لأنه بذلك قد لا يطيل محاكمتها. وكالعادة لم تجب. وبما أنها لا تعرف كيف توقع، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع نيابة عنها، وأمضيت الى جانب السيد المفتش.

وحرره بنتو نونش (Bento Nunes)، كاتب أسرار العدالة.

الشهادة التالية توجد ضمن اعترافات (غيومار رودريغش فراغوزا Guionmar Rod-rigues Fragosa) المسلمة المتنصرة المعتقلة بسجن محكمة التفتيش هذه بالأوراق[٤٧].

وبعد هذا، وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة بمحكمة التفتيش، وبمحضر السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المفتش البابوي بأسقفية يابرة هذه ومقاطعتها،... الخ، وخلال

الجلسات التي يرأسها كالعادة، حضر (أنطونيو فرنِنديش) قائد سجن المؤسسة المقدسة وأخبر السيد المفتش أن غيومار رودريغش فراغوزا، المسلمة المتنصرة المعتقلة بالسجن المذكور ترجو المثول أمامه. وفور ذلك أمرها السيد المفتش المذكور بالمجيء.

(و ١١، ب). ولما حضرت أمرها بأداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق بشأن كل ما ستسأل عنه أو تعلمه.

وبعد ذلك مباشرة ذكرت أنها تذكرت أيضاً أن (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة الحرة التي كانت في ملكية (روي دوميلو) المعتقلة بسجن المؤسسة المقدسة هذا، قالت لها أنه بعد موت زوجها هي (آنة دوميلو)، استدعاها أحد أخوة زوجها هي (آنة دوميلو) واستدعى آخرين وبالكسكس أعدا طعاماً كما يعده المسلمون حينما يتوفى أحدهم.

وذكرت أنه يبدو أن (آنة دوميلو) المذكورة قالت أنهم أكلوا آنذاك ذلك الطعام الذي أعداه كما يأكل المسلمون. وقالت لها كذلك (آنة دوميلو) المذكورة أنها جاءت من لشبونة الى هنا[٤٨] خوفاً من أن يبلغ بها لدى محكمة التفتيش وأن تعتقل بسبب الطعام المذكور الذي تناولوه، وأن هذا هو ما تذكره الآن، وان تذكرت غيره فانها ستأتي لذكره. وبهذا تم الأمر بارجاعها الى زنزانتها. وبما أنها لا تعرف كيف توقع، فقد طلبت مني، أنا الكاتب الشرعي، أن أمضي نيابة عنها. وأمضيت الى جانب السيد المفتش.

كتبه (بنتو منديش)، كانت المؤسسة المقدسة الشرعي.

تم نسخ الشهادات أعلاه عن أصولها الخاصة بعناية وأمانة على يدي، أنا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، ووقعت هنا بعلامتي الخاصة المنبسطة.

وحرر بيابرة، في اليوم السابع والعشرين من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين. مع التشطيب المتعلق بـ(Hox)، والذي لم يكن من أجل التزوير.

— جوان منديش.

هذه الخطايا تفرض اعتقال (آنة فرنِنديش دوميلو).

— أنطونيوش دكتور.

(و، ١٢). الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المفتش ضد البدع المقوتة وضد الردة بأسقفية يابرة هذه ومقاطعتها... الخ، آمركم (غنصلو فلوسو Goncalo Valloso)، الحاجب بالمؤسسة المقدسة أن تلقوا القبض على (آنة فرنِنديش دوميلو) المسلمة المتنصرة، أسيرة (لويش دوميلو) المعلم بمدرسة توجد بكتدرائية مدينة يابرة هذه، والتي تقطن بنفس المدينة، وذلك بسبب خطايا تهمها هي من اختصاص المؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش. وبعد اعتقالها خذوها الى سجن محكمة التفتيش هذه، وسلموها (لأنطونيو فرنِنديش)، قائد السجن المذكور.

يابرة، في اليوم الثالث عشر من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين.

وحرر على يد (جوان منديش)، الكاتب.

— أنطونيوش دكتور.

(و١٢، ب). وبعد الحاق هذه الخطايا (بالمحاضر) كما سبق أن ذكرت، أطلعت عليها، أنا الكاتب، المجاز المذكور (جرنيمو بيدروزا)، المحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة تنفيذاً لأوامر السيد المفتش المذكور.

كتبه جوان منديش.

للمحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة، وذلك للتمكن من المرافعة النهائية.

ومباشرة بعد ذلك، وفي نفس اليوم والشهر والسنة والمذكورين أعلاه، بمحضر السيد المفتش المذكور، مثل المجاز المذكور (جرمينو بيدروزا) المحامي المراقب بالمؤسسة المقدسة، وقدم هذه النازلة القانونية في صحبة مرافعته النهائية التي تأتي أسفله.

كتبه (جوان منديش).

— أنطونيوش دكتور.

السادة المفتشون الموقرون جداً:

من هذه المحاضر ورقات عدد[٤٩] يتبين أن المتهمة نصرانية معمدة ومعروفة بهذه الصفة، ومن محاضرها الشخصية، وكذا من خطاياها، وأيضاً من اعترافاتها نفسها، يتبين أنها ابتعدت

عن عقيدة سيدنا المسيح ورجعت الى ملة محمد واستمرت في ذلك من يوم تنصيرها الى أن تم اعتقالها بسجن هذه المؤسسة المقدسة. ونظراً لهذا، تستحق أن تعتبر ملحدة ومرتدة، وذلك باعتناقها الملة المحمدية وقيامها بشعائر وطقوس محمدية...(٥٠) واعتباراً لكون اعترافاتها تسمح لها بأن ترد ثانية الى الكنيسة الكاثوليكية وتحول دون تعرضها لأشد العقوبات التي ينص عليها القانون، فانها عقاباً لها على تلك الخطايا، تستحق الحبس ولباس التوبة المؤبد ومصادرة أملاكها..(٥١).

(و١٣، ب). وبعد هذه المرافعة أمر السيد المفتش بأن يبلغ إليها في النهاية وأن تستدعى كل الأطراف لسماع النطق بالحكم النهائي.

كتبه (جوان منديش).

التصريح الذي قامت به (غيومار رودريغش دو فراغوزا)، ضمن شهادتها ضد (آنة دوميلو) المذكورة، والتي توجد بمحضر (غيومار رودريغش دو فراغوزا) المذكورة، بالورقتين ١٩ و٢٠.

وبعد هذا، وفي اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر من سنة ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، بيابرة، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش، وضمن الجلسات التي يرأسها كالعادة السيد الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، المفتش...الخ، أمر باحضار (غيومار فرغوزا) المسلمة المتنصرة المعتقلة التي تتعلق بها المحاضر السالفة. ولما مثلت أمامه أمرها باداء القسم بالأناجيل المقدسة التي وضعت عليها يدها ووعدت بقول الحق بشأن كل ما ستسأل عنه أو تعلمه. وفور ذلك طلب منها السيد المفتش أن تقول له منذ متى توفي زوج (آنة دوميلو) لأن المتهمة ذكرت واعترفت أن (آنة دوميلو) المذكورة أخبرتها أنه بعد موت زوجها المذكور قامت بطقوس وشعائر دينية من ملة محمد، وأنها هي كذلك شاهدتها تقوم بالطقوس المذكورة، فلتقل منذ متى توفي زوجها المذكور. وفور ذلك ذكرت المتهمة المذكورة (غيمار ردريغش) أن زوج (آنة دوميلو) المذكورين توفي منذ ما يقرب من ست سنوات. وبعد وفاته أخبرتها بما صرحت به واعترفت به المتهمة ضد (آنة دوميلو) المذكورة كما سبق أن ذكرته أعلاه، وأن ذلك حدث فعلاً نظراً للقسم الذي قدمته.

وبما أنها لا تعرف كيف توقع، كلفتني، أنا الكاتب، بالامضاء هنا نيابة عنها. وأمضيت الى جانب السيد المفتش.

حرر هذا (بنتو نونش).

تم نسخ هذا كما يجب وبأمانة من النسخة الأصلية نفسها التي توجد بمحضر (غيومار فراغوزا) على يدي أنا، (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، وللتصديق على ذلك وقعت هنا اعتماداً على خاتمي المنبسط المعتاد.

بمدينة يابرة، في اليوم السادس والعشرين من أكتوبر من السنة المذكورة، ألف وخمسمائة وتسعة وخمسين، مع التعديل الذي يتعلق بكلمة (nos) لأن ذلك لم يكن من أجل التزوير.

ـــ جوان منديش.

يابرة، في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل من سنة ألف وخمسمائة وستين، التحقت، أنا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، وبأمر من السادة المفتشين بسجن محكمة التفتيش هذه، حيث توجد رهن الاعتقال (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة التي تتعلق بها هذه المحاضر، وطلبت منها أن تستمع الى النطق بالحكم المتعلق بها، والذي تحتوي عليه محاضرها، واعتماداً على هذا، أنجزت المحاضر التي بلغتها للسادة المفتشين نزولاً عند رغبتهم. وأنا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة، حررت هذا من التشطيب المتعلق بكلمة (Assy) لأن ذلك صحيح.

النطق بالحكم:

اتفق المفتشون الموقعون أسفله... الخ على أنه من خلال هذه المحاضر والاعترافات التي قدمتها المتهمة (آنة فرنسيشكو[٥٢] دوميلو) المسلمة المتنصرة الحاضرة، يظهر ويتجلى أنها تنصرت وتوصلت بالمعمودية المقدسة، وأضحت مرغمة على الايمان بتعاليم الأم المقدسة الكنيسة. ولكن المتهمة قامت بالعكس، وابتعدت عن ديننا المسيحي وارتدت الى الملة المحمدية المذكورة التي كانت تؤمن بها من قبل، وأصبحت

تضم نفسها لمسلمين متنصرين آخرين في بعض المأدبات. حيث كانت الوجبات التي تؤكل، والدعوات التي ترتل على المائدة تتم بطريقة المسلمين. وكانت المتهمة تقوم بكل هذا كمسلمة وبسبب ايمانها بملة محمد. وبهذه الصفة كانت تتوسل اليه وكذا الى سيدي أبي العباس السبتي، والى آخرين يعتبرهم المسلمون أولياء. وبهذا الايمان نفسه، وبسبب موت أحد الأشخاص، استدعت المتهمة مسلمين ومسلمات متنصرين. وخلال تلك المأدبة قاموا بكل طقوس المسلمين، وبعد انتهاء المأدبة بكت في صحبة الأفراد الآخرين الميت على طريقة المسلمين، وتوسلوا لمحمد أن يرحمه. وقامت المتهمة بكل هذا بنية من هو مسلم، وبهذه الصفة كانت تمتنع عن العمل أيام الجمعة وتصوم صيام رمضان لعدة أيام، وان كانت لا تتم الشهر كله. وقامت بهذا خلال السنوات التي ظلت مبتعدة عن الايمان، (تلك السنوات) التي كانت كثيرة كما صرحت بذلك ضمن اعترافاتها. ولقد احتفظت بذلك الايمان الى ان تم اعتقالها. وخلال المدة المذكورة لم تعترف بتلك الخطايا لأب الاعتراف، ولم تكن تؤمن حتى يكون الخبز والخمر المقدسين الجسم الحقيقي لسيدنا المسيح. واعتماداً على كل هذا، بالاضافة الى ما تحتوي عليه المحاضر يصرحون أن المتهمة كانت مبتعدة عن ديننا المسيحي المقدس ومرتدة عنه، وأنها معرضة للحكم بالفصل الأعظم وغيره من العقاب الذي ينص عليه القانون بشأن مثل هذه الخطايا الأكيدة.

ومع ذلك، واعتباراً لكون المتهمة اقتدت بالنصائح التي قدمت لها ورجت بسرعة العفو عن خطاياها، مقدمة دلائل على توبتها، واعتباراً لقلة الارشادات التي أعطيت لها في أمور الايمان، وبالاضافة الى ما يلاحظ من المحاضر، تقبلوا توبة المتهمة (آنة فرننديش دوميلو) وانضمامها الى الأم المقدسة الكنيسة كما رجت ذلك، ويأمرونها بالتخلي حسب الأصول عن بدعها الضالة. وعقاباً لها عليها يحكمون عليها بالسجن وبالبدلة الى أجل غير مسمى وحسب مشيئة المفتشين، حيث ستلقن كما يجب تعاليم الدين.

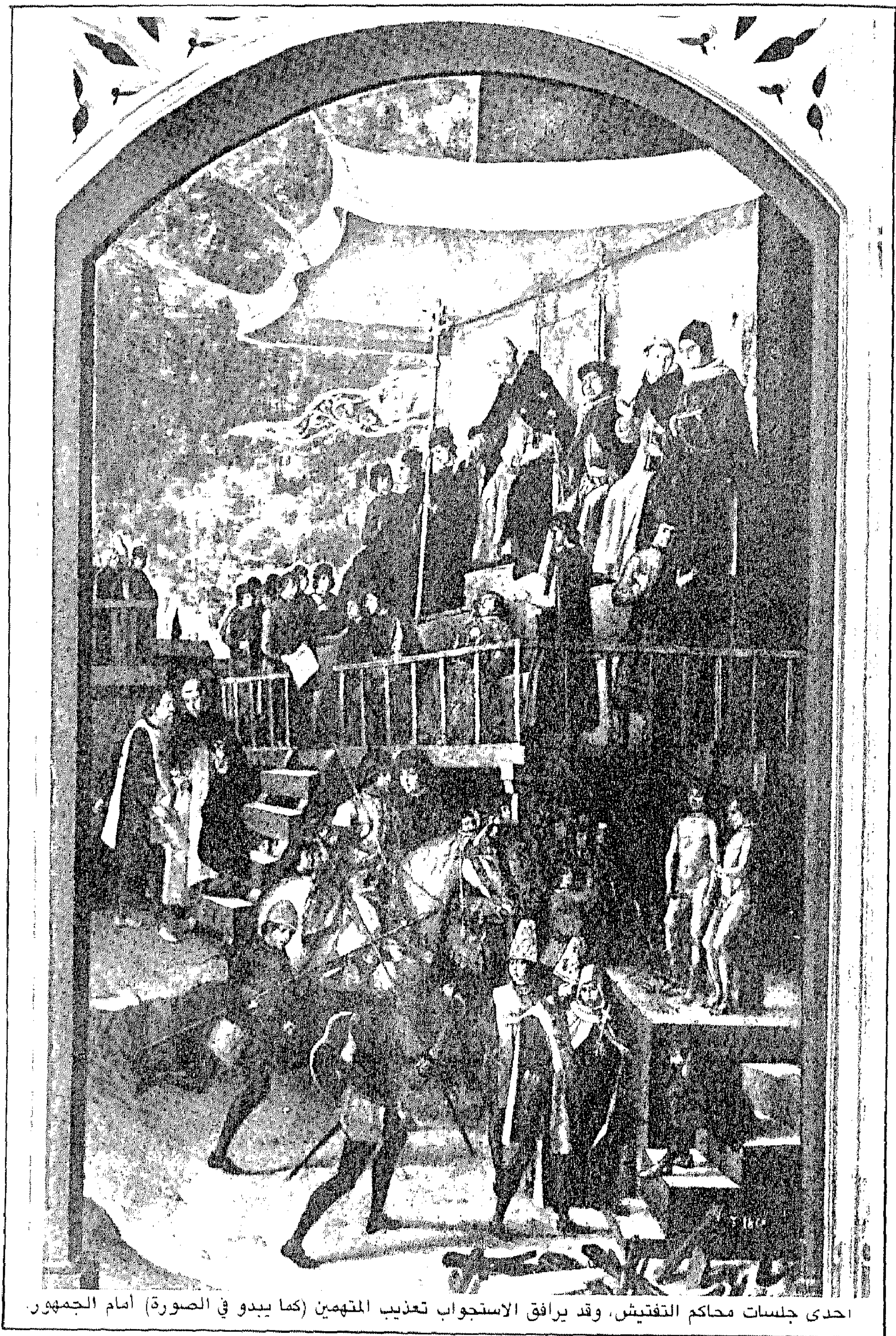
ويأمرون أن تكون معفاة حسب الأصول القانونية من الفصل المذكور عن الجماعة الذي كانت معرضة له، وأن تؤدي المصاريف.

ـــ أنطونيوش دكتور.
ـــ منويل دو كوادروش.
ـــ لويش الفريش دوالي فيرا.
ـــ أنطونيوش بيريرا دكتور.
ـــ بلا جيوش دكتور.

(و١٥، ب). تم النطق بالحكم المكتوب أعلاه بالحفل الديني العمومي[٥٣] الذي احتفل به بهذه المدينة، يابرة، بساحة دور محكمة التفتيش المقدسة، (أنا) (بنتونونش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة الذي أعلنته نزولاً عند رغبة السادة المفتشين من شخص (آنة دوميلو)، المسلمة المتنصرة المذكورة التي تتعلق بها المحاضر السالفة، والتي خرجت خلال الحفل المذكور لسماع النطق بحكمها المذكور في يوم الأحد ١٢ من شهر ماي من سنة ألف وخمسمائة وستين بمحضر السادة: الدكتور (أنطونيو دو كاشترو)، والمجاز (منويل دو كوادروش) المفتشين...الخ والسادة المحترمين جداً (منويل سنتوش)، أسقف تارغا[٥٤]، ودون (جيرمينو بريرا) أسقف[٥٥]، (وبيرو دوميراندا)، المشرف الأول على كنيسة الكردينال الأمير سيدنا، و[٥٥] كتدرائية مدينة يابرة هذه، و(جوان بيريرا)[٥٥] بها، والدكتور (منويل فييزيغاش) القاضي خارج (المدينة وضواحيها) بنفس العدالة، وغيرها. وأيضاً حضرها أصحاب السمو الرهبان واللائكيون وعدد كبير من الكهان القانونيين من الكاتدرائية المذكورة. وحضر كذلك عدد كبير من العامة سواء من الرهبان أو اللائكيين.

وحررت هذا أنا، (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

وبعد الاعلان عن الحكم المذكور كما سبق ذكره، جلست (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة المذكورة على ركبتيها ويدها على الأناجيل التي كانت في حوزتها، والتي كان يعلوها صليب، جلست على ركبتيها وتخلت علانية عن خطاياها حسب الأصول، وذلك التخلي الذي يأتي أسفله، والذي قرأ عليها بصوت مرتفع ومفهوم. وبعد ترديده صرحت (آنة دوميلو) المذكورة أنها



احدى جلسات محاكم التفتيش، وقد يرافق الاستجواب تعذيب المتهمين (كما يبدو في الصورة) أمام الجمهور.

تقبله. وأقسمت ووعدت بتنفيذه تماماً كما ينص على ذلك تصريحها المذكور. وعند بدايته أمضى عوضاً عنها لعدم استطاعتها ذلك (بينتو نونش)، الكاتب الشرعي المذكور بالمؤسسة المقدسة رفقة (أنطونيو نابو Antonio Nabo)، كاهن الصلوات والتراتيل و(منويل نوش)، و(بيرو كويليو)...[55] بهذه الكاتدرائية، والقاطنين بهذه المدينة الذين حضروا وعاينوا كل شيء ووقعوا جميعاً.

وحررت هذا أنا، (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

(و ١٦) التوبة عن الخطايا حسب الأصول

أنا (آنة دوميلو) المسلمة المتنصرة الساكنة بمدينة يابرة هذه، أقسم أمامكم سادتي المفتشين ضد البدع الضالة وضد الردة، أقسم بهذه الاناجيل المقدسة التي أضع عليها يدي أنه من تلقاء نفسي، ونزولاً عند رغبتي الخاصة، ألعن كل أنواع الردة والبدع كيفما كان نوعها، وأبعد نفسي عنها (وأعد) بأن لا أثور ضد الديانة الكاثوليكية المقدسة والكنيسة البابوية، خصوصاً في ما يتعلق بالخطايا التي سقطت فيها، والتي اعترفت بها أمام سماحتكم، والتي أمليت علي الآن خلال النطق بالحكم المتعلق بي، والتي رددتها وكررتها هنا بوضوح. وأقسم بالتمسك دوماً بالدين الكاثوليكي المقدس الذي تعلمه أمنا الكنيسة الرومانية المقدسة وسأكون دوماً مطيعة لأبينا البابا المقدس جداً (بي الرابع)، سيدنا الرئيس الحالي لكنيسة الاله، ولخلفائه المنتخبين قانونياً. كما أعد بأن لا أجتمع قط معهم وبأن أبلغ لدى المفتشين وأساقفة أمنا المقدسة الكنيسة بالبدع التي يعلمونها (كذا)، وأقسم وأعد بالتكفير عن ذنوبي كلما فرض علي ذلك. واذا ما عدت في وقت ما إلى السقوط في تلك الخطايا، أو غيرها من البدع، واذا ما امتنعت عن التوبة عن خطاياي المفروضة علي حالياً أو مستقبلاً، أقبل وأفرح بأن أكون طول حياتي مرتدة، وبالتالي معاقبة حسب القانون. واذا ما تبين مني في أي وقت ما يخالف ما اعترفت به وصرحت به بعد قسمي، أقبل أن لا تفيدني هذه التوبة في شيء، وأخضع نفسي للعقاب ولصرامة القانون المقدس. وأطلب من الكاتب بالمؤسسة المقدسة الحاضر أن يصادق على كل شيء. وأطلب من الحاضرين أن يكونوا شاهدين علي، وأن يمضوا هنا عن نفسهم ونيابة عني.

ــ أنطونيو نابو.

ــ جوان منديش.

ــ بنتو نونش.

(و١٦، ب). مبلغ (آنة دوميلو).

أيضاً: عن الكتابة المنبسطة فقط: ١٥٦ ريالاً.

أيضاً: عن الأوامر: ؟

أيضاً: عن العقود المضاة: ٧٠ ريالاً

أيضاً: عن التنقلات والاستدعاءات: ٢١ ريالاً

أيضاً: عن زيارة طرف واحد (كذا): ٤٠ ريالاً

أيضاً: عن الدفاع: ٩ ريال.

المجموع ٢٩٢ ريالاً

من هذا المجموع: ٢١ ريالاً.

(امضاء غير واضح).

يابرة، في اليوم الواحد والعشرين من شهر يناير من سنة ألف وخمسمائة وواحد وستين، بقاعة الجلسات بالمؤسسة المقدسة لمحكمة التفتيش. وبمحضر السادة الدكتور (أنطونيو دو كاشترو). والمجاز (منويل دو كوادروش) المفتشين... الخ، وبعد الاطلاع على قرار القبول ثانية بالكنيسة الموجودة أعلاه، والمتعلق بـ (آنة دوميلو)، المسلمة المتنصرة التي تتعلق بها المحاضر السالفة، وبما أنه تبين أن (آنة دوميلو) المذكورة نادمة، ومبدية علامات على كونها مسيحية حقيقية، وعلى تنفيذ توبتها لحد الساعة كما يجب، وعلى كونها مكونة تكويناً معقولاً فيما يخص الصلوات والعقيدة المسيحية، فانهما بعد الاطلاع على كل هذا، ولاعتبارات أخرى عادلة، اعتبرا أنه من الصواب اعفاء (آنة دوميلو) المذكورة من السجن الذي حكم به عليها بسبب خطاياها، وخلعا على (آنة دوميلو) المذكورة لباس التوبة الذي ارتدته تنفيذاً للحكم الصادر في حقها. ونصحا (آنة دوميلو) المذكورة التي كانت حاضرة أن تعيش من الآن فصاعداً مسيحية

حقيقية ووفية، وأن لاتتكلم مع المسلمين والمسلمات المتنصرين، وبأن تذهب أيام الأحد والأعياد لسماع التراتيل والصلوات والعقيدة المسيحية، وذلك كلما أمكنها ذلك، الشيء الذي وعدت بفعله. وبما أنها لاتعرف كيف توقع، قالت لي، أنا الكاتب الشرعي، أن أوقع هنا عوضاً عنها. ووقعت الى جانب السيدين المفتشين المذكورين اللذين أمرا بانهاء هذا المحضر.

حرر هذا (جوان منديش)، الكاتب بالمؤسسة المقدسة.

— منويل دو كوادروش.
— أنطونيوش دكتور
— جون منديش

Arquivo National, da Torre de Tombo
Inquisiçcao de E'vora M. 74 No. 6868.

الهوامش

المناهل — تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية — الرباط — المغرب.
العدد الواحد والعشرون — السنة الثامنة رمضان ١٤٠١هـ يوليو — ١٩٨١م

(١) Paris, 1636 T 1p. 94.

(٢) B. Rodrigues: Annais de Arzila Lisboa 1915 T. 1 p. 327 D. de Gois. Les portugais au Maroc. Trad. R. Ricard p. 228.

(٣) Lucio de Azevedo=Os cristàos novos p. 63.

(٤) كانوا يؤدون فضلاً عما يؤديه النصارى ضرائب مختلفة من بينها الشرعية. وهكذا أحصى مؤرخ برتغالي مايفوق ١٥ ضريبة: Etnografia pontuguesa=J. Leite Vasconcellos

(٥) راجع مثلاً من بين كتب «التشريفات الملكية». Chancelaria real de D. Duarte-Livro da Guadiana fl 194V° Alfonso V. Livro 95 de João II. Livro 8 fl 165 V° etc.

(٦) A. Herculano=Historia da origem e Establecimento da Inquisiçào Em. Portugal-1 pp. 65, 67, 68, 76, 77.

(٧) D. de Gois=op. cité p. 5.
A. Hercunalo=op. cité p. 96, 117.

(٨) A. Herculano-op. cité pp. 166, 171.

(٩) Ibid pp. 184-186.

(١٠) Lucio de Azevedo=op. cit. p. 90. ويصف المؤرخ البرتغالي O. Martins هذه الأوضاع الجديدة التي فقد فيها الإنسان انسانيته «بالطاعون» راجع = Historia de Portugal p. 329.

(١١) استطعت الحصول على نسخ لـ ٢٣ محضراً مما يوفر أكثر من ٧٠٠ ورقة من هذه الوثائق النفيسة.

(١٢) للتعرف على هذه الوثائق ولأخذ فكرة عن أهميتها راجع دراستنا: أحمد بو شرب. دكالة والاستعمار البرتغالي.. مصدر سابق صص: VI, VII, VIII, وملحق الدراسة الذي يحتوي على ترجمة ٢٣ ايصالاً.

(١٣) عنوان المحضر. وبأعلى الورقة بالزاوية اليسرى كتب: (آنة دوميلو)، المسلمة المتنصرة، وبالزاوية اليمنى كتب: القسم الثاني.

(١٤) مبالغ مالية، يرجح، أن يكون البرتغال قد عرف عملة كانت تنسب الى مدينة سبتة المغربية التي احتلّها البرتغاليون منذ صيف ١٤١٥. ويلاحظ أن هذا المحضر هو الوحيد الذي وردت به مثل هذه الاشارة اذ ذكرت كل المحاضر التي أطلعت عليها العملة البرتغالية المعروفة: الريال الفضي، الرزادوا الذهبي.

(١٥) هي «المدينة الغربية»، أو مدينة دكالة التي كانت حتى بداية القرن السادس عشر من أكبر مدن دكالة، والتي تسرب اليها الخراب بسبب الحروب التي أشعلها البرتغاليون بالمنطقة بعد احتلالهم لأسفي (١٥٠٨) وأزمور (١٥١٣)، وبسبب المجاعة الكبرى التي عرفتها المنطقة سنة ١٥٢٠ ووباء الطاعون الذي تلاها سنة ١٥٢١ راجع:
— Leon L'Africain=Description de L'Afrique-édit Epaulard T1 p. 122
— De Marurol=de L'Afrique-1pp. 111-112.
— E Doutté=En Tribu-pp. 195-197.

(١٦) يلمس من هذه الجملة شك الكاتب في كون من قبل الزواج ببنت متنصرة من أصل نصراني حقيقة. ويتجلى من خلال هذه المحاضر معاناة المغاربة كذلك من التمييز العنصري.

(١٧) لباس خاص بالذين حوكموا من طرف محاكم التفتيش يميزهم عن باقي السكان قصد أحكام مراقبتهم.

(١٨) أي أنه أعدم. وهي صيغة تسمح للكنيسة التي هي مبدئياً ضد القتل بالحكم بالاعدام اعتماداً على المحاكم المدنية. وكان هذا الحكم يعني الاحراق.

(١٩) يلاحظ أنها نسيت ذكر اسمها الإسلامي. وجاء في محاضر أخرى بعض الأسماء كعائشة، عزيزة،

فـاطمـة، وسعيـد وعبـد الله، ومبـارك، وأحمـد ومحمد...

(٢٠) باسم الله (أعلى)، والابن (سفل)، والروح القدس (يسار)، اله واحد (يمين)، آمين (تحت).

(٢١) لعلها صلاة: «أبانا الذي في السماوات...».

(٢٢) لعلهـا صلاة: «المجـد لاسمك أيتهـا القديسـة العذراء مريم...».

(٢٣) لعلها صلاة: «بالحقيقة نؤمن، اله واحد...».

(٢٤) ...... «خلاص النفس....».

(٢٥) أي المغرب.

(٢٦) في النص الاصلي (Cid belabez ceti) وهو غني عن التعريف.

(٢٧) في النص الاصلي (Molei Halee) وهو من سبعة رجال مراكش وجاء في محضر آخر أنه «فارس محمـد»، ولعل الاشـارة هنـا تقصـد عليـاً بن أبي طالب.

(٢٨) أورد الكاتب ترجمة الجملة الى اللغة البرتغالية.

(٢٩) حي مشهور بلشبونة، قرب مصب نهـر التيجو (Tejo).

(٣٠) مهمة هذا القاضي شبيهة بمهمة وكيل النيابة.

(٣١) أورد الكاتب الترجمة البرتغالية.

(٣٢) Alandruaa, Mofona Laçorolaa

(٣٣) تكثـر بالمحـاضر الترجمـات الخاطئـة للعبارات العربية التي نطق بها المتهمون أمام المحكمة.

(٣٤) Aloa quibir

(٣٥) أي أنها كانت عبدة تعيش ببيت سيدها.

(٣٦) Pascoa daluice guea وهو عيد الفطر.

(٣٧) Pascoa do carneiro وهو عيد الأضحى.

(٣٨) a do corpo مشطب عليها.

(٣٩) حاول عدد من المحاكمين الدكاليين التهرب من التهم المنسوبة اليهم بتقديم هذه الحجة مؤكدين على الفرق ما بين الحضريين والاعراب في القيام بالفرائض. وذكرت امرأة أنهـا لا تصلي لكـون النساء لا يقمن بذلك.

(٤٠) كلمة غير واضحة بالوثيقـة، لذا فقراءتهـا غير مؤكدة.

(٤١) نسبة الى مدينة (برغانصة Bragança) بالشمال البرتغالي. من أمجد الأسر البرتغالية وأقواها في ظل حكم أسرة (أفيش Avis) التي وصلت الى السلطة بعد ثورة ١٣٨٣. ولقد تم احتلال مدينة أزمور على يد (دوق برغانصة).

(٤٢) يعتبر اليوم من أشهر أحياء لشبـونة. ويمتـاز بأزقته الضيقة والملتوية. وكان حياً خاصاً بيهود العاصمة. والكلمة عربية الأصل عرفت تحويراً في النطق والاملاء ولعلها كانت «الحماة».

(٤٣) ورد بعدد من محاضر محكمة لشبونة أن هذه السيدة كانت من أكثر المغاربة المقيمين بالعاصمة البرتغالية اصراراً على العودة الى بلادها، وقامت بعدة اتصالات وأدت عدة مرات مبـالغ لبعض التجارة البرتغاليين المتخصصين في نقل المغاربة ــ سرياً ــ الى موانىء المغرب.

(٤٤) دون هـنـري (١٥٢٢ ــ ١٥٨٠) ابـن الملك (أمنويل)، وهو لذلك أخ الملك (جوا الثالث)، تم تعينه في ٢٢ يونيه ١٥٣٩ مشرفاً على محـاكم التفتيش الدينيـة البرتغـالية، وهـو الذي خلف (دون سبستان) بعد موته بـالمغرب (١٥٦٨ ــ ١٥٨٠).

(٤٥) يـلاحظ أن المحضر يعـود الآن الى الوراء الى ما قبل اعتقـال المتهمة، ذلك ان المحكمـة بعد توصلها باعترافات المتهمين تفتح ملفات خاصة بكل من تم التبليغ به، وإذا ما لاحظت المحكمة أن الخطايا كافية لاعتقال المتهمة يحـرر الأمر بالاعتقال.

(٤٦) Andrulaa Byzmilaa

(٤٧) لم يذكر الكاتب أرقام الاوراق التي يحيل عليها.

(٤٨) أي مدينة يابرة.

(٤٩) لم تذكر أرقام الأوراق المشار اليها.

(٥٠) كلمات لاتينية وبعض الرموز.

(٥١) كلمتان لاتينيتان.

(٥٢) الصحيح فرننديش.

(٥٣) ما يعرف بـ Autodafé.

(٥٤) قرية على ساحل الأبيض المتوسط قرب تطوان.

(٥٥) كلمات غير واضحـة بالأصـل واستحالت علي قراءتها.

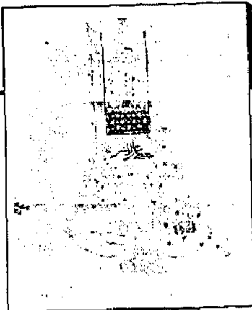


— أوّل جريدة عربية هي التي أنشاها نابليون الأول سنة ١٧٩٩ في القاهرة عندما كان قائداً للحملة الفرنسية في وادي النيل.
— أوّل جريدة عربية أنشأها عربي هي مرآة الأحوال في الأستانة سنة ١٨٥٤ لزرق الله حسون.
— أوّل مجلة عربية مصوّرة بكل معنى الكلمة «النحلة» .. أنشأها القس لويس صابونجي السرياني في سنة ١٨٧٧ في لندن.
— أوّل صحيفة عربية مرسومة بالوان جريدة «أبو نظارة» في باريس ليعقوب صنوع سنة ١٨٨٧.
— أقدم جريدة عربية لم تزل منتشرة: «الوقائع المصرية» المؤسسة سنة ١٨٢٨ في القاهرة.
— أوّل جريدة عربية ظهرت في أميركا في «كوكب اميركا». ١٨٩٢.



الغلاف الأول
سلطان باشا الأطرش
(راجع المقالة ص٢)

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.



الغلاف الأخير
خط ديواني (القرن ١٨)
(راجع المقالة ص١٠)

